الكسى فاسيليف

بترول الخليج والقضية العربية

تقديم: د/ فؤاد مرسى

051

دار الثقافة الجديدة

صوت البحرين
VOICE OF BAHRAIN
WWW.VOB.ORG

بترول الخليج والقضية العربية

بترول الخليج
والقضية العربية

الكسى باسيليف

تقديم : د/فؤاد مرسى

صوت البحرين
VOICE OF BAHRAIN
WWW.VOB.ORG

تقديم

د. فؤاد مرسى

عرفته عندما حطت به رحاله اخيرا فى القاهرة مراسلا لصحيفة (برافدا) . كان قد جوب فى آفاق الشرق من أوسطه الى اقصاه ، من الخليج العربى الى ايران الىفيتنام ، عائدا من جديد الى الشرق العربى حيث يعكف حتى الان على تأمل حاضره وماضيه . فصاحبنا مؤرخ متخصص فى احوال الجزيرة العربية ، ولقد نال درجة الدكتوراه عام ١٩٦٦ على رسالته عن الحركة الوهابية والدولة السعودية الأولى . لكنه مؤرخ اجتماعى ، مولع بمتابعة احوال البشر حيثما حطت به الرحال . ولقد ساعدته مهنة الصحافة على ان يكون ذلكالمؤرخ الاجتماعى الرحال ، الذى عرفناه فى تاريخنا العربى فى المثال الفريد لابن بطوطة او ابن خلدون . وعندما نزل صاحبنا بالخليج اخرج فى عام ١٩٦٥ كتابه عن النفط « الشعوب والاحتكارات » . وفى عام ١٩٧٠ ، وحرب التحرير فى فيتنام فى ذروتها ، يخرج صاحبنا من ارض المعركة بكتابه : الصواريخ فوق زهرة اللوتس ، بعده يعود الى ارض العرب ليكتب رحلته الى العربية السعيدة ، عن اليمن الديمقراطية ، وظفار ، ويصدر الكتاب فى عام ١٩٧٤ . لكن لا تلبث القضية العربية برمتها ان تصبح شغله الشاغل فيكتب عنها آخر كتبه : الشرق الأوسط الممر الصعب ، الذى صدر هذا العام فى موسكو .

صاحبنا هذا المستشرق المتعرب يصدر اليوم اول كتاب له بالعربية ، وهو ترجمة لكتاب اصدره بالروسية بعنوان (مشاعل الخليج العربى) واختار له عنوانا عربيا هو (بترول الخليج والقضية العربية) .وهو الكتاب الوحيد من بين كتبه الذى امكننى بالطبع ان اطلع عليه . فصاحبنا حين يكتب فانما يعنيهأن ينقل صورتنا نحن العربيةالى ابناء لغته،وهو بهذا يسدى خدمة جليلة لمطمح جليل هو الفهم المتبادل بين الشعوب . لكنه وقد حرص هذه المرة على أن يترجم كتابه الى العربية فلقد اراد فيما ارى ان نرى صورتنا نحن العربية عندما تنعكس على عقلية كاتب آخر من كتاب الغرب .

فالكتاب الذى بين ايدينا وان يكن يمثل باسلوبه الشيق وصوره الادبية لونا من ادب الرحلات الا انه يعالج جانبا رئيسيا من جوانب الثورة العربية وهو النضال لتحرير النفط العربى بخاصة وتطوير المجتمع العربى بعامة . ويظل صاحبنا يعالج موضوعه باسلوب الرحالة الذى يركز على حياة الناس ، يعرض للعادات ، ويرجع للتاريخ ، ثم يعود للحاضر على جناح اسلوبه الرقيق . اعجابه جم وحقيقى بساكن الصحراء ، فى كل من حاليه : حال النضال لتحرير نفطه وحال السعى لبناء مستقبله .

لقد كان التقدير ان سوف تعود سيادة دول منطقة الخليج على ثرواتها النفطية مع الثمانينات من هذا القرن . بيد ان القضية طرحت فى مقدمة جدول اعمال الشعوب العربية فى بداية السبعينات . لقد جاءت مبكرة بنحو عقد كامل من الزمان . ليس فقط بفضل الأوضاع الجديدة فى سوق النفط العالمية ، وانما كذلك وبصفة خاصة بفضل التحولات الايجابية لصالح قوى التحرر الوطنى فى كل ارجاء الشرق العربى . هكذا يقول صاحبنا الكسى فاسيليف .

فاحتكارات النفط التى تمثل فئة من اهم فئات راس المال العالمى والتى تسيطر على استخراج ونقل وتكرير وتسويق النفط قد واجهت — فيما بعد تاميم قناة السويس عام ١٩٥٦ — مقاومة متزايدة من جانب الشعوب والحكومات فى البلدان المنتجة للنفط . ان الصراع بين الشقيقات السبع والدول النفطية ودخول الشركات النفطية المستقلة قد دفعا الى تكوين منظمة الأوبك عام ١٩٦٠ ، وعندئذ اتخذت المقاومة قواما منظما على المستوى الدولى . واثمرت المقاومة فى بداية السبعينيات ، فى مؤتمر طهران فى مطلع عام ١٩٧١ ، وفى مؤتمر طرابلس فى ربيع العام نفسه . وكان تاميم نفط العراق فى عام ١٩٧٢ ايذانا بانتقال المقاومة من الناحية الكيفية الى مستوى اعلى . بعده سقط نظام الامتيازات وطرحت احتكارات النفط على الدول المنتجة اقتراحات المشاركة . غير ان القضية الملحة صارت هى السيطرة الشاملة للدول المنتجة على نفطها . ففيما بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٧٣ لم تحصل دول الأوبك الا على ٩٥ مليار دولار نظير انتاج النفط الخام . أما احتكارات النفط فقد حصلت على مبلغ يتراوح بين ٦٠٠ الى ٧٠٠ مليار دولار .

فى هذه الاثناء كان تطور آخر يؤكد وجوده . فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان التغير فى السيطرة على منابع النفط واستخراجه فى العالم العربى يجرى لصالح الاحتكارات الامريكية ، بل ان الحرب بين العرب واسرائيل عام ١٩٤٨ قد وجهت ضربة شديدة الى راس المال الانجليزى فى المنطقة ، وبخاصة بعد توقف ضخ النفط فى فرع انابيب كركوك/حيفا . ومنذ ذلك الوقت ، تاكدت سيطرة الاحتكارات الأمريكية على النفط العربى . واعتمدت على اسرائيل كقوة ردع فعالة للعرب .

ولا شك أن حرب اكتوبر قد جاءت فعززت مقاومة الدول العربية المنتجة للنفط ، التى بادرت وقتئذ بفرض حظر بترولى متنوع الكم والكيف على العالم الراسمالى . وتصاعدت من ثم أسعار النفط الذى كان يعتبر ارخص الطاقات فى البلدان الصناعية . وهنا تفجرت مشكلتان كبرتان . احداهما مشكلة داخلية هى كيف يستوعب المجتمع العربى عوائد النفط التى تضاعفت فجاة عدة مرات . والأخرى مشكلة خارجية هى كيف توفق الولايات المتحدة الأمريكية بين حاجتها الى النفط العربى وبين حاجتها ايضا الى الردع الاسرائيلى للعرب .

بالطبع لا يحاول الكسى فاسيليف أن يستقصى فهو رحالة لا ينتقل من بلد الى بلد فحسب ، بل من موضوع الى موضوع ايضا . وهو لا يقدم بحثا أكاديميا ، ولا تقريرا علميا ، بل تقريرا صحفيا ثريا بالمعلومات والانطباعات .

انه يطرح المشكلة الداخلية ببساطة ، فساكن الجزيرة العربية يعيش عالمين ، أحدهما عالم اقطاعى قبلى والاخر عالم عصرى . وينبغى ألا نضع اقطاعيى الجزيرة العربية على قدم المساواة مع اقطاعيى المغرب فى القرون الوسطى فاقطاعيو العرب قبليون . والمشكلة عند فاسيليف محيرة . فلم يكن النمو السريع للدخل القومى فى كل مكان من العالم أمرا ممكنا ، على حد قوله ، الا نتيجة تغيرات سياسية واجتماعية وثقافية سابقة . أما هنا ، فى الأرض العربية . فالوضع يختلف . فالانفجار المالى قد سبق الثورة الاجتماعية والسياسية والثقافية .

من هنا هذا التعقيد الاجتماعى البالغ فى مجتمع الجزيرة العربية ، بل وصعوبة الحديث عن التشكيلات الطبقية المعروفة . فالجيش والشرطة يعتمدان على البدو ، أما السكان الأصليون من صيادى أسماك وصيادى لؤلؤ وفلاحين فهم مصدر العمالة ، هذا مع حرص واضح على عدم السماح بتكون طبقة عاملة من ابناء البلاد . لكن التحولات الاجتماعية والتدابير التنظيمية تضطرد قدما مع انفجار الثروة النفطية التى تتحول الى ثروة مالية هائلة . واذا كان القطاع النفطى لم يتشابك بعد مع القطاعات الأخرى فى اقتصاد الجزيرة العربية ، فان الأموال التى تتدفق منه تطرح مسالة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول النفطية وللمجتمع العربى باسره . ويصبح السؤال الملح على القادة العرب المسئولين عن هذه التنمية : التنمية من خلال التكامل العربى أم من خلال التكامل الدولى اى من خلال الابقاء على التكامل الراهن مع السوق الراسمالية العالمية ؟ فالواقع أن الأموال العربية التى تتدفق على هذه السوق ، وبخاصة على الولايات المتحدة الأمريكية ، انما تضيف قوة الى قوة السوق الراسمالية العالمية ، فليس لأصحابها العرب سيطرة حقيقية عليها .

وعند هذا الحد يتساءل فاسيليف : هل من الممكن تصور أن المؤسسة الاقتصادية العسكرية التابعة للرأسمالية المعاصرة ستتراجع أمام أساطين المـال الجدد الذين ظهروا فى صحراوات آسيا وأفريقيا الكبرى ؟ هل تترك العرب يدمرون المعبد الاقتصادى للبلدان الصناعية الرأسمالية ؟ ومن ثم يطرح السؤال الذى لا مفر منه : أهى أزمة طاقةأم هىأزمة الرأسمالية؟

لكن الرأسمالية فى أزمتها ما زالت قادرة على الحركة المضادة . وهى تلف وتدور حول الأموال العربية بكل وسيلة متاحة . فالتضخم المتراكم فى الأقطار العربية المنتجة للنفط خلال الفترة من نهاية عام ١٩٧٣ الى نهاية عام ١٩٧٧ قد بلغت نسبته ٧٥٪ . ومعنى ذلك أن السعر الحقيقى للبرميل الواحد من النفط الخام ليس هو سعره الرسمى عند ١٢ر٧ دولارا ، وانما هو سعر آخر واقعى يتراوح بين ٧ الى ٨ دولارات ، بحيث ان التآكل فى العوائد النفطية قد تجاوز ٣٠٪ من السعر الرسمى . وبينما تعج منطقة الخليج العربى بالمراكز المصرفية ، قامت فيها مجموعة واسعة من فروع المصارف الدولية الكبرى التى تتعامل فى المال العربى . وتقدر الاستثمارات العربية فى البلدان الرأسمالية المتقدمة باكثر من مائة مليار دولار فى الأعوام الثلاثة المنتهية فى منتصف عام ١٩٧٧ ، والجزء الاكبر منهـا فى الولايات المتحـدة .

وهنا ينبغى الانتباه بشكل خاص الى تطور العلاقات الاقتصادية بين العرب والأمريكان ، فهى دائما لصالح الأمريكان . وبينما تشير الاحصائيات الى أن صادرات الولايات المتحدة الى بضعة اقطار من بلدان الخليج العربى قد بلغت ٤ر٤ مليـار دولار فى عام ١٩٧٦ ، وان وارداتها منها قد بلغت ٧ مليار دولار ، فان العجز فى الميزان التجارى ينقلب الى فائض لصالح ميزان المدفوعات الأمريكى بفضل ارباح عمليات النفط وايرادات الصفقات الحربية وتدفق الاستثمارات العربية الى السوق الأمريكية . ومع ذلك فهناك حقيقة تفرض نفسها باضطراد هى أن الولايات المتحدة قد أصبحت المستورد الرئيسى للنفط العربى . وحاجتها تشتد الى العرب .

هنا يطرح فاسيليف مشكلة العرب الثانية ، أو هى بالأحرى مشكلة أمريكا مع العرب ، أو هى فى النهاية مشكلة التناقض المحتوم الذى توجد فيه أمريكا فى الشرق العربى : فكيـف توفق أمريكا بين اعتبـارات الأمن الخاص بالطاقة ومصالح احتكاراتها النفطية هنـا وبين تاييد النهج العدوانى لاسرائيل ؟ فاذا كان الهدف الأول يتطلب تدعيم العلاقات مع الدول العربية ولو مع الدول المحافظة التى توجد بها الثروات النفطية الأساسية ، فان الهدف الثانى يدفع أمريكا فى الاتجاه المضاد لان أمريكا بحاجة الى النفط العربى وبحاجة مماثلة الى الردع الاسرائيلى . ولا مجال فى المستقبل المنظور للتوفيق بين تناقض بهذا الوزن . وهنا يبدى فاسيليف ادراكا بالغ الشفافية للواقع العربى . فمن المستحيل كما يقـول اغفـال المشـاعر

القومية والدينية لحكام شبه الجزيرة العربية . وفى هذا الاطار ، نستطيع أن نقول ان فاسيليف كان شديد التحفظ عند معالجتـه للدور الايرانى فى الخليج . فقد كان ينبغى أن نتعرف أكثر على ابعاد الأخطار التى تمثلهـا مشروعات التوسع الايرانى فى اراضى الخليج العربى .

المهم أنه بهذه الرؤية المستنيرة يتناول صاحبنا القضية العربية حتى عام ١٩٧٥ . وكنا نتوقع أن تلقى هذه الرؤية مزيدا من الضوء على موقع اسرائيل عبر القضية العربية ، باعتبار العلاقة العضوية التى تجمع بين اسرائيل واحتكارات النفط العالمية وفى مقدمتها الاحتكارات الامريكية ، فما زال الموضوع لم يستكشف بعد بمافيه الكفاية . ولعل صاحبنا أن يكون قد استدرك ما فاته فى كتابه الأخير والذى اسماه (الشرق الاوسط ـ الممر الصعب). فمازلنا جميعا بحاجة لاثبات أن الشرق العربى مازال الممر الصعب على أعداء العرب .

القاهرة فى آخر نوفمبر ١٩٧٨

د. فؤاد مرسى

مقدمة

تئن الجزيرة وكانها وحش ضخم جريح ، وينتشر هذا الانين ، الذى ينقلب زئيرا ــ ينتشر ليغطى مساحه كبيرة من الفضاء فوق الأمواج بلونها الزجاجى الأخضر . ومصدر الصوت اللهب المنبعث بقوة جامحة من غاز آبار البترول . وفى بعض الأحيان تتجعد السنة اللهب البرتقالية المشوبة بلون الوحل ، ويهبط الدخان الأسود ليجثم على الأرض ، وذلك تحت وطأة نفحات الرياح . ويغطى الدخان الهياكل الحديدية المتشابكة ، والممر الجوى الصغير ، ومراسى السفن ، ومستودعات البترول . وما من قطاع صغير من الأرض يخلو من هذه المشاعل ، حيث يعج المكان بالناس والسيارات بجانب اللهب المسعور . هنا يعيش الناس ، ويعملون محاولين عدم الاهتمام برائحة الغاز ، ووميضات الحريق الدائم المتجهمة .

أصبحت جزيرة داس فى الخليج العربى المركز الرئيسى لتجميع البترول والغاز من الآبار البحرية التابعة لشركة « ابو ظبى مارين ايريز » وينبعث اللهب بدرجات متفاوتة من القوة من غاز آبار البترول فى الكويت ، والمملكة العربية السعودية ، وقطر ، والعراق ، وعمان ، والبحرين . وبدا البدو الرحل والصيادون يسترشدون بها بالليل .

كانت الحياة منذ عهد قريب نسبياً تسير فى بطء تحت الأسطح المستوية للمنازل المبنية من الطين والمتناثرة بالقرب من الآبار المائلة مياهها الى الملوحة ، وفى خيام البدو السوداء . وكان ساحل

الجزيرة العربية المطل على الخليج العربى يبدو تقريبا بنفس الصورة التى وصفها فى القرن الرابع قبل الميلاد المؤرخ اليونانى ، الذى قام برحلة من الهند مع نيارخوس قائد أسطول الاسكندر المقدونى .

والآن تغطى انابيب البترول الصحراء والمياه الساحلية ، ويعمل عشرات الالاف من العمال والمهندسين بصورة محمومة فى حفر الآبار وبناء محطات الضخ ، واقامة مراسى موانى البترول فى البحر . وتبتلع ناقلات البترول التى تبلغ حمولاتها ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ الف طن السائل الزيتى الأسود فى جوفها وتكاد تخلو مراكز الشحن من البشر ، حيث لاترى سوى تبادل الغمزات بين مصابيح العقول الالكترونية المتعددة الألوان .

وتظهر على حافة الصحراء والبحر مدن أكثر من عصرية ذات اشكال معمارية جريئة ، تبدو كالسراب فى الجو الملتهب المرتجف قيظا ، ولكنها مدن محسوسة توجد فى الواقع . وتنشب حجافل البولدوزرات البرتقالية اللون اظافرها فى رمال الجزيرة العربية الرمادية ، وتهيىء الأرض لبناء احياء جديدة ، وتعمل أكبر محطات فى العالم لازالة ملوحة مياة البحر ، حيث تستخدم الناتج من المياه العذبة لا لاطفاء ظما البشر وحدهم ، بل ولرى النخيل فى ميادين المدن ، ورى مزارع الخضروات ، التى تتم زراعتها على الرمال مباشرة باستخدام المحاليل المغذية للنبات .

وكان حاكم امارة ابو ظبى نفسه يركب منذ عدة سنوات سيارة « الجيب » القديمة الوحيدة بالبلاد ، يسير بها عبر طرق البلاد غير المهدة . اما الآن فقد غطت شبكات الطرق الصحراء ، كما ان اجهزة الرادار تتابع تنفيذ قواعد المرور فى الطرق السريعة ، وبالقرب من العواصم الفتية يتراكم الغبار فى مدافن السيارات ، كما هو الحال بالقرب من المدن الأمريكية الكبيرة .

ومن الممكن أن ترى فى الشارع الرئيسى فى اى مكان بالكويت عربيا فارع الطول يرتدى الجلباب الأبيض الذى يصل بطوله حتى العقبين — والمسمى بالدشداشة — وبجانبه تخطو زوجته

مرتدية برقعا اسود ، مخفية تحته ((المينى جيت)) . وفى المملكة العربية السعوديه المجاورة تنقل مكبرات الصوت فى أوقات الصلاة صوت المؤذن . وتلهب عصى المطوع — البوليس الدينى — حماس المومنين وتدعوهم للاتجاه للقبلة خمس مرات فى اليوم .

وتهب من الجزيرة العربية صيفا عواصف رملية ، وتسوق الرياح سحبا من الرمال حمراء بلون الصدأ ، ويتغلغل الغبار والرمل فى البيوت ، والماء والطعام ، ويصر بين الأسنان ، ويطمر الأعين ، ويجفف الهواء الساخن الجسم ، ويثير الظما وتكثر ضربات الشمس .

ويأتى مع الرياح من أعماق الصحراء البدو الرحل بشعرهم الطويل الأسود الفاحم ، ينظرون باعينهم المكحلة ، الى الأسواق المفامة من الزجاج والمسلح ، والى المدن الغارقة فى اضواء الكهرباء بنظرة ملؤها الدهشة الممزوجه بالسرور والفهم والاستنكار .

وها هى قرى الباحثين عن اللؤلؤ فيما مضى تصبح مراكز تجارية وصناعية . ويحكى أن أحد التجار العراقيين عرض على أمير الكويت منذ حوالى ثلاثين عاما ثلاجة . فأجاب أمير الصحراء فى اعجاب : ((عظيمة جدا ، ولكنها غالية جدا)) ، من المحتمل الا تكون هذه القصة سوى أسطورة ، ولكنها ربما كانت حقيقة . اما الآن فان ((مرتب)) حاكم الكويت المعلن رسميا يفوق عشرات المرات مرتب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وأمير الكويت . مثله مثل امراء البترول الآخرين . من بين اعضاء نادى اصحاب المليارات العالمى .

تفوح فى الجو رائحة المال الذى لا يبلغ ارقاما كبيرة فحسب ، بل ارقاما خيالية . وهنا يلتقى رجال الأعمال من جميع اركان العالم منهم من ينتمى الى عالم الأسماك الصغيرة ، ومنهم من ينتمى الى عالم الحيتان ، والذين تلتقى باسمائهم على لوحات الاعلانات من طوكيو حتى لندن ، ومن نيويورك حتى سنغافورة . وتغادر عواصم أوربا الغربية الفتيات الشقراوات صاحبات ((اقدم مهنة عرفتها النساء)) ، وقد اشترين التذاكر فى اتجاه واحد فقط : باريس

ـ الكويت ، لندن ـ الدوحة ، يحدوهن الأمل فى العودة بحقائب مليئة بالأوراق المالية الكبيرة .

تتلألأ على أشجار النخيل اسبطة الثمار الحمراء والصفراء ، ويقدم عبقرى كرة القدم بيليه عرضا فى الاستادات المغطاة بالتراب، وتعزف أفضل فرق الجاز العالمية موسيقاها فى الفنادق للأمراء ، والمرابين والمضاربين ، والضباط المرتزقة ، وتمتلىء البيوت الطينية القديمة بالمهاجرين بصورة شرعية أو غير شرعية ، وقد فاضـــوا اما املا واما قنوطا .

هذا هو حاضر الخليج العربى .. حمى البترول .. ظـــاهره وباطنه .. الثراء الفـــاحش والفقـــر المدقع ، ما يتخطى العصر وما ينتمى الى العصور الوسطى . كل شىء معا .

■

سبع شقيقات .. يقتسمن البترول

فلنقدم للقارىء أبطال هذا الكتاب .. أبطال الدراما التى تدور أحداثها على سواحل وفى مياه الخليج العربى ، أو الخليج كما يتردد بكثرة فى الصحافة العالمية . والأبطال هم الدول العربية على ساحل الخليج من جهة ، والاحتكارات البترولية العالمية من جهة أخرى .

اذا كان العالم قد عرف منذ وقت بعيد ايران ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، فان دولا مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان ، والامارات السبع التى تكون دولة الامارات العربية المتحدة (وهى أبو ظبى ، دبى ، الشارقة ، عجمان ، رأس الخيمة، الفجيرة ، أم القوين) لم تكن معروفة حتى وقت قريب الا للمستشرقين وحدهم . وأكبر هذه الدول عددا هى الكويت . حيث يعيش حوالى مليون نسمة ، أما أم القوين ، فيعيش بها أربعة آلاف نسمة فقط . ونود التنويه مسبقا الى اننا سوف نتناول بالحديث بصفة رئيسية الدول الواقعة فى الجزيرة العربية . فهناك الكثير من الكتب التى تعرضت لايران والعراق ولا شك أن الحديث حول مشاكل هاتين الدولتين بقدر من الشمول من شأنه أن يزيد حجم الكتاب كثيرا . ولكن انطلاقا من أن دول حوض الخليج العربى مرتبطة فيما بينها فى النواحى البترولية ، والسياسية والاقتصادية فانه يتحتم فى بعض الأحيان تناول الأحداث فى ايران والعراق بغية فهم الموقف فى الجزيرة العربية بصورة أفضل .

كانت اهمية شبه الجزيرة العربية فى عهد ما قبل البترول ترجع الى موقعها الاستراتيجى ، ودورها السياسى الدينى فى العالم الاسلامى ، حيث توجد فى السعودية مدينتا مكة والمدينة المقدستان فى الاسلام الذى تقضى تعاليمه بتأدية المسلمين لفريضة الحج الى مكة . ولكن الوضع مختلف الان فان صدى اى صدام بين قبائل البدو فى الشارقة والفجيرة يتردد عاليا على سواحل نهر هدسون ونهر التيمز وخليج طوكيو ، ذلك لأن كل شيء يدور الآن حول البترول الذى تنحصر رسالته فى اطفاء ظمأ الطاقة فى الولايات المتحدة الأمريكية واوربا الغربية واليابان . فمن المعروف أن منطقة الخليج تحوى ثلثى الاحتياطيات المكتشفة — فى العالم خارج نطاق الدول الاشتراكية — من هذه المادة الخام المستخدمة فى الصناعة والطاقة ، كما أن تكاليف استخراج البترول هنا تبلغ أدنى مستوى لها فى العالم ، وفضلا عن توافر أفضل الظروف ملاءمة لنقله . ويجتذب اى حدث تشهده منطقة حوض الخليج العربى انظار الجانب الآخر من ابطال الدراما المتمثلين فى الاتحاد الدولى لشركات البترول المعروف باسم « الشقيقات السبع » . وتضم أسرة هؤلاء الشقيقات شركات « ايكسون » (استاندرد اويل أوف نيوجرسى فيما سبق)، « استاندرد أويل أوف كاليفورنيا » ، « جالف أويل » ، «تكساكو»، « موبيل أويل » — وكلها شركات أمريكية — وشركة « رويال داتش شل » انجلو هولندية ، وشركة « بريتش بتروليوم » البريطانية .

الأسرة الاحتكارية

فى عام ١٨٥٩ تمكن الأمريكى ادوين دريك — وكنيته العقيد وهو ميكانيكى وابن احد المزارعين — تمكن من حفر أول بئر بعمق ٢٣ مترا فى بنسلفانيا ، واستخرج منها الوقود السائل . وفى عام ١٨٧٠ بلغ الانتاج العالمى من البترول حوالى ٨٠٠ الف طن . وازدادت أهمية البترول بدرجة غير عادية خلال قرن ، حتى بلغ انتاجه ٢٧٦٠ مليون طن عام ١٩٧٤ .

بدأ استخدام البترول بفضل اختراع مصباح الكيروسين . وأدت تجارة الكيروسين الى ارتقاء شركة « ستاندرد أويل » التى أسسها روكفلر وتعتبر الام الكبرى لغالبية الشركات الامريكيه « الشقيقه » . وبدأت الأساطيل الحربية ، ثم تلتها الأساطيل التجارية فى استخدام المازوت كقوة محركة فى العقد الأول من القرن العشرين . وأثار محرك الاشتعال الداخلى ثورة فى عالم البترول ، وادى الى الحاجه الى البنزين ، وهو الوقود الذى يحترق الان فى مئات الملايين من السيارات ، والمحركات المستخدمة فى المصانع ، والماكينات الزراعية ، ومحطات الضخ ، وقاطرات السكك الحديدية ولا يمكن للعتاد الحربى من دبابات ، ومدافع ذاتية الحركة ، وطائرات ، وسفن ، الاستغناء عن المنتجات البترولية . وللبترول مميزات ترجح كفته عن انواع الوقود الأخرى : فسعره الحرارى اكبر مرة ونصف من أجود أنواع الفحم ، كما أن تكاليف استخراجه أقل ، ونقله أسهل وأرخص ، هذا فضلا عن أن الشحومات والزيوت الميكانيكية المستخرجة من البترول تعتبر مادة ضرورية للماكينات والآلات على اختلاف أنواعها . ويعتبر البترول والغاز مادة خام رئيسية فى الصناعات الكيماوية ، فى انتاج عشرات الآلاف من مختلف انواع المنتجات من الصابون والكولونيا حتى البويات والبلاستيك ؛ ومن المتفجرات حتى الكاوتشوك ، ومن المنسوجات الصناعية حتى الأسمدة ، ومن العقاقير الطبية حتى البروتينات الصناعية .

ومع بداية القرن الحالى وقعت شركة « ستاندرد أويل » تحت وطأة التشريعات المقيدة للاحتكارات فى الولايات المتحدة الأمريكية فانقسمت الى ثلاثين شركة منفصلة قانونيا ، ولكنها ظلت فى اطار امبراطورية آل روكفلر . ومن بين كبريات شركات روكفلر « الشقيقة » شركات « ستاندرد أويل أوف نيوجرسى » و « موبيل أويل » و « ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » . وظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك « شقيقتان » هما شركة آل ميلون « جالف أويل » وشركة « تيكساكو » التى يشارك فى رأسمالها آل مورجان وآل روكفلر .

وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عقد فى

سومطرة زواج منفعة بين شركة « شل » الانجليزية ، وشركة « رويال داتش » الهولندية ، معلنا بذلك مولد « الشقيقة » البترولية السادسة « رويال داتش شل » . ولقد عمد الشركة الوليدة هنرى ديترينج الهولندى الجنسية والذى احتل منصب رئيس الشركة الجديده ، وتجنس بالجنسية الانجليزية وتمكن فيما بعد من أن يضيف الى اسمه لقب « سير » .

أما الشركة الاحتكارية السابعة — شركة « بريتش بتروليوم » — فقد ولدت فى منطقة الخليج العربى مباشرة ، ولذا يستوجب الأمر الوقوف على تاريخها بالتفصيل .

« واصل « دارسى » عمليات التنقيب — وقد جف عوده وغطت التجاعيد وجهه نتيجة للهيب الشمس فى الصحارى الفارسية ، وقد بدأ الانهاك عليه ، ورغم هذا ظل الايمان بالله وبفكرته يملأ قلبه ، فأخذ يركع أمام الصليب بصورة متزايدة » بهذه الكلمات التى تفوح بروح النحيب المكبوت يحدثنا أحد المصادر الغربية الرسمية الخاصة بتاريخ الصناعة البترولية فى الشرق الأوسط ، عن زهد ومآثر الرجل ، الذى يزعمون انه كان « أبو البترول فى الخليج العربى » .

والواقع أن دارسى لم يفعل أكثر من انه قام برحلة الى القاهرة لزيارة الأهرام حين كان يعبر قناة السويس فى طريقه من استراليا الى انجلترا ثم زار طهران بعد بضع سنوات . ومن المشكوك فيه أنه رأى برميلا واحدا من البترول ، أما اذا كان قد صلى ، فانه كان يصلى للذهب وحده دون جدال . لقد جمع ويليام نوكس دارسى — المنعم المرفه الأكول — ملايينه الأولى بفضل اكتشاف الذهب فى كوينزلاند باستراليا ، ثم عاد بعد ذلك الى انجلترا لينعم بثمار نجاحه ، حيث كان اللوج الخاص به فى أرض السباق ينافس لوج الأسرة الملكية فى الترف .

وكان دارسى من بين الأوائل الذين أدركوا أن العصر الجديد سوف يسبح فوق أمواج المازوت . وهذا ما دعاه للشروع فى العمل ، الذى جاء فى الواقع بفيروسات حمى البترول فى الخليج

العربى ، وهى الحمى التى كانت تبدو بالمقارنة بها حمى الذهب فى كاليفورنيا والاسكا واستراليا فى القرن الماضى مجرد نزلة برد .

وفى عام ١٩٠١ حصل دارسى على امتياز خاص من شاه ايران يقضى بأن يقوم صاحب الامتياز « باستخراج الغاز الطبيعى والبترول والأسفلت وتطوير عمليات التنقيب ، واعداد المنتجات للاتجار بها ، وتصديرها وبيعها وذلك على امتداد أراضى الامبراطورية الفارسية باستثناء الأراضى الشمالية المجاورة لروسيا » على أن يسرى الامتياز لمدة ستين عاما . والجدير بالذكر أن المساحة التى سمح لدارسى باستغلالها ، تفوق مساحة انجلترا وفرنسا مجتمعتين . وكان على صاحب الامتياز أن يدفع لحكومة ايران مبلغ ٢٠ الف جنيه استرلينى فورا ونقدا ، على أن تحصل الحكومة بعد ذلك على ١٦٪ من الأرباح سنويا . ولنتذكر جيدا هذه الأرقام كى نتفهم بصورة أفضل كيف أخذت حكومات الدول البترولية بالثأر بعد مرور سبعين عاما .

لم يحالف الحظ البئر الأولى فقد نضب البترول بعد شهرين من العثور عليه . وبدأ المهندس رينولدز — وهو رجل قوى وعنيد — الحفر فى مكان آخر . وأخذت النفقات فى الزيادة ، وبدأ دارسى يفقد الأمل والصبر واضطر الى رهن أسهم مناجم الذهب الخاص به فى البنك . غير أن كبار أصحاب الأموال كانوا يعرفون ماهية البترول ، ولذا كانوا يراقبون نشاط دارسى باهتمام . ولم يخف على أحد كذلك ما يعانيه من ضائقة مالية . وهنا قرر المليونير الفرنسى روتشيلد — الذى كان يعرف الأحوال المالية للآخرين أفضل مما يعرفون هم أنفسهم — قرر الاستحواذ على الامتياز الايرانى . وتم اللقاء على صوت رنين كؤوس الشمبانيا فى اليخت الخاص بروتشيلد بالقرب من مدينة كان . غير أن الأسطول البريطانى الذى كان يتحول الى استخدام المازوت بدلا من الفحم — كان فى حاجة الى البترول . وخشيت الحكومة الانجليزية أن يحصل الفرنسيون على الامتياز ، فأهابت بالأحاسيس الوطنية لمواطنها دارسى . وأعلن دارسى أنه على استعداد للتضحية بحياته باسم الملك والبلاد . والواقع انه لم يخسر كثيرا ، ذلك لأن روتشيلد اشترط عليه شروطا قاسية . وبدأ دارسى مفاوضات نقل ملكية الامتياز الى شركة

« بورما أويل » الانجليزية وهى الشركة التى كانت تسعى للحصول على البترول الايرانى .

وفى هذه الاثناء كان العاملون فى حفر الآبار يتصببون عرقا فى الصحراء ، وهم يعانون من الدوسنتاريا وضربات الشمس ، ويشعرون وكأنهم يشوون على المقلاة ببطء . وأخذت حلقة عداء القبائل المحلية ، التى لم تتلق الأجر المنتظر والهدايا — تضيق من حول مجموعة التنقيب برئاسة رينولدز . ولم تكن السلطات الانجليزية فى الهند نائمة فارسلت الى هناك مجموعة من القوات الاستعمارية لحماية العاملين فى مجال البترول وذلك رغم أن ايران كانت تعتبر دولة مستقلة . ولم يبلغ الشاه الا بعد أن أصبح الجنود الانجليز فى اراضى البلاد . وكان يقود هذه المجموعة الملازم الشاب أرنولد ويلسون الذى أصبح رجل أعمال ومدير الشركة للبترول العاملة فى ايران . وقبيل الحرب العالمية الثانية تم انتخابه عضوا فى البرلمان عن حزب المحافظين ، « واشتهر » بالدعوة للتعاون الانجلو المانى ضد الاتحاد السوفيتى .

لم يظهر البترول بعد ، وكان عام ١٩٠٨ ، واجتمع فى لنـــدن أعضاء هيئة الشركة الاحتكارية ، الذين باعهم دراسى أسهمه ، وذلك لمناقشة المستقبل المظلم . وقرر المجتمعون أن الوقت قد حان للتوقف عن الانفاق . ورغم أن العمل كان يجرى فى ذلك الوقت فى حفر بئر جديدة فى منطقة مسجد سليمان الا أن المجتمعين فى لندن ارسلوا برقية الى رينولدز تأمره بوقف عمليات التنقيب ، وفك المعدات ووصلت البرقية على جمل من بغـــداد ولكن رينولدز لم يرضخ للأمر وواصل العمل على مسئوليته . وفى مايو عام ١٩٠٨ انبجست نافورة البترول فى موقع مســـجد سليمان والتى تعتبر الأولى فى منطقة الخليج . وارسل رينولدز رسولا الى بغداد كى يبعث ببرقية الى لندن تزف البشرى . غير أن الضابط ويلسون الشاب لم يكن يوجد بين العاملين بالتنقيب عبثا ، فقد اســـتخدم التلغراف الحربى عن طريق الهنـــد وحاول أن تحاط الحكومة البريطانية علما باكتشاف البترول قبل صاحب الامتياز .

وفى عـــام ١٩٠٩ تم تكوين « الشركة الانجلو فارسية للبترول » ،

والتى أصبحت شركة بهاما أويل شريكا فيها بدفعها مليون جنيه استرلينى لمجموعة دارسى وبعد ذلك عقدت « الشركة الانجلو فارسية للبترول » عقدا لتزويد الأسطول البريطانى الملكى بالوقود . وقبيل الحرب العالمية الأولى قرر البرلمان الانجليزى ، بتوصية من الادميرال فيشر وصديقه المقرب ونستون تشرشل ، الذى كان يشغل آنذاك منصب كبير لوردات الادميرالية — قرر البرلمان ضرورة الاشراف على الشركة الانجلو فارسية للبترول ، فقامت الحكومة بشراء ٥١ فى المائة من أسهمها . وهكذا ظهرت « شركة البترول الانجلو ايرانية » ثم اعيدت تسميتها بشركة « بريتش بتروليوم » .

لقد بدأ عصر الاستعمار البترولى فى حوض الخليج العربى فى جو من الصفقات خلف الكواليس ، والمؤامرات ، والعداء المتبادل ، الا أن الصناعة البترولية مدينة فى مولدها لبطولة أول من شق الطريق . ولهذا نذكر بالاحترام والتقدير والعرفان الجيولوجيين ، والحفارين والمهندسين ، والعمال المجهولين ، الذين وهبوا انفسهم لاكتشاف البترول فى الصحراء غير عابئين بالعواصف الرملية ، والمخاطر ، والقر ، والقيظ والأمراض والمجهول . لقد كان عملهم مأثرة بطولية من أجل التقدم التكنيكى للبشرية . وعلى وجه العموم فانهم لا يتحملون مسئولية استغلال عملهم واكتشافاتهم فى عهد الامتيازات الامبريالية ، ذلك لأن العصر كان كذلك ، كما كانت تلك هى ظروف المجتمع الذى يعيشون فيه .

كانت الشهوات لاتزال مستمرة حول البترول الايرانى ، حتى بدأ الصراع من أجل الحصول على الامتيازات للتنقيب عن البترول فى وديان ما بين النهرين الحارقة الشمس ، والتى كانت آنذاك جزء من الامبراطورية العثمانية ودار الصراع فى الدوائر البيروقراطية بالباب العالى ، وفى صالونات المتآمرين فى حى بيرا باستنبول ، وفى المقار الديبلوماسية لانجلترا والولايات المتحدة الأمريكية والمانيا . ويرتبط امتياز التنقيب عن البترول فيما بين النهرين باسم جالوست جيولبينكيان . وكان قد زار فى وقت من الاوقات الآبار المملوكة لقريبه البعيد مانتاشيف فى باكو ، وسيطرت عليه فكرة جمع ثروة من البترول . وكان جيولبينكيان عميلا للشركات الأجنبية، لا قرين له ، لا لأنه كان على علم تام بكل المداخل والمخارج فى

قصور السلاطين والوزارات فحسب ، بل كان يعرف ذلك من الناس وكيف يمكن شراؤه وما ثمن ذلك . ولجأ الانجليز الى جيولبينكيان ، حين تمكن الأمريكان من الحصول على الامتياز قبلهم . وتمكن رجل الأعمال الأرمنى الأصل من فض الاتفاق مع الأمريكيين ، ونقل الامتياز الى أيدى منافسيهم . ولقد قال ذات مرة « ان رجال الأعمال البترولين أشبه بالقطط ، حيث يستحيل من عوائها معرفة ما اذا كانت تتشاجر أو تتبادل الحب ». أما فيما يتعلق به هو فانه كان دائم العراك ، ولكن ليس فى اطار القواعد الكلاسيكية بالمرة . ان قصة امتياز التنقيب عن البترول فيما بين النهرين والمليئة بالطعن فى الظهر ، والرشوة والخداع — قصة طويلة جدا يضيق المقام عن سردها بالتفصيل . فقد كفلت الشركة الأنجلو فارسية للبترول لنفسها قبيل الحرب نصف أسهم الشركة المستقبلة ، وشركة « رويال داتش شل » — الربع والمجموعة الالمانية — وهى من بين الساعين كذلك الى بترول ما بين النهرين — الربع الأخير . وخصصت كل شركة انجليزية من أسهمها نسبة ٢ر٥ فى المائة لجيولبينكيان نظير « خدماته » ، ولذا أصبح يسمى منذ ذلك الوقت « مستر خمسة فى المائة » . وتراجع الأمريكيون مؤقتا ، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة لتوجيه ضربة مقابلة .

واخرجت هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الأولى راس المال الالمانى من الصراع .. ووضع العراق ومناطقه البترولية تحت الحماية البريطانية وبدا أن مصير امتياز ما بين النهرين قد تقرر . فقد حصلت فرنسا على النصيب الألمانى مقابل تخليها عن مطالبتها بولاية الموصل حيث كانت توجد المناطق البترولية الرئيسية ، ومقابل الموافقة على اقامة خط لأنابيب البترول عبر سوريا التى كانت تحت الانتداب الفرنسى . ولكن احتجاجا دوى صداه من وراء المحيط . فقد كانوا يرون آنذاك، أو تظاهروا بأنهم يرون أن احتياطى البترول فى الولايات المتحدة الأمريكية على وشك النضوب ولذا كانت « الشقيقات » الأمريكيات تتحرق سعيا نحو الأسواق الخارجية . وكان من الواضح أن الانجليز قد فازوا بنصيب الأسد من مناطق البترول خارج الولايات المتحدة . وفى هذا الصدد يتفاخر المصرفى الانجليزى ادجار باكى فى معرض تقييمه لتوازن القوى

بين انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، فيقول : « ان وضع الانجليز وضع منيع . فان كل مصادر البترول المعروفة ، وكل مناطقه المحتملة خارج الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ، توجد اما فى أيدى الانجليز ، أو يقوم رأس المال الانجليزى بتمويلها ». واستخدم الأمريكيون المدفعية الثقيلة ممثلة فى حكومتهم ، حيث تم تبادل المذكرات شديدة اللهجة بين وزارتى الخارجية الأمريكية والبريطانية . واحس جيولبينكيان بالخطر ، وأراد الاحتفاظ بأسهمه ، ولذا أصبح وسيطا من جديد . ولم يتمكن عام ١٩٢٨ ، حين اندفع البترول من بئر فى منطقة باباجورجور — من اعداد مبدأ تقسيم الأسهم فى الشركة المسماة بشركة « العراق بتروليوم ». وحصلت كل من شركة « رويال داتش شل » ، وشركة « كومبانى فرنسيس دى بترول » على نفس هذا القدر ، وكان نصيب شركتى « ستاندرد أويل أوف نيوجرسى » و « موبيل أويل » الأمريكيتين على قدر مثيل معا . واحتفظ جيولبينكيان بنسبة الـ ٥ فى المائة المعهودة له .

لقد قرر عظماء عالم البترول أن يتفقوا فيما بينهم بعد أن انهكهم الصراع الحاد المضنى ، والمرتبط فضلا عن ذلك بنفقات كبيرة . ففى عام ١٩٢٨ استأجر هنرى ديتردينج الخبير المحنك فى الشئون البترولية قلعة « ايتشناكرى » الارستقراطية فى سكوتلاندا . وفى يوم من أيام الخريف دعا مؤسس ورئيس شركة « رويال داتش شل » الأصدقاء لصيد الكروان الأبيض . وسرعان ما جاءه سيدان يحملان حقيبتين كبيرتين ، فكانا ولترتيجل رئيس شركة « جرسى » وجون كيدمان رئيس الشركة الأنجلو ايرانية . وأصبح كروان سكوتلاندا الأبيض الشهير فى خطر يتهدده ثلاثة رجال من أكبر رجال أعمال تلك الفترة . والواقع أنهم لم يبدوا رغبة كبيرة فى الصيد . فقد جلسوا بملابس الصيد أمام مدفأة متوهجة ، تحميهم من أعين المتطفلين وآذانهم جدران القلعة السميكة ، وأخذوا يعدون اتفاقا لم يعرف له تاريخ الصناعة الرأسمالية مثيلا من قبل. وحين غادر « الصيادون » الثلاثة القلعة ، بدأ فصل جديد فى كتاب عالم البترول . فقد اتفقوا على العمل معا . وانضمت الى اتفاقهم فيما بعد « الشقيقات » الأخريات . وهكذا ولد الاتحاد الدولى لشركات البترول .

وضع « الصيادون » مبادىء توزيع مناطق النفـــوذ فى العالم أجمع ، واتفقوا على تقديم منشآت الاستخراج والتكرير وغير ذلك لبعضهم البعض بقصـــد الاســـتعمال نظير أجر من واقع ســـعر التكلفة ، بجانب المساهمة بأنصبة مختلفة فى مئـــات الشركات ، واستخدامهم لوسائل النقل وشبكة التجارة فى بعض الأحـــوال . وتعمل « الشقيقات السبع » كتنظيم واحد اذا ما احتاج الأمر الى تحطيم مقاومة العدو سواء كان ذلك منافسين جددا ، أو دولا او شعوبا ، كما يعملون كتنظيم واحد فى الاحتفاظ بالأسعار العالية، ونهب المستهلك .

لقد حصل اعضاء الاتحاد الدولى لشركات البترول فى شكل امتيازات أو استئجار ـــ على عدة ملايين من الكيلومترات المربعة فى الشرقين الأوسط والأدنى ، وأمريكا اللاتينية ، وأفريقيـــا ، وجنوب شرق آسيا . وتغلغت « الشقيقات السبع » بين الدول المنتجة للبترول والدول المستهلكة حيث أصبحت تحتكر ســـوق البترول الراسمالية احتكارا كاملا تقريبا . فهى تسيطر على الجزء الأكبر من احتياطيات وانتاج البترول ، وعلى جزء كبير من تكريره ، وعلى أسطول الناقلات فى الدول الراسمالية .

ما من أحد بين كبار أصحاب الأموال المقدرة بالمليارات يجسر على تحدى « الشقيقات السبع » ، واذا حدث وفعل ذلك فان الثمن سيكون غاليا . وهاكم مثالا واحدا فقط .. فقد قرر الملك سعود فى منتصف الخمسينيات منح المليونير اليونانى أوناسيس (الذى تزوج فيما بعد بأرملة الرئيس الأمريكى كيندى) حق الانفراد بنقل البترول من المملكة العربية السعودية . تلقى بعض المســـئولين السعوديين رشاوى ، فساعدوا أوناسيس فى مسعاه . غير أن الشركات الدولية بدأت فى العالم أجمع حربا تجارية ضـــد رجل الأعمال اليونانى ، حيث فرضت مقاطعة هادئة ، ولكنها فعالة ، على ناقلات البترول التابعة له ، واجبرت أوناسيس على التسليم. وفى هذا كتب أوناسيس بعد مرور سنوات كثيرة معتبرا هذه الفترة أخطر لحظة مرت فى حياته العملية ، يقول : « كان لدى الكثير من السفن الراسية فى المرسى ، ولكنى لم أستطع أن أجد من يمكنه استئجارها » .

وكانت « الشقيقات السبع » تسيطر على طرق مرور البترول كلها خارج الولايات المتحدة الأمريكية ابتداء من برج الحفر حتى محطات البنزين ، كما كان لها المئات من الشركات الفرعية فى جميع دول العالم الرأسمالى ، حيث كانت هذه الشركات الفرعية تقوم بعمليات الاستخراج ، والنقل ، وبيع البترول أو تكريره ، أما الشركات الأم الاحتكارية فكانت تحصل على زبد الأرباح . وعلى هذا النحو كان الاتحاد الدولى لشركات البترول يجنى الثمار من الصناعة والزراعة ، والمستهلك الفرد فى كل أرجاء العالم الرأسمالى تقريبا .

وأتاحت الدخول الهائلة من البترول الامكانية « للشقيقات السبع » للتغلغل فى مختلف مجالات الاقتصاد ، والارتباط ارتباطا وثيقا بالبنوك ، فأصبحت قلب أكبر الامبراطوريات المالية التى تسيطر على شركات التأمين ، وكبريات الشركات فى الصناعات الكيماوية والكهربائية الهندسية ، والالكترونية ، والطيران ، والصواريخ والفضاء والذرة ، كما انها تحتل مركزا قويا فى الصناعات التعدينية ، وصناعات الورق والسكر والأخشاب ، وتمتلك السكك الحديدية ، ومناجم الفحم وشركات الطيران ، وغير ذلك من مؤسسات .

وتتناسب القوة المالية للاحتكارات البترولية مع وزنها فى الحياة السياسية فى الدول الرأسمالية الرئيسية . وكان الباحث الأمريكى أوكونر قد كتب فى نهاية الخمسينيات فى كتابه «امبراطورية البترول» مشيرا الى نفوذ الاحتكارات البترولية قائلا : « ليس من المهم من الذى يمارس السياسة ، فان الجمهوريين والديمقراطيين يخدمون على حد سواء ، مصالح شركة «جرسى» ذلك لأن السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تخدم الشركات التى تسيطر على أكثر السلع حساسية ، واهمية وضرورة فى العالم — الا وهى البترول . واذا أخذنا فى الاعتبار ان هيئة مجلس ادارة شركة « جرسى » دائمة وثابتة التكوين وتولى اهتماما كبيرا للسياسة الخارجية ، فان وزراء خارجية الولايات المتحدة الامريكية ليسوا سوى طيور مهاجرة وقتية ، أما مقدم وخروج رؤساء الولايات المتحدة الامريكية فليسا سوى ظاهرتين استطراديتين فى مصائر شركة « جرسى » .

لم يكن توازن القوى داخل الاتحاد الدولى للشركات يتسم بالثبات ذلك لأن واجهة الوحدة تخفى من ورائها صراعا مميتا من أجل اعادة توزيع الثقل ومناطق النفوذ . وهذا ما عبر عنه ذات مرة نوبار جيولبينكيان ابن « مستر ٥ فى المائة » بقوله : « ينبغى على القول بأنه يستحيل فى عالم البترول الثقة حتى بأفضل الأصدقاء ».

الامتيازات .. فى منطقة الخليج

اصبح الاتفاق حول ما يسمى « بالخط الأحمر » بندا من البنود المكونة لاتفاقية الاحتكارات حول اتحادها . ولقد تم اعداد هذا الاتفاق بمساعدة جيولبينكيان الكبير السن ،وينطبق على منطقة حوض الخليج العربى . ويقضى الاتفاق بالتزام المساهمين فى شركة « العراق بتروليوم » بالعمل على الحصول على امتيازات جديدة فى ممتلكات الامبراطورية العثمانية السابقة ، على أن يتم ذلك بصفة جماعية وبنفس النسب السابقة . ويعتبر « الخط الأحمر » الممتلكات العثمانية السابقة لا العراق وحده ، بل والمناطق الشرقية من العربية السعودية وامارات الخليج العربى عدا الكويت . ويعكس اتفاق « الخط الأحمر » توازن القوى بين الاحتكارات الانجليزية والأمريكية فى هذه المنطقة فى بداية الثلاثينيات فقد كان الانجليز قبيل الحرب العالمية الثانية يستخرجون حوالى ٨٠ فى المائة من البترول فى حوض الخليج العربى ، أما الأمريكيون فكانوا يستخرجون ١٤ فى المائة فقط . وتجدر الاشارة الى ان المناطق البترولية الآسيوية كانت تلعب آنذاك دورا ثانويا بالمقارنة بمناطق أمريكا اللاتينية هذا الى جانب أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تصدر الوقود السائل بنسبة أكبر بكثير من استيرادها له .

ولكن الانجليز — الذين كانوا يسيطرون على مناطق البترول فى ايران والعراق — وقعوا فى خطأ استراتيجى كبير بسماحهم لمنافسيهم الأمريكيين بالتغلغل فى العربية السعودية .

وتاريخ البترول السعودى ملىء بالاعاجيب .. فقد حاول الميجور هولمز النيوزيلاندى الحصول فى بداية العشرينيات على امتياز من عبد العزيز ابن سعود مؤسس المملكة . وكان صاحب الامتياز يتصرف باسم مجموعة من رجال الأعمال فى لندن لم تكن تفتقر الى روح المغامرة . فلم تكن لديها القدرة ولا الرغبة فى استخراج البترول بنفسها ، بل كل ما كانت تريده هو اعادة بيع الامتياز بثمن أعلى . وبما أنها فضلت اقامة علاقات وطيدة مع الشركات الأمريكية بالذات ، فلا يخفى على أحد من الذى كان يقف وراءها . وفى ذاك الوقت كان ابن سعود على رأس امارة صغيرة فى وسط وشرق الجزيرة العربية هى نجد ولم يغز الحجاز بعد ، حيث توجد مكة والمدينة . وحاول الانجليز احباط خطة هولمز . غير أن الكاتب العربى المسيحى الواسع الشهرة الريحانى — الذى كان يعيش فى أمريكا — كان يقوم بجولة آنذاك بالجزيرة العربية . وربطت بينه وبين ملك الدولة الصحراوية أواصر الصداقة . وكان الكاتب يكره الانجليز ، فقرر مساعدة النيوزيلاندى . وحين التقيا ببغداد قال الريحانى لهولمز : « ساعطيك رسالة الى ابن سعود وانى على يقين من أنك ستحصل على الامتياز . لا بأس ، اذا كان السير بيرس كوكس المعتمد البريطانى فى بغداد يعترض على ذلك . وعليك أن تغتنم فرصة الدعوة التى وجهتها لك الليدى كوكس لحضور حفل الشاى ، وقل لها انك عائد الى وطنك . وعليك أن تودع السير كوكس ، لأنه اذا شك فى أنك متجه الى الحسا بشرق الجزيرة العربية ، فانه يستطيع أن يقف فى طريقك . تمنياتى لك بالنجاح » .

ووصل الميجور هولمز بعد عدة أسابيع الى امارة ابن سعود مع قافلة من الجمال . وفى الربيع التالى حصل هو ومجموعته على امتياز للتنقيب فى مساحة ٦٠ الف ميل مربع . وتعهد هولمز بدفع مبلغ ٢٫٥ الف جنيه استرلينى لابن سعود فى العام (ولنذكر هذا الرقم كذلك مقابل حق الكشف الجيولوجى وحفر الآبار فى الأرض ، التى تحوى فى باطنها أغنى مكامن البترول فى العالم . ورغم ذلك لم يعثر هولمز على البترول . ولم يعد لدى المجموعة أموال ، واتضح أن عمليات الاستكشاف التى قام بها كانت سطحية . ولم يستطع هولمز آنذاك أن يقنع الشركات الأمريكية

انجبرى بمساعدته . وبعد عام ١٩٢٧ اضطر الى وقف ما كان يدفعه للسعودية وطارت الثروات الخيالية غير المكتشفة من يديه .

ولكن النيوزيلاندى العالى الهمة لم يهدأ ، وحصل على امتياز فى البحرين لشركة « جالف أويل » الأمريكية . غير أن « جالف أويل » شاركت فى اتفاق « الخط الأحمر » ، ولذا اضطرت لبيع حقوقها لشركة « ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » . ولم تكن الشركة صاحبة الامتياز الجديدة تعلم ان لم يكن يسمح بالعمل فى المناطق الواقعة تحت السيطرة البريطانية الا للشركات الانجليزية وحدها . وجاهدت « الشقيقة » الأمريكية طوال عامين فى البحث عن حل لهذه المشكلة ، واخيرا وجدت مخرجا منها حيث أسست شركة « بحرين بتروليوم » لتصبح شركة فرعية لها ، وتم تسجيلها فى كندا كشركة انجليزية . وانفجرت أول نافورة بترول فى الجزيرة عام ١٩٣٢ . غير أن الأهم من ذلك أن اكتشاف البترول فى البحرين اتاح احتمالات وجود أكبر حوض للبترول فى المنطقة الضيقة من الخليج والفاصلة بين البحرين والعربية السعودية .

كما تمكنت شركة « ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » فى المملكة العربية السعودية كذلك ، حيث ابدى الانجليز مقاومة ، ولكنها جاءت خاملة . والجدير بالذكر أن الشركة تعهدت بدفع الدفعة الأولى من مستحقات الامتياز بالذهب ، غير أن اخراج الذهب من الولايات المتحدة لم يكن مسموحا به الا بموافقة من الخزانة الأمريكية . ودارت الأيام والأسابيع ، ولم تصدر الموافقة ، وخيم الخطر فوق مصير الامتياز . ومن ناحية أخرى كان السعوديون يستعجلون الشركة . وعندئذ لم تجد الشركة بدا من اتخاذ خطوة متهورة . فقد اشترت من سوق انجلترا السوداء ٣٥ الف جنيه استرليني ذهبى . وكانت هذه الصفقة غير قانونية وفقا للقوانين الأمريكية . ولكن لم تكن هذه هى المرة الأولى أو الأخيرة التى تخرق فيها الشيركات الأمريكية قوانين بلادها . ووصلت الجنيهات الذهبية المشتراه من السوق السوداء الى العربية السعودية ، واخذ كارل توتشيل ممثل الشركة يعد الجنيهات الذهبية الواحد وراء الآخر لعبد الله سليمان وزير المالية السعودى قبل أيام قليلة من انتهاء المدة النهائية .

وعلى هذا النحو دخل رأس المال الأمريكى المملكة العربية السعودية . وبعد مضى فترة من الزمن باعت شركة «ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا » نصف الاسهم لشركة « تكساكو » وكونتا معا شركة « ارابيان ــ امريكان اويل كامبانى » المعروفة باسم أرامكو ، والتى كان مقدرا لها أن تصبح أكبر شركة لاستخراج البترول فى العالم . . وانفتح الباب على مصراعيه للولايات المتحدة الامريكية فى منطقة الخليج العربى . فقد كانت تقف باحدى قدميها فى البحرين وبالأخرى فى الجزيرة العربية . واخذت السيطرة الانجليزية دون منازع تقترب من نهايتها ، ولكن لم يطرأ اى تغير فى الموقف الا بعد الحرب العالمية الثانية .

واخذ النيوزيلاندى هولمز نفسه يحاول الحصول على امتياز فى الكويت ، غير أنه اصطدم بمقاومة من الانجليز الذين كانوا « حماه » الامارة . ومرت الشهور ، واخذ المنافسون يزيدون مراهناتهم حتى قرروا أن الأمر لا يستوجب مضيعة الوقت والمال فى الصراع من أجل السيطرة الاحتكارية على بترول الكويت ، ومن الافضل تقسيمه مناصفة . وحينئذ ادرك امير الكويت أن المجموعتين طالبتى الامتياز لا تقدمان افضل العروض ، بل على النقيض من ذلك أخذت عروضهما تقل جاذبية من لقاء لآخر معه . ورغم ذلك اجبره أصحاب الامتياز على الموافقة على ايجار زهيد ، كما رفضوا تعيين مدير كويتى للشركة . وبلغت الدفعة الأولى ١٧٠ الف دولار واقتسمت شركتا « الانجلوايرانية » و « جالف اويل » اسهم شركة « كويت أويل » بالتساوى .

وارسلت الشركات الأمريكية جيولوجيين من ذوى الكفاءات الى المملكة العربية السعودية وسرعان ما اكتشفوا حقيقة المناطق البترولية وبأى ثمن بخس حصلت الشركات على امتيازها . وحين اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية قررت شركة أرامكو كشف سرها للرئيس روزفلت واقنعوه بأن البترول السعودى ضرورى للولايات المتحدة وخاصة فى المستقبل . واتخذ روزفلت الاجراءات وبعث عام ١٩٤٣ برسالة الى ستيتنيوس مدير ادارة الاقراض والايجار يقول فيها : « عزيزى السيد ستيتنيوس احيطكم علما

بأن الدفاع عن المملكة العربية السعودية حيوى الأهمية بالنسبة للدفاع عن الولايات المتحدة الأمريكية . وابلغكم بهذه الاحاطة لاتاحة الفرصة لكم لتنظيم مساعدة حكومة المملكة العربية السعودية من خلال ادارة الاقراض والايجار » .

وأصدر فرنكلين روزفلت الأمر بتقديم حوالى ١٠٠ مليون دولار للعربية السعودية التى تلقت المعونة الأمريكية ، ومثلها مثل حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب ضد « دول المحور » ونتيجة لذلك تم ارضاء الاحتياجات المالية لقصر ابن سعود ، وانقاذ امتياز شركة ارامكو . ولم يكلف هذا الشركات سنتا واحدا .

وفى شتاء عام ١٩٤٤/١٩٤٥ تم تنظيم لقاء بين روزفلت وابن سعود وتقرر اللقاء على ظهر الطراد الأمريكى « كوينس » فى البحيرة المرة الكبرى وسط قناة السويس . وكان من المقرر نقل الملك ابن سعود على ظهر المدمرة « ميرغى » وفى الطريق شاهد ابن سعود عرضا سينمائيا اخباريا حول العمليات الحربية فى المحيط الهادى . وكان لقاء روزفلت وابن سعود بداية النفوذ السياسى ، ثم العسكرى الأمريكى فى شبه الجزيرة العربية .

وبعد الحرب ادركت « الشقيقات » الآخريات المملوكة لآل روكفلر قيمة البترول السعودى ، فضربت بقبضتها على المائدة وطالبت بنصيب لها . وفى هذه الاثناء كانت الشركتان المساهمتان فى ارامكو فى حاجة الى المال لتمويل المشاريع الضخمة ، وخاصة تمويل بناء خط لأنابيب البترول يصل الى البحر الأبيض المتوسط ، ولذا وافقتا على التخلى عن ٣٠ فى المائة من الاسهم لشركة « نيوجرسى » و ١٠ فى المائة لشركة « موبيل » . واحتج الانجليز احتجاجا عارما ، مستندين الى اتفاق « الخط الأحمر » . ولكن توازن القوى فى العالم الرأسمالى قد تغير . ووجدت الشركات الأمريكية المساهمة فى شركة « العراق بتروليوم » ذريعة شكلية ، وانضمت الى « الشقيقات » العاملة فى العربية السعودية ، رغم غضب الانجليز . وهكذا أصبح اتفاق « الخط الأحمر » اتفاقا ميتا .

النصف بالنصف

استولى أعضاء الاتحاد الدولى لشركات البترول على الامتيازات فترة أن كانت الدول الغنية بالبترول اما مستعمرات أو شبه مستعمرات . ولم تكن الاتفاقيات تقضى بمشاركة رأس المال المحلى فى عمليات الاستكشاف ، والتكرير ، والنقل وغير ذلك من عمليات انتاج وترويج البترول . وكانت امكانيات تطور القوى الانتاجية فى هذه الدول فى صالح الامتيازات التى فرضت فى الواقع التخلف على هذه البلدان ، كما فرضت على الطبقات الحاكمة دور جامعى الربح . ولم تفرض قيود على تصدير الشركات للبترول ، كما انها لم تكن ملتزمة باعادة استثمار حتى ولو جزء من الارباح فى اقتصاد الدول التى منحتها الامتيازات . ولقد اتاح هذا الامكانية « للشقيقات السبع » لتحويل دول حوض الخليج العربى الى قواعد للمواد الخام لهـا .

لقد أسهم الربح الذى كانت تحوله الشركات البترولية الاحتكارية نتيجة نشاطها هذا الى البنوك فى دولها ـ بنصيب هام فى أصول موازين المدفوعات فى الدول الاستعمارية فقد كان اعضاء الاتحاد الدولى لشركات البترول يتلقون ثمن البترول ومشتقاته بالدولار أو بالجنيه الأسترلينى بصفة أساسية ، وكانوا يفضلون استخدام هاتين العملتين فى ممارسة عملياتهم المالية العديدة ، مثل تعبئة وتحويل رءوس الأموال بسرعة ، دفع حصص المساهمين ، محاسبة موردى المعدات ، اجراءات الحسابات بين الفروع فى عشرات الدول ، دفع حصص الامتياز . ولقد ادى هذا ، بطبيعة الحال ، الى دعم مركز الدولار والجنيه الأسترلينى فى الأسواق العالمية .

ولقد تمخض هذا الوضع عن وهم سيطر على كبار رجال الأعمال البتروليين فى متانة ورسوخ مراكزهم .

لم يكن حكام دول الخليج العربى فى ذاك الوقت يستطيعون المطالبة بحقوقهم فى البترول . فان صوتهم لم يكن مسموعا ، أما من كان يتحدث باسم الشعب ، فيزج به فى غياهب السجن ، ويباد . وكانت الدول الامبريالية تقف وراء الشركات بكل قوتها العسكرية والسياسية . وكانت انجلترا الضامن العسكرى للامتيازات فى منطقة الخليج العربى . وبالاضافة الى ذلك لم يكن لدى العرب أو لدى الايرانيين آنذاك الكوادر الفنية ، أو المعارف الفنية ، أو المهارات والخبرات التجارية لاستغلال مواردهم بأيديهم .

ورغم ذلك اهتز حوض الخليج العربى فى بداية الخمسينات من جراء أول موجة للعاصفة ، والتى هبت هبوبا حقيقيا بعد عشرين عاما . ففى مايو عام ١٩٥١ أممت حكومة الدكتور مصدق الشركة الانجلوايرانية للبترول . وكان ذلك خطوة حاسمة جريئة اعادت للشعب الايرانى حقوق سيادته على ثرواته الطبيعية . وأخذ الايرانيون يرقصون فى الشوارع ويتعانقون ويبكون من فرط السعادة والفخر .

غير أنه لم يتم اعداد التربة لترويج البترول ذاتيا . فلم تبادر الدول البترولية الأخرى الى مساندة ايران ، بل هرعت الى الاثراء مستفيدة من حالة السوق المواتية لها . فقد فتحت صنابير البترول عن آخرها فى كل من الكويت والعراق والسعودية . وقاطع الانجليز العمل فى مصنع عبدان لتكرير البترول ، وفرضوا حظرا على بيع البترول الايرانى فى الأسواق العالمية معلنين انه بترول « مسروق » وكانت السفن العسكرية البريطانية تعترض طريق ناقلات البترول الحاملة للبترول الايرانى فى المياه المفتوحة ، ثم تصادره . وبدأت يد الاتحاد الدولى لشركات البترول تتحرك . فساندت واشنطن لندن ، وان كان ذلك يخفى خططا مستترة . وتم الضغط على اليابان وايطاليا اللتان كانتا تنويان شراء البترول الايرانى ، فتراجعتا تحت الضغط .

وأرسلت وكالة المخابرات الأمريكية الجنرال شفارتسكوبف الخبير بشئون الشرق الأوسط الى ايران ، حيث بدأ ينظم العمليات التخريبية ضد حكومة مصدق اعتمادا على قوى الرجعية الداخلية .

ونتيجة للمقاطعة والحصار ، توقف ترويج البترول الايرانى فى الأسواق الخارجية ، وشملت البلاد ازمة اقتصادية ومالية عنيفة . وفى اغسطس عـــام ١٩٥٣ تمت الاطاحة بحكومة مصدق .

وبعد مرور عـــام فرضت على ايران اتفاقية تقضى بنقل الاشراف على البترول الايرانى الى اتحـــاد الاحتكارات الأجنبية لمدة ٢٥ عاما ، وحصلت « الشقيقات » الأمريكيات فى الاتحاد على ٤٠ فى المـــائة من الأسهم ، كما حصلت الشركة الانجلوايرانية ـــ والمســـماة الآن « بريتش بتروليوم » على نفس هـــذا القدر ، وتقاسمت العشرين فى المائة الباقية شركة « رويال داتش شل » وشركة « كومبانى فرانسيز دى بترول » وعدة شركات امريكية أخـــرى .

واذا كان نصيب رءوس الأموال الأمريكية فى عمليات انتاج البترول فى الشرق الأدنى قد بلغ حوالى ٤٠ فى المائة عـــام ١٩٥٠ فلقد وصل الى ٦٠ فى المائة عـــام ١٩٥٥ .

لقد اثبت نضال ايران من أجل ثرواتها القومية « للشقيقات السبع » أنه من الخطورة بمكان نهب الدول الغنية بالبترول بلا حدود وأنه من الأفضل اقتسام جزء كبير من الأرباح مع الطبقات الحاكمة مما يضمن تعاونها وتأييدها . واعد خبراء البترول قواعد جديدة لتوزيع الدخول . ومع بداية الخمسينيات تم وضع مبدأ « النصف بالنصف » فى منطقة الخليج والذى يقضى بتوزيع أرباح بيع البترول مناصفة على أساس ما يسمى « بسعر الصرف » . ولن نحاول طرق نظام الحسابات وتعقيداته البالغة ، ولكن نود الاشارة الى أن « الشقيقات » استغلت عدم اهلية حكومات منطقة الخليج العربى ، واحتسبت من نصف الدخل قيمة الايجار وحساب الأرباح ، وهما شكلان من أشكال الدفع مختلفان من حيث الجوهر وأصبح مبـــدأ « النصف بالنصف » أحـــد احجار الزواية فى هيكل الامتيازات فى حوض الخليج العربى .

والواقع أن النظام الجديد كان يعود على الدول صاحبة البترول بأقل من ٥٠ فى المائة من الأرباح. وكان أصحاب الامتيازات الاحتكاريون معنيين ببيع البترول بأسعار رخيصة ذلك لأنهم بعد أن يسلموه الى شركاتهم الفرعية ، يزيدون من ارباحهم فى المراحل

التالية من دورة البترول ومنتجاته . وكانت طرق الحسابات تتيح الامكانية « للشقيقات السبع » لتحقيق أكبر قدر من الكسب من تحسن أوضاع السوق ، أما فى حالة سوء الأوضاع فتلقى بجزء كبير من خسائرها على عاتق أصحاب البترول الحقيقين .

وكان فى انتظار عالم البترول بعد الحرب العالمية الثانية اكتشافات ضخمة جديدة فى صحراء ليبيا والجزائر ، وامارات الساحل وسلطنة عمان وقطر وتحت المياه الساحلية للخليج العربى ، وفى المنطقة المحايدة بين العربية السعودية والكويت . ووقع جزء من المناطق البترولية الجديدة المكتشفة فى يد شركات « مستقلة » أو ما يسمى outsiders ولكن الحديث عنها حديث ذو شجون هو الآخر . أما فى قطر ، وأبو ظبى وسلطنة عمان ، فأخذت تعمل « الشقيقات السبع » نفسها بنسب مختلفة من الأنصبة والمساهمة ، ولكن مع رجحان كفة رأس المال الانجليزى .

وتم على ساحل الجزيرة العربية اكتشاف أغنى احتياطيات للبترول بعد العربية السعودية والكويت فى امارة أبو ظبى الصغيرة ففى عام ١٩٥٣ اتجه جاك كوستو الباحث الفرنسى فى عالم أعماق البحار بسفينته « كاليلبسو » الى الخليج والقى بمرساه بالقرب من جزيرة صغيرة تبعد بضع عشرات من الكيلو مترات عن ساحل أبوظبى ، وكانت الخميرة تسمى جزيرة داس، حيث كانت تأتى اليها كل عام الملايين من الطيور من مختلف مناطق أفريقيا وآسيا تضع بيضها وامتلأ الجو برائحة ذراق الطيور لمسافة بعيدة ، وعجت المياه بالأسماك . وأخذ فريق كوستو يرسم قاع البحر على الخريطة ويصوره . وسرعان ماجذبت الجزيرة أنظار خبراء من نوع آخر تماما . فقد حل محل الجغرافيين خبراء الحفر ، الذين عثروا على البترول باسم شركة « أبو ظبى ماريين ايريز » ، التى كانت تضم آنذاك شركتى « بريتش بتروليوم » و « كومبانى فرانسيز دى بترول » واتخذت الشركة قاعدة لها جزيرة داس ، وبدأت أبراج الحفر تزحف داخل البحر ، وقضى التعطش الى البترول على أحد المواطن الطبيعية للطيور .

وهكذا تم تقسيم مناطق البترول الرئيسية فى حوض الخليج العربى .

■

القراصنة

زرت البحرين لأول مرة فى نوفمبر عام ١٩٧١ . وكان آخر الجنود البريطانيين يغادرون ميناء المنامة . وأخذ الضباط يصيحون فى مرارة أثناء صعودهم السفينة الحربية « انتربيد » : « وداعا جزيرة العرب » . فقد اضطروا ليس فقط الى ترك المنشآت العسكرية الرفيعة المستوى وحدها ، بل تركوا وراءهم كذلك نوادى وبلاجات ممتازة ، واصطبلات الخيول العربية الأصيلة ، والمطاعم الراقية التى تعلن لافتاتها : « رجاء ارتداء رباط العنق بعد الساعة التاسعة عشرة » (السابعة مساء) . كانت امارات ساحل شبه الجزيرة العربية أول الممتلكات الاستعمارية الانجليزية فى العالم العربى . ولقد أعد الانجليز للاستقرار فيها لمدة طويلة وبصفة أساسية . وكان السادة المحترمون حتى وقت قريب يحتسون فى هدوء كؤوس الويسكى بالثلج وسط أمواج الهواء المكيف ، وقد أخفت عيونهم نظرة ازدراء واستخفاف « بهؤلاء العرب الذين يتجاسرون بالتفكير فى الاستقلال » .

وكان الموظفون والضباط الانجليز من نفس العجينة التى كانت تعجن فى مطبخ الادارة الاستعمارية على امتداد مئات السنين . وكان زواج الانجليز من السكان المحليين فى المستعمرات أمرا محظورا اما من جراء تشريعات الامبراطورية ، وأما نتيجة للمفاهيم الاجتماعية المتخلفة . ومن الطبيعى أن الاسلام فى الدول العربية كان حائلا أمام مثل هذا الزواج حيث لا يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم . وكان الموظفون والضباط الاستعماريون يسافرون الى المستعمرات لمدة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة

يعودون بعدها للاستقرار فى الدول الاستعمارية الأم . ولم يكن الأطفال الذين يولدون من المحظيات ، يعتبرون انجليزا . وكان السادة يعملون على ان يظلوا صفوة منعزلة . وكانت السمات الرئيسية لمثلى الامبراطورية البريطانية « فيما وراء البحار » هى الغطرسة الطائفية ، والانعزالية والتعالى البارد . وكان اطفالهم يتلقون تعليمهم فى مدارس وكليات مغلقة حيث كانوا يروضونهم منذ نعومة أظفارهم على اعتبار انفسهم جزءا من « مجتمع مختار » .

ويستحيل القول بأن حياة سكان المستعمرات لم تكن تثير اهتمام الموظفين والضباط الاستعماريين بالمرة . فقد كان بعضهم يفتخر « بالحب الرومانتيكى » نحو الهنود أو العرب . ولم يكن هذا سوى « حب » الراكب للجواد و « حب » الانسان المميز للخادم . وكان من بين الانجليز المقيمين فى المستعمرات من يتصف بالشجاعة ، غير انها كانت شجاعة المالك الذى يدافع عن الثروات المنهوبة ، ولم يكن الاحساس بتميز الصفوة بالنسبة للكثيرين متاحا الا من خلال الخدمة فى الادارة الاستعمارية ، أما فى انجلترا ، فكانت مكانتهم مختلفة تماما ، وليست فى أعلى درجات السلم الاجتماعى على الاطلاق .

اخذت الامبراطورية فى الذوبان ، وخرج ابطال كيبلنج من عالم الوجود ، وبدأت انجلترا تتعود ، وان كان بصعوبة ، على دور الدولة من المرتبة الثانية ، ولكن السادة ظلوا يلعبون دور السادة حتى آخر لحظة فى امارات الخليج وحدها . غير أن الصدأ علا الادارة الاستعمارية البريطانية ، وكانت نهايتها محتومة .

الأخلاقيات .. تنتهى وراء السويس

بدأ العهد الاستعمارى فى الخليج مع دوى طلقات مدافع السفن البرتغالية . ففى عام ١٥٠٧ استولى الأسطول القادم من

لشبونه بقيادة دلبوكيركى على مدينة أورمز المحصنة على الجانب الايرانى من الخليج . وبعد ذلك سيطر البرتغاليون على ساحل الجزيره العربية حتى ظفار وكانت الامبراطورية البرتغالية الاستعمارية آنذاك قد بلغت ذروتها الدموية ، حيث كانت السفن البرتغالية تسيطر على المحيط الهندى من مضيق ملقا حتى الخليج، ومن مدخل البحر الأحمر حتى رأس الرجاء الصالح .

وبدأ الانجليز فى نهاية القرن الثامن عشر وبعد أن ثبتوا أقدامهم فى الهند فى خلق منطقة لنفوذهم حول مشارف الهند ، وذلك بالتغلغل فى منطقة الخليج . وفى عام ١٧٩٨ عقد حاكم مسقط اتفاقية مع انجلترا تقضى بانفراد شركة الهند الشرقية بحقوق التجارة والملاحة فى الخليج . وفى مقابل ذلك وعد الانجليز بتقديم معونات له ومساندته ضد القبائل العمانية العاصية . وأصبحت مسقط أول ركيزة للاستعمار البريطانى فى شبه الجزيرة العربية . وفى عام ١٨٠٠ حصل الانجليز على الموافقة بارسال مقيم بريطانى هناك . وشهد القرنان الماضيان عمليات عسكرية متواصلة ضد القبائل العربية التى تعيش على ساحل الخليج من الجزيرة العربية .

والجدير بالذكر أن الفيلد مارشال كتشنر الانجليزى ، الذى شارك فى العديد من الحملات الاستعمارية ، كان قد قال ذات مرة: « الأخلاقيات تنتهى وراء السويس » . ورغم ذلك عللت الحكومة البريطانية ومؤرخوها الرسميون تدخلها فى الخليج بالتزامات أخلاقية تنبع من « مكافحة القرصنة وتجارة الرقيق » . وكانت السفن المسلحة تسليحا جيدا وقوات الانزال البريطانية تغرق السفن العربية ، وتعمل الحرق والقتل فى القرى الساحلية . وكان عرب الخليج آنذاك قد انتزعوا من يد البرتغاليين جزءا كبيرا من التجارة فى المحيط الهندى . وأدى ظهور السفن التجارية لشركة الهند الشرقية الى افلاسهم وحرمانهم من سبل العيش . فما كان منهم الا ان بدأوا بعمليات عسكرية ضد الانجليز ردا على ذلك ، وكانت هذه العمليات مصاحبة فى كثير من الأحيان بعمليات قرصنة ، ولكنها لم تكن فى الواقع سوى عمليات دفاعية . وتجدر الاشارة الى أن الكتب الأوربية الغربية التى أخذت بوجهة النظر الانجليزية ، كانت كثيرا ماتسمى ساحل عمان المطل على الخليج بـ «ساحل القراصنة»

رغم أن الانجليز كانوا هم القراصنة بمعنى الكلمة . وقبيل حلول عام ١٩٢٠ كان الانجليز قد سحقوا قبائل البحارة والصيادين المحلية واجبروا حكامها على توقيع ، اتفاقية عامة لمكافحة « القرصنة والرقيق » والتى تعتبر بدايه تبعيتهم لانجلترا . واختفت من الخريطة اسماء امارات الجزيرة العربية الصغيرة وظهر بدلا منها اسم امارات الساحل المهادن .

وتمكن الانجليز عن طريق مثل هذه الاتفاقات من اخضاع كل امارات الخليج خلال قرن . وفى عام ١٨٣٩ استولت مجموعة انزال بريطانية على عدن ، التى تعتبر نقطة استراتيجية هامة فى جنوب الجزيرة العربية ، ومنذ ذلك الحين أصبح مصير عدن مرتبطا بممتلكات الامبراطورية الأخرى فى الجزيرة العربية .

وفى عام ١٨٦١ أصبحت البحرين محمية بريطانية . وسرعان ما أجبرت المدافع البريطانية أمير قطر على توقيع اتفاقية تخضع قطر لسيطرة انجلترا . وأخذت المواد الاضافية فى الاتفاقات والمعاهدات فى فرض المزيد من القيود على الأمراء المحليين وتحديد حريتهم فى العمل . وتم قبيل الحرب العالمية الأولى توقيع الاتفاقية الانجلو عثمانية ، والتى تقضى بتخلى الباب العالى عن اهتمامه فى الامارات وقطر والبحرين ، وموافقته على اعطاء الحكم الذاتى للكويت فى اطار الامبراطورية العثمانية . وفى عام ١٩١٤ رفض أمير الكويت ، عقب دخول تركيا الحرب ، السيادة العثمانية ، واعترف رسميا بالحماية البريطانية .

لم يكن الخليج حتى بداية قرننا الحالى مباشرة قد ارتبط بعد بكلمة « البترول » ، وكانت انجلترا تنطلق فى تصرفاتها من اعتبارات استراتيجية بصفة رئيسية . وأصبح الخليج العربى مطمعا من مطامع المانيا التى كانت تسعى آنذاك لمد خط بغداد الحديدى . ولكن الانجليز كانوا يعتبرون الخليج أكثر من « بحيرة انجليزية » توجد على مشارف الهند ، ولذا كانوا مستعدين ، لو اقتضى الأمر ، الدخول فى حرب ، لمنع أية دولة أخرى من الحصول على نفوذ عسكرى هنا . ففى بداية القرن العشرين أعلن اللورد كيرزون

نائب الملك فى الهند أن أى انجليزى يسمح لاية دولة أجنبية بالتغلغل فى هذه المنطقة البالغة الحيوية ، يجب أن يدان ويشنق .

وبدا للكثيرين فى لنون عقب الحرب العالمية الأولى أن أفضل اجزاء الامبراطورية العثمانية ستكون من نصيب الانجليز . فقد اشترك حليفهم الشريف حسين — شريف الحجاز — مع القوات الانجليزية فى الاستيلاء على دمشق . وكانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا ، وبقى للانجليز مصر ، والعراق وشرق الأردن ، وفلسطين ، والكويت ، والحجاز ، وساحل الجزيرة العربية من عدن حتى قطر . وفى عام ١٩١٧ أصدر اللورد بلفور وعده المشهور بانشاء « وطن قومى لليهود » فى فلسطين . ومن المحتمل أنه لم يكن يعتقد أنه قد وضع بذلك البذرة التى نمت وأصبحت اليوم نزاع الشرق الأوسط . والواقع أن الفشل كان فى انتظار الانجليز ، وهو ما كانوا ينظرون اليه نظرة غير جدية آنذاك فقد استولى الأمير المغمور عبد العزيز بن سعود على الحجاز وطرد الشريف حسين حليف بريطانيا ، وحاول التقدم نحو العراق شمالا ، واليمن جنوبا ، ولكن دون نجاح فى الواقع . ولم يكن الانجليز يخمنون آنذاك أن البترول يوجد تحت رمال هذا البلد الفقير ، ولذا فضلوا الاكتفاء بمحاصرة المملكة الجديدة .

وفى العشرينيات اخترع الكولونيل لورانس — الذى اشترك فى ثورة الجزيرة العربية على الاتراك — وتشرشل وزير المستعمرات مصطلح « الدومينيونات البنية » واطلقاه على الدول العربية . وكان المقصود به هو الحفاظ على هذه الدول فى فلك بريطانيا بعد حصولها على الاستقلال الشكلى على أن ترتبط بالدولة الاستعمارية باتفاقيات غير متكافئة ، وتمنح الدولة الاستعمارية قواعد عسكرية بهـا . ومنذ ذاك الوقت تحاول الدوائر الحاكمة فى لندن والمدرسة الامبراطورية القديمة كلها فى داوننج ستريت — اتباع سياسة فى العالم العربى تنبع من الاطار الذى حدده لورانس وتشرشل .

وتمكنت القوات الاستعمارية الانجليزية فى الخمسينيات من تحقيق آخر وثبة لهـا داخل الجزيرة العربية . فقد نشب صراع حاد حول واحة البوريمى ، والتى اعلنت العربية السعودية أنها

جزء من اراضيها بعد اكتشاف كميات كبيرة من البترول فى الصحراء الملاصقة للواحة ، وعلى هذا اسرعت شركة ارامكو باعلان الواحة ملكا لهـــا . واحتلت القوات السعودية البوريمى وطردت حاكمها الذى كان يمثل امير ابو ظبى . غير أن « الشقيقات » الانجليزيات وداوننج ستريت كانا وراء حاكم الامارة الصغيرة . وفى عـــام ١٩٥٥ دخلت القوات المرسلة من مسقط وابو ظبى بقيادة الضباط الانجليز ـــ واحد البوريمى وقسمتها بين حاكمى السلطنة والامارة ، وبذا تمت حماية مصالح الاحتكارات الانجليزية . وعقب ذلك بدأت الحرب ضد أمامة عمان . وكانت سلطة سلطان مسقط لا تمتد آنذاك الا على الساحل العمانى ، أما المناطق الداخلية ، فقد كانت تعتبر دولة مستقلة يحكمها حاكم يجمع بين السلطات الدنيوية والدينية . ولكن ارض عمان تحوى البترول ، ولذا بدأت قوات المرتزقة المسقطية بقيادة الانجليز فى نهاية الخمسينيات حربا طويلة دموية ضد الامامة المستقلة . وانقضت الطائرات الحربية على المدن والقرى تعمل فيها الدمار ، وامتدت سلطة سلطان مسقط على عمان كلها ، بمساعدة الدبابات الانجليزية .

الساعـة الثانيـة عشـرة

كان الادميرال الانجليزى الشـــهير نيلســـون يضع النظارة المعظمة على عينيه ، التى لا تبصر ، كلما اعترته الرغبة فى عدم رؤية شىء ما . وعلى هذا النحو تقريبا كان خبراء الشرق الأوسط فى داوننج ستريت يتصرفون حتى عهد قريب ، راغبين عن التنبه الى خطر الزوبعة القـــادمة .

لم يكن الانقلاب العسكرى الذى شهدته مصر ، ورفع البكباشى الشـــاب جمال عبد الناصر الى مصاف القادة العرب ، وهو الانقلاب الذى تحول الى ثورة وطنية ـــ لم يكن يبدو لهم انذارا بينا بما فيه الكفاية . وعندما بدأت ازمة السويس عام ١٩٥٦ ، هبت على الكويت عاصفة رملية هوجاء ، تسترت بهـــا مجموعة من الوطنيين ،

ونسفت عدة أنابيب وماكينات بترول . وكان فشل العدوان الانجلو فرنسى الاسرائيلى على مصر يعنى كارثة عسكرية وسياسية ومعنوية للاستعماريين ، ولم تكن أية « نجاحات » فى الحرب ضد القبائل العمانية السيئة التسليح ، قادرة على اعادة هيبة الامبراطورية البريطانية . وأخذ المناخ السياسى فى منطقة الخليج فى التغير .

وفى العراق هوت عام ١٩٥٨ الأسرة الهاشمية الحاكمة الحليف الوفى لانجلترا ، وطرد من الأردن القائد الانجليزى للفيلق العربى ، وزادت الاضطرابات الشعبية فى البحرين ، والكويت ، وقطر . واصبح واضحا أن عقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة .

وكانت الكويت أول من حصل على الاستقلال من بين امارات الخليج ، حيث حصلت عليه عام ١٩٦١ . وكان الانجليز لا يزالون آنذاك يحتفظون بنظامهم العسكرى فى الجزيرة العربية من عدن حتى قطر والبحرين ، وكان الأمل يحدوهم فى عدم السماح للاحداث بالتطور فى « اتجاه غير مرغوب فيه » . ولم يكن واضعو الاستراتيجية الانجليز يريدون التفكير بالمرة فى الانسحاب من المنطقة بعد فقد مصر والسودان والعراق . وكان وزن انجلترا فى النظام الامبريالى العالمى يعتمد بدرجة كبيرة على اشتراكها فى استغلال الثروات البترولية فى منطقة الخليج وسهولة الحصول على الوقود السائل ، وودائع الامراء المحليين فى البنوك الانجليزية .

وفى عام ١٩٦٢ اقتحم ضباط اليمن الشبان قصر الامام ، واعلنت الجمهورية فى اليمن . وتطايرت شرارة الثورة اليمنية لتصيب الاحاسيس الملتهبة فى عدن ومحميان الجنوب اليمنى . وكانت عدن نقطة حراسة الخليج ، ولذا حاول المستعمرون الاحتفاظ بها بغض النظر عن الثمن . ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى انسحب الانجليز من اليمن الجنوبى عام ١٩٦٧ بعد اخفاقهم فى محاربة الجبهة القومية . وأخذ الانجليز درسا من تجربة عدن حيث ادركوا أن البقاء لمدة طويلة يعنى وصول حكومات أكثر راديكالية الى السلطة ، ولذا فمن الأفضل الانسحاب « عن طيب

خاطر » قبل الأوان . فقد اراد واضعو الاستراتيجية فى داوننج ستريت تجنب غلطة عدن فى الخليج .

وفى بداية عـــام ١٩٦٨ أعلن ويلسون رئيس حكومة العمال فى مجلس العموم خطة انسحاب القوات البريطانية من منطقة الخليج قبيل عـــام ١٩٧١ . وتم اعلان سياسة « شرق السويس » التى تقضى بخفض او ازالة القواعد العسكرية فى حوض المحيط الهنـــدى حتى سنغافورة .

كانت لنـــدن قد أرسلت الى الخليج العربى وليـــام ليوس وهو متخصص فى اللغة العربية ، وابن أحد الادميرالات ، وخريج جامعة كمبردج ، ولاعب رجبى ويهوى ســـباق الخيل والرماية والسباحة . وترقى ليوس على درجاب سلم الخدمة الاستعمارية ، وقضى سنوات عديدة فى الدول الاسلامية ، بل وكان يشغل منصب الحاكم العسكرى لعدن . وفى الفترة من ١٩٦٠ حتى نهاية عـــام ١٩٦٦ كان مقيما سياسيا لبريطانيا فى الخليج ومقره البحرين ، حيث لم يكن شغله الشاغل سوى الهاب وتأليب الاحاسيس هناك كى يلعب دور الحكم بهدف عدم اتاحة الامكانية للعرب للاتحاد وطرد المستعمر .

والقيت على عاتقه مهمة تحقيق الرسالة التى لم تستطع لنـــدن تحقيقها فى العالم العربى كله ، وان كانت رسالته فى حدود ضيقة . فقد بدأ ليوس الاعداد لتكوين اتحـــاد الامارات العربية ، والذى يمكن لبريطانيا أن تعقد معه « معاهدة صداقة » وتساعده فى بنـــاء قوات دفاعية من أبناء البلاد بقيادة ضـــباط انجليز وباكستانيين .

وكان الشكل الأكثر ملاءمة هو اتحاد فيدرالى من تسع محميات هى البحرين ، وقطر وامارات الساحل المهادن . وتركز الاهتمام على البحرين لتكون نواة للاتحاد ، بوصفها أكثر الامارات سكانا ، فضلا عن وجود أفضل الكوادر اعدادا لدولة المستقبل . واعلن أمراء وشيوخ امارات الخليج التسع ـــ المجتمعون فى دبى فى فبراير

١٩٦٨ ــ قيام الاتحاد ، واتفقوا على علم وشعار ، ونشيد وطنى واحد ، كما اتفقوا على انشاء جيش واحد .

غير أن خطة « اتحـــاد الامارات التسع » لم تكن موفقـــة ، اذ كانت الخلافات العميقة تفرق بين المشتركين فيه ســـواء كان الحديث يدور حول عاصمة الاتحاد ، أو توزيع الاعباء المالية أو التمثيل فى أجهزة الاتحاد ، حيث انعكست عليه بصمات العداء القديم بين القبائل ، والنزاعات الأسرية ونزاعات الحدود ، وخوف الامارات القليلة السكان من ابتلاع الامارات الأكثر سكانا لهـــا .

لحقت الهزيمة بحزب العمال فى الانتخابات البرلمانية فى يونيو عـــام ١٩٧٠ ، وحل المحافظون محلهم ، ولكنهم كانوا مضطرين ، وان لم يكن عن طيب خاطر الى مواصلة سياسة حزب العمال فى هذه المنطقة فى خطوطها العامة . ورغم ذلك المح وزير الخارجية البريطانى الجديد دوجلاس هيوم فى مارس عام ١٩٧١ ــ أن العسكريين الانجليز سيبقون فى منطقة الخليج « للقيام بمهام الاتصال وتدريب القوات » . وأعلن دوجلاس هيـــوم أن لنـــدن مســـتعدة لامداد جيش « جوالة امارات الساحل المهادن » الذى يجرى تكوينه فى اطار الامارات العربية بقوات البوليس التى تم تشكيلها عام ١٩٥١ على غرار الفيلق العربى فى الأردن . وأعلن دوجلاس هيوم أيضا عن نية السلطات العسكرية البريطانية مواصلة استخدام اراضى الامارات واجوائها لتوزيع الطائرات الحـــربية البريطانية ورحلاتها الجوية ، كما اعلن استمرار الزيارات الدورية للقـــوات البحرية البريطانية لميـــاه الخليج . وكان من المقرر عقد « معاهدات صداقة » بدلا من اتفاقيات الحماية .

وكانت ســـلطنة عمـــان أكثر المناطق ملاءمة كموقع احتياطى بالنسبة للندن فى منطقة الخليج العربى . فلعمان موقع استراتيجى هام من حيث قربها من الخليج ، كما أن بريطانيا تحتفظ فى اراضيها بنقط ارتكاز ، فضلا عن وجود قاعدة جزيرة المصيرة الجوية الضخمة ووجود قاعدة أخرى فى صلاله ، التى تعتبر المركز الادارى للمحافظة الجنوبية الغربية فى السلطنة . كما بدأوا فى اقامة نقطة ارتكاز جديدة فى رأس الخيمة وهى الطرف الشرقى لعمان عند مدخل الخليج

العربى مباشرة . وبالاضافة الى ذلك كانت أراضى عمان تضم معسكرات تتركز فيها القوات البريطانية والمرتزقة .

وكان جيش السلطان ــ الذى يتكون من المرتزقة البلوجستانيين بصفة رئيسية ــ تحت امرة الضباط الانجليز ، وكان ينفق عليه أكثر من نصف اجمالى دخل السلطنة من البترول .

لم يشمل قرار بريطانيا بالانسحاب سلطنة عمان . ولقد أدى انقلاب صيف عام ١٩٧٠ الى خلع السلطان ابن تيمور « البالى الفكر » وتنصيب السلطان قابوس بدلا منه . وكتبت مجلة « يونيتد ستيتس نيوزاند ورلدريبورت » بشأن عمان قائلة : « ان لنـدن ستظل تملك وسيلة للتأثير السياسى فى منطقة الخليج الفارسى طالما ظلت تحتفظ فى عمان ولو بقدر قليل من الوجود » . وبالاضافة الى ذلك كان المسئولون فى داوننج ستريت يناقشون بجدية مشروعا يقضى بانشاء « عمان الكبرى » ، والتى تضم فى دولة واحدة سلطنة عمان والامارات السبع لساحل الجزيرة العربية المطل على الخليج غير أن هذا المشروع لم يخرج عن نطاق المشاورات الوزارية . ولعل السبب الرئيسى فى ذلك هو عدم استقرار الوضع فى السلطنة ، والحرب الاستعمارية فى ظفار والتى حاول الانجليز اخفاؤها عن العالم الخارجى مثلما يخفى المرض الخبيث .

اخذت انجلترا منذ عـــام ١٩٦٥ تزداد تورطا فى الحرب القذرة الميؤس منها فى هذه المحافظة الجنوبية الغربية من عمان . فقد بدأ الكفاح المسلح فى ظفار على يد مجموعة من الشباب الذين كونوا فيما بعد تنظيما قتاليا ، منظما وجماهيريا الى حد كبير يسمى بالجبهة الشعبية لتحرير عمان . ولقى برنامج الجبهة صدى كبيرا فى نفوس المضطهدين ، وهو البرنامج الذى يقضى بطـــرد المستعمرين وتأميم البترول ، والقضاء على الاقطاع ، واقامة دولة ديمقراطية مستقلة . وأصبح الثوار الشبان خلال عدة سنوات من الكفاح ثوارا وسياسيين ذوى خبرة . فقاموا بتطوير هيكل الجبهة الشعبية ، وانشاء جيش التحرير الشعبى ، واقاموا أجهزة تأسيسية للادارة فى المناطق المحررة والاهم من ذلك انهم استطاعوا اكتساب تعاطف ومساندة السكان المحليين ويؤثر الوضع فى ظفار

فى الخطط التى يضعها الساسة البريطانيون لمنطقة الخليج العربى حيث يعدلون فيها انطلاقا من هذا الوضع .

سارت عجلة الاحداث بسرعة . وأكد الاستفتاء الذى اجرى عـــام ١٩٧٠ فى البحرين ــ أن الغالبية العظمى من السكان تفضل الاستقلال . وتخلت ايران عن مطالبتها بهذا الأرخبيل . وفى عام ١٩٧١ اعلنت البحرين استقلالها . واقتفت قطر اثر البحرين وفى نهاية عـــام ١٩٧١ أصبحت دولة الامارات العربية المتحدة ــ وتضم ست محميات من امارات الساحل المهادن ــ أصبحت دولة مستقلة وانضمت رأس الخيمة وهى الامارة السابعة الى الاتحاد بعد ذلك . وكانت أبو ظبى ــ وهى أكبر امارة حيث كان يعيش بها آنذاك حوالى ٥٠ ألف نسمة ــ تمتلك احتياطيات هائلة من البترول . وكان حكام الامارات الصغيرة ، مثل عجمان والفجيرة ، يعيشون على اصدار طوابع البريد .

واحتفظت انجلترا ، بطبيعة الحـــال ، بأدوات التأثير على المحميات . ولقـــد حاولت التحدث مع المقيم السياسى البريطانى جيفرى أرثر حول مصير الارث البريطانى فى منطقة الخليج العربى وتوجهت الى السفارة البريطانية فى المنامة ، حيث لم يتعـــود العاملون بهـــا على اعتبار انفسهم بعثة ديبلوماسية بعد ، وقدموا الى بطاقات الزيارة وعليها الاصطلاح القديم « الوكالة السياسية » وهناك قـــال لى موظف الاســـتعلامات المؤدب باتريك ووجان : «لا يرغب مقيمنا السياسى فى مقابلة ممثلى الصحافة ورغم انه يعيش على أرض قاعدة عسكرية سابقة ، ولكن ينبغى اعتبار انه غير موجود » . الانجليز موجودون ، ولكن ينبغى اعتبار انهم غير موجودين ــ يبدو أن هـــذا الحل يوافق بدرجـــة كبيرة واضعى الاستراتيجية فى داوننج ستريت .

لم يصبح « الوجود العسكرى » البريطانى فى منطقة الخليج ماضيا منسيا بعد . فلقد أخرتنى بعض الاجراءات الشكلية الجمركية والمتعلقة بالجوازات فى مطار دبى فى بداية عام ١٩٧٣ ، ودخلت مبنى المطـــار الذى اقيم على طراز اسلامى ــ هندى عصرى ــ

مجموعة من الانجليز الشبان . وكانت حقائبهم الثقيلة تشبه حقائب أجهزة التصوير السينمائى . فسألت مستقبلى :

ـ أصحفيون هم ؟

ـ فأجاب بسرعة :

ـ هؤلاء ؟ .. نعـــم .. نعـــم .

ولكن رجل الجمارك الشاب ، الجالس الى مكتب الجوازات ـ دمدم قائلا : ـ لا .. انهم من الجيش .

وقفز مستقبلى من مكانه بحدة ، وبدأ يؤنب الموظف ، بأنه لم تكن هناك حاجة الى الثرثرة المفرطة . وبعد عدة دقائق ركب « المراسلون »ـ وكلهم شباب ينضحون قوة وحيوية ـ طائرة تحمل علامة القوات الجوية الملكية لبريطانية وحلقت بهم ، ولكن الى أين ؟ ومن أى جيش هم ؟ وعزفت عن القاء الأسئلة .

يشغل بضع مئات من الانجليز مناصب قيادية فى جيش أبوظبى وذلك بعقود . ويوجد تحت تصرفهم زوارق وطائرات حربية . كما يوجد عسكريون بريطانيون فى التشكيلات العسكرية لدبى والشارقة ورأس الخيمة . كما يعمل حوالى مائة ضابط وصف ضابط انجليزى فضلا عن الباكستانيين فى الجيش الاتحادى لدولة الامارات العربية المتحدة،وهو الجيش الذى أصبحت « جوالة امارات الساحل المهادن وعددهم حوالى الفى فرد نواة له . ومن المقرر استخدام القاعدة العسكرية البريطانية فى الشارقة لتدريب القوات على العمليات فى الصحراء . وبقى الضباط الانجليز كوكلاء سياسيين ، ومستشارين شخصيين ، ورؤســـاء للشركات المختلطة ، وحراسا خصوصيين للامراء والسلاطين ، وقادة لأجهزة الأمن .

ولقـــد أعلن ا. هيث رئيس وزراء بريطانيا فى كلمته أثناء اجتماع وزراء الحلف المركزى عام ١٩٧٢ قائلا : « ان انسحاب

قواتنا لا بعنى اننا لم نعد نهتم بهذه المنطقة البالغة الحيوية . ان ما فعلناه هو اننـــا جعلنا علاقاتنا مع حكام الدول العـــربية أكثر عصرية » .

غير أن وجـــود ثلاث دول عربية جديدة فى منطقة الخليج ـــ وهى البحرين ، وقطـــر ، ودولة الامارات العربية المتحدة ـــ كان يعنى تغيرا أساسيا فى الموقف . فرغم تبعية هذه الدول بدرجة كبيرة لانجلترا ، الا انها أخذت تقيم علاقات مع الدول الأخرى ، ولم تعد مستعدة للقيام بدور المتفرج فى المسرح العالمى . وستثبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط ما تستطيع ان تقدمه كل منها . لقد نشطت الحياة السياسية فى المحميات السابقة .

وذهب مع الماضى العصر الاستعمارى بمفهومه القديم فى منطقة الخليج العربى عدا سلطنة عمان . ولكن هل انتهى بصورة قاطعة ؟

المظلة العسكرية الأمريكية

فى فبراير ١٩٧٣ عدت الى البحرين مرة اخـــرى ونزلت فى فندق « ميدل ايست » وفى صالة الفندق أخذ عدد من الأمريكيين الثملين يحتسون الروم بالكوكاكولا . وكان يبدو انهم عسكريون ، رغم ملابسهم المدنية . وكان أحدهم يصيح بصوت عال ، ورغم أن الوقت كان مساء ، الا انه لم يعترف باللافتـــة التى تدعـــو « السادة » الى ارتداء رباط العنق :

ـــ وكم طريقا هناك ؟ طريق واحد ؟ واحد فقط ؟

ثم عاد للصياح قائلا :

ـــ سوف نفرمهم بأيدينا .. هكذا .

واخذ البطاطس المقلية ، المرشوشة بالصلصلة ، وطـــوح بها على السجادة .

وسألت العربى الذى كان جالسا بجانبى لتناول البيرة :

ـــ من هؤلاء ؟ ـــ فأجاب :

ـــ ضباط من القاعدة العسكرية الأمريكية .

ولم اتوصل الى معرفة العدو المجهول الذى كان الضـــباط المخمورون يتهددونه بقبضاتهم ، ولكن الهدف من ظهورهم فى منطقة الخليج العربى لا يثير الشـــك .

كانت لجنة خاصة من مركز الأبحاث الاستراتيجية والدولية التابع لجامعة جورج تاون الأمريكية قد أعدت بداية عام ١٩٦٩ تقريرا عن نتائج انسحاب بريطانيا من الخليج . وكانت اللجنـــة تضم جون جوريفيتس الأستاذ بجامعة كولومبيا ، وولتر لاكير مدير معهد التاريخ الحديث فى لندن ، ووليام ليوس ، والميجور جنرال جون ملتون الرئيس السابق لغرفة عمليات قوات الانزال فى الجيش البريطانى . وتوصل الجميع الى اســـتنتاج أن قرار الحـــكومة البريطانية بشأن سحب القوات من منطقة الخليج قبيل نهاية عام ١٩٧١ كان قرارا « متسرعا يتسم بالرعونة » ، ذلك لأن انسحاب انجلترا « السابق لأوانه » سيؤدى الى عواقب وخيمة فى المنطقـــة فى شكل « اضـــطرابات » ، و « فوضى » ، و « قرصـــنة » ، و « اخلال بالأمن » .

كلمات كلها معروفة .. وها هى دولة اخرى تحاول تفســـير تغلغلها فى منطقة الخليج العربى « بالقرصنة » .

لقد جلب خمود النفوذ العسكرى السياسى البريطـــانى فى منطقة الخليج بالولايات المتحدة الأمريكية اليهـــا . ولقـــد كتب ر. ساليفان الأستاذ المساعد بجامعة نيويورك يقول فى هذا الصدد: « ان أفضل نظام مثالى للأمن هو النظام الذى يمكن لبريطانيـــا

أن تواصل فى ظله القيام بدور رجل البوليس الرئيسى ، أما الولايات المتحدة الأمريكية فعليها أن توجد احتياطيا قليلا نسبيا من القوات المسلحة فى المحيط الهندى ، وبذا تجعل من الوجود البريطانى فى المنطقة أمرا حيويا من الناحية العسكرية . ولكن اذا لم يكن من الممكن الاعتماد على مثل هذا التعاون الانجلو أمريكى ، فان المصالح البالغة الأهمية الغربية والأمريكية تتطلب أن تملأ الولايات المتحدة الأمريكية هذا الفراغ بنفسها » . والجدير بالذكر أن ضعف النفوذ البريطانى فى الشرق العربى عام ١٩٥٧ هو الذى دفع واشنطن الى اعلان مبدا « دلاس — ايزنهاور » ، والذى يمنح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية صلاحيات ارسال قوات أمريكية الى المنطقة « اذا اقتضت الضرورة » .

وفى بداية السبعينيات توصلت الولايات المتحدة الأمريكية الى استنتاج أن ساعة « ملء الفراغ » قد حلت . وكان فى مياه الخليج على امتداد حوالى ربع قرن أسطول أمريكى صغير مكون من قاعده عائمة ومدمرتين . وانطلاقا من الرغبة فى ضمان نقطة ارتكاز ومنشآت ساحلية له ، عقدت الولايات المتحدة الأمريكية مع حكومة البحرين اتفاقية حول استخدام القاعدة ، التى أخلتها بريطانيا ، نظير عدة مئات الآلاف من الدولارات فى العام (وذلك بعد انسحاب الانجليز بشهرين فقط) .

والجدير بالذكر أن جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكى زعم أثناء مناقشة موضوع البحرين فى الكونجرس أن تمركز القوات المسلحة الأمريكية فى منطقة الخليج له « أهمية سيكلوجية وعسكرية » وسيكون مصدرا للهدوء .. وصرح أحد موظفى وزارة الخارجية الأمريكية لصحيفة « نيويورك تايمز » أنه سينبغى على الأسطول الأمريكى « أن يأخذ على عاتقه بعض مهام الحفاظ على الأمى الداخلى وهى المهام التى كانت ملقاة على عاتق انجليز » .

كانت زيادة القوات البحرية الأمريكية فى الخليج العربى والمحيط الهندى تتم فى اطار استراتيجيتها الدولية ، والتى تولى تطوير الأسطول أهمية من الدرجة الأولى . والشعار الذى يحكم علاقة واضعى الاستراتيجية الأمريكيين بالأسطول « هو من يملك شوكة اله البحر نيبتون فانه يملك تاج العالم كذلك » . ففى عامى

١٩٧١ ــ ١٩٧٢ برزت القوات البحرية الأمريكية الى المركز الأول بين كل أنواع القوات المسلحة من حيث حجم اعتمادات الميزانية ، وذلك لأول مرة خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . ولقد زادت نفقات بناء واصلاح وتحديث سفن الأسطول فى بداية السبعينيات اكثر من الضعف بالمقارنة بفترة ١٩٦٦ ــ ١٩٧٠ .

وكان الخبراء الأمريكيون يرون أن القوات العاملة فى البحرية الأمريكية يجب أن « تسيطر على البحار » و « تحمى خطوط المواصلات البحرية التجارية للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ، و « تضمن مصالح » الولايات المتحدة فى الأزمات ، وتدعم « الوجود الأمريكى فى الخارج » . ويرى هؤلاء الخبراء أن أهمية عمليات النقل البحرية البعيدة المدى ستزداد دوما بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية . فان نقل شحنات البترول والخامات ومختلف أنواع المواد الاستراتيجية أمر بالغ الأهمية بالنسبة لعمل الاقتصاد الأمريكى بصورة طبيعية .

ولقد صرح ج. لينكولن ــ وهو أحد مسئولى البيت الأبيض ــ فى الكونجرس قائلا : « ان العوامل الاقتصادية أو السياسية هى وحدها القادرة الآن على تهديد أمننا أو اضعافه . ان تحقيق الاكتفاء من الطاقة هو القضية الرئيسية فى الواقع الراهن ، وان الأمن الطاقى أساس الأمن القومى » . وما من جدال أن الخليج العربى هو القادر وحده على سد شهية الطاقة الأمريكية .

وكان الأدميرال الو زومفولت رئيس هيئة عمليات القوات البحرية الأمريكية آنذاك ، قد اكد أن أى صراع دولى محتمل « من شأنه أن يعرض للخطر خطوط المواصلات البحرية الطويلة السهلة المنال بين الخليج الفارسى والولايات المتحدة الأمريكية » . وهنا انتقل الأدميرال بحديثه على الفور الى « التهديد السوفيتى » قائلا : « ان الأسطول الحربى السوفيتى يشكل الخطر الوحيد الجاد لخطوط مواصلاتنا . فان قدرة السوفيت على قطع خطوط مواصلاتنا تزداد » . ثم أضاف قائلا : « واذ أعلن ذلك ، فانى أود أن أعطى أولوية كبرى ، لا تقل الا عن أولوية قوتنا النووية الاستراتيجية ــ للبرامج المخصصة لزيادة امكانيات مواجهة الأسطول الحربى السوفيتى فى نهاية السبعينيات » .

واذا تركنا جانبا التشدق الدعائى العادى حول « التهديد السوفيتى » فلسوف نجد أن منطق ممثلى المؤسسة الصناعية العسكرية الأمريكية منطق مفهوم . فقد كانت نيتهم ضمان شحنات البترول من الخليج عن طريق زيادة الضغوط العسكرية والسياسية على دول ساحل الخليج ، واقامة ما يوصف بأنه « مظلة عسكرية » فوق المنطقة . واما ما يسمى بمجموعة القوات البحرية فى الشرق الاوسط ، التى تتخذ البحرين قاعدة لها فليست سوى جزء من القوات العسكرية الأمريكية المتزايدة فى المحيط الهندى ، الذى تصفه وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) بصورة متزايدة — بأنه «بؤرة المواجهة العسكرية فى منتصف السبعينيات » .

وتسلحت واشنطن فى السنوات الأخيرة بنظرية توسيع « الالتزامات الخاصة بحماية خطوط المواصلات الامريكية بالقرب من المناطق غير المستقرة » وهذا من شأنه أن يبرر « تبريرا » دعائيا السياسة العدوانية المحتملة فى الخليج العربى . وتشير التنبؤات الأمريكية الى حوالى ٤٠٠ صدام مختلف فى العالم حتى عام ١٩٩٠ ، سوف تنجر اليها الولايات المتحدة الأمريكية بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وستحتم الظروف على الولايات المتحدة نقل ٩٤ فى المائة من الشحنات الضرورية لاشتراك الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الصدامات بحرا ، رغم الامكانيات المتزايدة لنقل العتاد الحربى جوا . وتؤكد البيانات الرسمية أن ٩٦ فى المائة من عمليات النقل أثناء الحرب الفيتنامية كانت تتم عن طريق البحر .

وتنتشر فوق المحيط الهندى الآن شبكة أقمار الاتصالات الأمريكية المخصصة لمراقبة الموقف . ولقد تمت اقامة مراكز تجميع المعلومات ومحطات المرحلات فى جزر الدابرا فاركوار ، ديسيديروس (فى أرخبيل سيشل) وهان (جزر مالديفيا) ، وتشاجوسى وموريشيبوس وكذلك فى البحرين وسنغافورة . ويعتبر الكثير من الخبراء أن هذا ليس سوى الخطوات الأولى فقط .

وسوف تلعب جزيرة دياجو جارسيا فى أرخبيل تشاجوسى الذى يقع على خط الاستواء تقريبا — دورا رئيسيا فى توسع التغلغل العسكرى الأمريكى فى المحيط الهندى . وتعتبر الجزيرة جزءا من

الممتلكات البريطانية فى المحيط الهادى ، كما يوجد لدى الانجليز منشآت عسكرية فى الجزيرة ، وسوف تستخدم بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية القاعدة الجديدة معا . ورغم الاعلان عن أن الجزيرة الرائعة الموجودة فى المحيط ان تكون سوى « مركز اتصال »، الا أنه من المقرر ، كما جاء فى تصريح الادميرال المتقاعد لاروك — خدمة الغواصات المزودة بصواريخ حاملة للرءوس النووية . وستضاف الى القاعدة البحرية مخازن للوقود ، وثكنات للوحدات البرية ، وورش صيانة واصلاح . واذا أخذنا فى الاعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تستخدمان قواعد فى جنوب افريقيا واستراليا الى جانب البحرين والمصيرة ، يتضح لنا مركز النظام العسكرى الأمريكى فى المحيط الهندى .

لقد وصفت انديرا غاندى النوايا الأمريكية الرامية الى اقامة قاعدة بحرية نووية فى جزيرة دياجو جارسيا بأنها «تهديد لأمن كل دول حوض المحيط الهندى » . كما تردد صدى الاحتجاج على خطط وزارة الدفاع الأمريكية فى كينيا وتنزانيا ، وسرى لانكا ، وموريشيوس ، وبنجلاديش ، بل وفى استراليا . ولقد وقع الادميرال توماس مورر رئيس اللجنة المتحدة لرؤساء هيئات الأركان — فى سقطة لسان حين أعلن أن القاعدة سوف تستخدم طائرات الوقود العملاقة لتزويد « القلاع الطائرة » ب — ٥٢ بالوقود فى الجو ، كما أنه من المحتمل أن تستخدم القاعدة قاذفات القنابل هذه .

والجدير بالذكر أن ما من أحد آخر غير وليام كولبى مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية نفسه — قد بدد ستار الدخان الذى تطلقه وزارة الدفاع الأمريكية حول « التهديد السوفيتى » لمدخل الخليج العربى ، حيث أعلن أن القوات البحرية السوفيتية فى المحيط الهادى « قليلة نسبيا » وأن زيادتها « تعتمد على حجم الاستثمارات والقوات ، التى ننوى توزيعها فى المنطقة » . واتهمت وزارة الدفاع الأمريكية رئيس المخابرات الأمريكية بأنه « يردد كلمات صحيفة (البرافدا) » وأصرت على وجود خطر التهديد السوفيتى. وتم الاسراع بخطى بناء القاعدة فى جزيرة دياجو جارسيا .

لم تترك وزارة الدفاع الأمريكية نواياها موضع شك ، اذ

أجرت فى نوفمبر عام ١٩٧٤ أكبر مناورات فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كلها ، وذلك فى الجزء الشمالى من المحيط الهندى وبالاشتراك مع الدول الأخرى الأعضاء فى الحلف المركزى . ولقد اشترك فى هذه المظاهرة العسكرية خمسون سفينة من بينها غواصات ذرية . ودخلت مياه الخليج حاملة طائرات أمريكية تحمل ١٠٠ طائرة وتصحبها مدمرتان مزودتان بالصواريخ بهدف « دراسة الموقف » .

كما بدأت بكين هى الأخرى القيام بمحاولات لجس النبض فى منطقة الخليج ، وقد أخفت نواياها الحقيقية بالقيام بدور الدولة القادرة على « دعم التوازن » فى الشرق الأوسط . وتأمل القيادة الماوية فى جنى الثمار والمزايا نتيجة تخليها عن مساندة حركة التحرر الوطنى فى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى .

ولقد كتبت مجلة « الصياد » اللبنانية الأسبوعية فى هذا الصدد تقول فى مايو ١٩٧٥ : « لقد انقضت ثلاث سنوات منذ أن بدأ الصينيون يبعدون عن أنفسهم أى شك فى مساندتهم للحركات الثورية فى شبه الجزيرة العربية » وتشير « الصياد » الى أن تسى بن فى قد استحسن أثناء زيارته للشرق الأوسط فى يونيو عام ١٩٧٣ — وكان وزيرا لخارجية جمهورية الصين الشعبية آنذاك — العمليات الانتقامية الموجهة ضد الوطنيين فى ظفار .

وجاء فى الخبر الذى نشرته المجلة اللبنانية أن أحد الديبلوماسيين الصينيين قال فى لقاء رسمى مع ممثلى سفارات الامارات العربية فى الخليج : « انكم تعلمون جيدا أن حكومتنا قد تخلت منذ عدة سنوات مضت عن التزاماتها بمساندة الثورات فى دول الخليج العربى . أننا نتعامل مع الأنظمة الموجودة مهما كانت » .

وكان هذا اللقاء — كما تشير المجلة — قد عقد عقب زيارة لى سيان نيان نائب رئيس مجلس الدولة فى جمهورية الصين الشعبية لطهران ، وتؤكد مجلة « الصياد » قائلة : « لعل الصينيين يعتقدون أن الوقت قد حان لجنى ثمار ما يسمى بسياستهم « المعتدلة » فى منطقة الخليج » .

التنافس القديم والجديد

ان تاريخ تكون الدول الجديدة فى منطقة الخليج « لا يثير الغرابة » وفقا لمعايير هذه المنطقة . ففى يناير ١٩٧٢ أخذ حاكم امارة الشارقة الشيخ خالد على غرة حين هاجمته جماعة يرأسها حاكم الامارة السابق والذى اطيح به عام ١٩٦٥ ، وكانت النتيجة مقتله . وتمكن جيش وبوليس الامارات العربية المتحدة بعد عدة ساعات من ذلك من احباط محاولة هذا « الانقلاب الصغير » . وتجدر الاشارة الى انه تمت الاطاحة أو قتل ١١ أميرا من بين الـ ١٥ أميرا الذين حكموا أبو ظبى منذ منتصف القرن الثامن عشر . كما كان ذلك مصير سبع أمراء من بين ١١ أميرا حكموا الشارقة خلال نفس الفترة .

وفى يونيو عام ١٩٧٢ اشتعلت الحرب القبلية بين الشارقة والفجيرة ، واستمر الصدام حوالى شهر ، ولم يتوقف الا بعد تدخل الجيش الاتحادى ، ووحدات أبو ظبى المسلحة .

وبدا الانقلاب الذى شهدته قطر فى العام نفسه وكأنه من « الشئون العائلية » حيث أزاح رئيس الوزراء الشيخ خليفة ابن عمه الشيخ أحمد ، الذى كان قد خرج فى رحلة صيد ، وذلك دون اراقة دماء ، ورفع الأمير الجديد مرتبات الموظفين والضباط على الفور بهدف تدعيم مركزه .

كانت هذه هى طرطشة الرذاذ التى دلت على عدم الاستقرار السياسى فى أعماق منطقة الخليج . ورغم أن دولة واحدة قد ضمت سبع امارات ، الا أنها بعيدة عن الاتحاد الكامل . فلا تزال توجد حتى الآن نقط الجمارك ، وتنفذ اجراءات الجوازات بين أبو ظبى ودبى . ولكن الأهم من ذلك هو احتفاظ كل امارة بتشكيلاتها العسكرية . وقد يبدو أن جيش أبو ظبى المكون من حوالى ١٠ آلاف فرد ، والمزود بأسلحة حديثة بما فيها الطائرات الأسرع من الصوت، يمكن أن يصبح دون صعوبة القوة العسكرية الغالبة فى الامارات . ولكن أبو ظبى تنفذ سياستها وهى حذرة من العربية السعودية . فان ذاكرة حاكم الامارة لا تزال تعى الاشتباكات العسكرية مع

العربية السعودية فى بداية الخمسينيات وسيطرة السعودية على واحة البوريمى .

لا تزال جمرات النزاعات على الحدود والصراعات الدولية مشتعلة دون لهيب فى منطقة الخليج . وما التناقضات بين ابو ظبى والمملكة العربية السعودية سوى احد امثلة ذلك ، رغم انها سويت شكليا فى صيف عام ١٩٧٤ . ولم تفض حتى يومنا هذا نزاعات الحدود بين البحرين وقطر ، وبين العراق والكويت ، وبين ايران والامارات المتحدة ، وبين العربية السعودية من جهة ، وبين دولة الامارات العربية المتحدة ، وعمان ، واليمن الشمالى والجنوبى من جهة اخرى . وتزداد حدة الصراع على الحدود نتيجة احتمال وجود البترول أو اكتشافه . وتلهب الدول الامبريالية هذا التنافس المحلى ، وتفرق المنطقة بالسلاح وتدخل الدول المتوسطة ، والصغيرة ، والأقل من الصغيرة سباق التسلح .

كانت المخابرات والدبلوماسية الأمريكية تود اقامة حلف عسكرى سياسى بين ايران والمملكة العربية السعودية تحت رعايتها ، وتسوية الخلافات القائمة بين الدولتين . ورات واشنطن أن هذا الحلف من شأنه أن يكون استكمالا مرغوبا فيه « للمظلة العسكرية » الأمريكية فى الخليج .

وتفضل دول الخليج الصغيرة البقاء خارج الاحلاف على أمل تدعيم سيادتها بسياستها المحايدة . وهذا ما اكده لى راشد الراشد نائب وزير الخارجية بالكويت فى حديث معى ، حيث قال : « لا نريد أن ندخل أية كتل أو احلاف عسكرية ، وان ننضم الى أى منها ابدا » . وكرر نفس هذه الفكرة المرحوم الغباش وزير الدولة فى دولة الامارات العربية المتحدة المقتول ، حيث قال : « نحن نقف مع سياسة الحياد ، ونعارض أية احلاف فى هذه المنطقة » .

دعمت ايران نشاطها العسكرى السياسى فى منطقة الخليج خلال السنوات الأخيرة قبل الثورة . واصبحت ايران القوة العسكرية الأولى بين دول هذه المنطقة . فتفوق القوات الايرانية جيش المملكة السعودية ثلاث أو اربع مرات من حيث العدد ، وطائرات القتال،

والسفن الحربية . ولقد طلبت ايران من الولايات المتحدة شراء أحدث انواع القاذفات ، وقنابل موجهة باشعة الليزر بما يبلغ مجموعه عدة مليارات من الدولارات والجدير بالذكر انه اذا كانت مشتريات ايران من الأسلحة فى بداية الستينات قد بلغت ٨ر٥ مليون دولار فقط ، فانها بلغت عـــام ١٩٧٤ اكثر من ٣ر٥ مليـــار دولار . وتشهد صحيفة « انترناشيونال هيرالد تريبيون » ان ايران أصبحت العميل الرئيسى للولايات المتحدة الأمريكية بين مشترى السلاح . ولقد اعلن هويدا رئيس وزراء ايران آنذاك أنه قد تم تخصيص ١٠ مليارات من الدولارات لاحتياجات الدفاع من اجمالى ميزانية العام المالى ١٩٧٥/١٩٧٦ البالغة ٣٦ مليار دولار ـــ أى ضعف ما كان مقررا لنفقات الدفاع فى العام السابق .

وتمتلك ايران الآن بالفعل أكبر اسطول فى العالم من السفن التى تسير على وسائد الهواء ، كما تمتلك أكبر قاعدة بحرية فى الخليج العربى ، وأكثر شبكات الصواريخ تعقيدا فى « العـــالم الثالث » . ويجرى بالقرب من بندر عباس بناء أكبر قاعدة جوية فى الشرق الأوسط . واذا استمر الاتجاه الحالى ، فمن المقرر أن يصبح لدى القوات الجوية الايرانية حتى نهاية السبعينيات عدد من القاذفات المقاتلة اكثر مما لدى أى عضو من أعضاء حلف الأطلنطى فيما عدا الولايات المتحـــدة .

وتؤكد « انترناشيونال هيرالد تريبيون » ان طهران لم تطلب فقط ٨٠ طائرة من أحدث الطائرات ف ـــ ١٤ ـــ ويبلغ ثمن الواحدة ٢٠ مليون دولار ـــ قبل أن تطلبها اسرائيل ، وكندا ، والمانيا الغربية فحسب ، بل تقدمت بطلبها بنفس السرعة التى طلبتها بها القوات البحرية الأمريكية (بل ربما اسرع منها) . لا شك أن الطائرات الحديثة ستدعم تدعيما جوهريا القوات الجوية الايرانية ، التى كانت بضع اسراب من الفانتوم تشكل نواتها . وطالما كان تصدير البترول يعود على ايران بحوالى مليارين من الدولارات شهريا ، فان قواتها تستطيع السماح لنفسها باقتناء « حديقة حيوانات الكترونية » كاملة من مختلف أنواع الصواريخ وشبكات الرادار .

وكان فى مدينة اصفهان حوالى الف امريكى ، غالبتهم من قدماء المحاربين فى فيتنام . واقد قاموا بتنظيم مدرسة للطيران العمودى لتدريب الايرانيين . وكان لدى ايران فى بداية عام ١٩٧٥ — ٦٤٠ طائرة عمودية وطلبت بالاضافة الى ذلك طائرات عمودية من نماذج جديدة يمكنها العمل فى الظروف الليلية مع انعدام الرؤية .

لقد تلقى اكثر من ١٢ الف ضابط ايرانى اعدادهم العسكرى فى الولايات المتحدة الأمريكية خلال العشرين عاما الاخيرة ، كما وصل الى ايران راكبا موجة التسليح جيش كامل من المستشارين والمدربين الأمريكيين . وبلغ عدد افراد مجموعة المساعدات العسكرية التابعة لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية — حوالى الف خبير بالزى العسكرى ، وحوالى الفى خبير بالزى المدنى . ولكن الجالية الأمريكية فى ايران بلغت ٢٠ الف فرد ، وكان من المحتمل أن يصل عددها الى ٥٠ الف حتى عام ١٩٨٠ . والكثير من الأمريكيين كانوا من الضباط المتقاعدين والذين يعملون فى صيانة الحتاد الحربى . وكان هذا الوضع من اسباب الثورة فى ايران .

ونظرت الرياض بحذر الى تعزيز القدرات العسكرية لايران فى الخليج العربى . ولقد عرضت ايران فى نهاية ١٩٧١ قدراتها العسكرية المتزايدة بدخول قواتها ثلاث جزر لها اهميتها الاستراتيجية عند عنق مضيق هرمز . ورغم أن الحكومة السعودية تعادى الجبهة الشعبية فى عمان وبينها وبين جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تناقضات حادة ، الا انها تلقت بانزعاج ، وقلق نبأ ارسال القوات العسكرية الايرانية الى عمان للاشتراك فى العمليات العسكرية ضد ثوار ظفار .

ان المسئولين فى العاصمة السعودية يعتبرون شبه الجزيرة العربية كلها منطقة نفوذ لهم ، ناهيك عن الامارات العربية الواقعة على ساحل الخليج . ولا ينبغى نسيان ان الايرانى الشيعى كافر متأصل من وجهة نظر المسلم السعودى «الوهابى» المذهب ، والعكس بالعكس . ولقد اعتبر الكثيرون « المهادنة » بين المملكة العربية السعودية ودولة الامارات العربية المتحدة ، والتى تمت فى صيف

عام ١٩٧٤ ــ محاولة لمواجهة سياسة ايران فى المنطقة . ففى هذا الصدد كتبت صحيفة « كريستين ساينس مونيتور » الأمريكية فى اغسطس عام ١٩٧٤ تقول : « ان قرار الرياض بالتخلى عن المطالبة بالبوريمى يعكس نيتهـا فى تدعيم النفوذ السـعودى فى الخليج . وفى مقابل هذا ترمى السعودية الى أن يقوم الشـيخ زايد حاكم دولة الامارات العربية المتحدة بمساندتها فى مواجهة تدعم ايران فى الخليج . كما أن الديبلوماسية السعودية موجهة كذلك ضد أية حركة يسارية فى شبه الجزيرة » .

ولقـد دفعت الامكانيات المـالية المتزايدة ، والطمـوحات السياسية المملكة العربية السعودية الى زيادة قواتها المسـلحة زيادة كبيرة . ولقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية ــ طبقا لبرنامج اعادة تنظيمها خلال عشر سنوات ــ بدأت تقدم للسعودية عتادا حربيا بمليارات الدولارات . ويسعى السعوديون للحصول على دبابات وطائرات أمريكية حديثة لانشاء قـوات عالية الميكانيكية والحـركة . وأجرت الولايات المتحـدة الأمريكية فى نفس الوقت محادثات مع الكويت حول بيع مختلف أنواع الأسلحة الحديثـة لهـا . وتشير « واشنطن بوست » لهذه المحادثات قائلة أن « هذا يؤكد استعداد الشركات الأمريكية التى تبيع السلاح ــ للحصول على الجزء الأكبر من العقود فى منطقة الخليج ، من جهة ، ورغبـة الولايات المتحدة الأمريكية فى الحفاظ على نفوذها السـياسى فى المنطقة عن طريق الصفقات العسكرية » .

أصبحت المملكة العربية السعودية فى المركز الثالث فى العالم من حيث مشترواتها من الأسلحة الأمريكية ، وذلك بعـد ايران واسرائيل . فقد بلغت مشترواتها عام ١٩٧٤ من العتاد والمعدات الحربية من الولايات المتحدة حوالى ٦٠٠ مليـون دولار ، أما فى بداية عام ١٩٧٥ ، فقد التزمت واشنطن للسعودية بتوريد ٦٠ طائرة فـ ـ ٥ وقطع غيار لها ، ومعدات أرضية لها بما تزيد قيمته عن ٧٥٠ مليون دولار . ووقع السعوديون فى نفس الوقت عقدا مع فرنسا لشراء مدرعات وصواريخ « أرض ــ جو » قيمتها مئات الملايين من الدولارات .

وجندت شركة « فينيل » حوالى الف من قدامى المحاربين فى حرب فيتنام لتدريب الحرس الوطنى السعودى . وتضم البعثة العسكرية الأمريكية التى تخدم الجيش النظامى السعودى ما بين مائة وخمسين ومائتى مستشار ، أما بقية العاملين ، فهم من المدنيين . ويتقاطر الآن المرتزقة على السعودية ، حيث تتراوح مرتباتهم بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ دولار فى الشهر بجانب مكافأة الـ ٢٤٠٠ دولار التى يتسلمونها فى نهاية الخدمة . ويعتبر اللفتنانت كولونيل جورج هاسبارد من بين النماذج الطبيعية للمرتزقة الأمريكيين ، فقد اشترك فى كل الحروب التى دخلتها الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، وقام بتدريب حراس القصور لحكام كوريا الجنوبية ، وسايجون وبنوم بنه الأذناب . ولقد أشارت الصحف الغربية الى أن المرتزقة الأجانب سوف يتمتعون بحقوق كبيرة فى المملكة العربية السعودية . وكتبت مجلة « بوان » الفرنسية فى هذا الصدد ان الولايات المتحدة الأمريكية لا تمانع فى « انشاء قوة عسكرية فى هذه المنطقة تشبه الفيلق العربى الاردنى ، حيث كان العرب يخدمون تحت أمرة الضباط الانجليز » . وصرح الكولونيل ويلبى قائد جماعة المرتزقة قائلا : « سوف نسيطر على الموقف سيطرة كاملة هناك » .

ويخصص لعمان دور أحد رؤوس الجسر للتغلغل فى الخليج . فقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية عام ١٩٧٥ توريد معدات عسكرية حديثة الى السلطان قابوس . وتزعم الدعاية الرسميه فى الولايات المتحدة الأمريكية أن صفقات السلاح هذه مرسلة الى قوات قابوس كى تقوم بالاشتراك مع الوحدات الايرانية بالعمليات العسكرية ضد ثوار ظفار الذين تقودهم الجبهة الشعبية لتحرير عمان . غير أن ترسانة الأسلحة الأمريكية تشتمل — على سبيل المثال — على صواريخ مضادة للدبابات ، فى الوقت الذى لا تخرج « الآليات » التى يستخدمها الثوار عن الجمال والحمير .

وبالاضافة الى ذلك منحت الولايات المتحدة الأمريكية حق استخدام القاعدة الانجليزية فى جزيرة مصيرة القريبة من ساحل عمان ، حيث توجد بها ممرات جوية تستطيع استقبال أضخم الطائرات . وتكمل قاعدة مصيرة نقط الارتكاز الأمريكية فى

البحرين وديجو جارسيا . وتكتب صحيفة « جارديان » الانجليزية أن الطائرات تستطيع السيطرة على منطقة الخليج كلها من قاعدة المصيرة ، أما القوات المتمركزة فيها ، فيمكن انزالها فى المنـــاطق البترولية بســـهولة .

لقد تحولت منطقة الخليج العربى الى منطقة من بين أكثر المناطق التى تسودها العسكرية فى العالم ، وذلك بفضل جهود احتكارات البترول والدول الامبريالية . والموقف فى المنطقة بالغ الخطورة .

■

«نبلاء» و«دهماء»

كان الحصان المسحور يطير فوق الصحراء الحجرية . وحين لمس حافره الأرض ، بدا وكأن الأمر مصادفة ، بل المرجح أنه لعب اكثر منه ضرورة . واتجه الفارس نحو بوابة الأسطبل ، وتخطاها بسهولة ثم أوقف الحصان وسط الفناء ، وقفز نازلا من على ظهره ، وأخذ يربت على الجواد فى عطف .

تحوى اسطبلات الامراء فى البحرين حوالى ٣٠٠ جواد أصيل ، تمتد شجرة أصولها الى اعماق عشرات السنين ، بل تكاد تصل الى حد القرون وهى الشجرة التى يهتمون بهـا بعناية وفخار لا يقل قدرا عن الاهتمام بشجرة أسر الامراء والملوك . ويبدو أن الظروف المناخية مناسبة تماما لتربية الخيول ، حيث تسود الحرارة المشوبة بالرطوبة المنهكة صيفا ، والبرد الجاف شتاء . ومما يساعد على تربية هذه الخيول الأصيلة وجود المياه الغنية بالاملاح الضرورية ، وجود اعلاف ممتازة ــ البلح ، والشعير ، والقرط الاخضر طوال العام (نبات يماثل البرسيم) وخلو المنطقة من أمراض الماشية الوبائية .

لقد استمعت الى قصائد شعرية حول الخيول العربية فى ازقة المركز التجارى القديم فى المنامة عاصمة البحرين ، وفى المقاهى الصغيرة التى تتسـع لبضع موائد بصعوبة . واتضح أن تقاليد قرض الشعر البدوية لا تزال حية فى عصر أجهـزة الترانزستور والتليفزيون ، وان كان يصعب القول بمدى انتشارها ، ولكن رواد هذه الاماكن يمصمصون بشفاههم وهم يستمعون الى المقارنات

البليغة للجواد العربى بالفتاة الرشيقة ، ويرفعون شفاهم عن النارجيلة ويصيحون فى اعجاب : « الله ! »

تشتهر الجزيرة العربية بخيولها ، ولكن قلما يعرف أحد أن الخيول فى هذه المناطق نوع من الترف الذى لا يحظى به الا القليلون وفيما مضى لم يكن أحد يسمح لنفسه بالجموح باقتناء جواد أصيل سوى من كان يملك مئات كثيرة من الابل .

الماضى

كان غالبية سكان الجزيرة العربية وساحل الخليج العربى يحصلون على لقمة العيش ، فى عصر ما قبل البترول ، عن طريق تربية الابل ، الاغنام ، والماعز واستخراج اللؤلؤ ، وزراعة النخيل . ولذلك لن نسرف لو تحدثنا عن أنواع النشاط الاقتصادى هذه كى نقف على تقييم التغيرات العميقة ، التى جاء بها الانقلاب البترولى ، تقييما كاملا .

فالابل بالنسبة لساكن الصحراء وسيلة مواصلات لا غنى عنها فانها تستطيع قطع مسافات هائلة دون حاجة الى جرعة ماء ، كما تستطيع شرب المياه المالحة بعض الشىء ، فضلا عن انها تطفىء ظمأ صاحبها وجوعه بابنها الرائع . ويستفيد البدوى من الجمل حيا وميتا . فيستخدم الصوف فى صنع المعاطف والعباءات والسجاجيد ، والخيام ، والحبال ، ويستخدم اللبن واللحم فى الغذاء ، كما يصنع منه الجاد ، أما العظام فتستخدم فى اشعال النيران . ويستخدم البدو لحم الجمال لا الطازج وحده ، بل والمجفف بالشمس وفى زمهرير الصباح يستطيع البدوى أن يدفىء يديه المتجمدتين ببول الجمل ، أما البدويات فيعتبرنه افضل وسائل غسل الشعر .

كان البدو مربو الجمال هم القوة العسكرية المسيطرة فى ظروف شبه الجزيرة العربية ، ولذا نجد أن كل البطون الاقطاعية

فى شبه الجزيرة العربية اما يرجعون بأصلهم الى قادة البدو مباشرة ، واما يرتبطون معهم برباط أسرى او تحالف وثيق . وليست الأسر الارستقراطية التى تحكم البحرين والكويت ، وقطر ، وأبو ظبى وغيرها من الامارات بالاستثناء من ذلك . فقد رحلوا من اعماق الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر بصفة أساسية وقد دفعتهم الى الساحل موجات الجفاف والفتن الداخلية ، فضلا عن اجتذاب صيد اللؤلؤ فى الخليج العربى لهم .

وفى احدى الليالى صعدنا على سقالة ملقاة على الشاطىء الى احدى زوارق صيادى اللؤلؤ . وبدأ هدير المحرك الذى كان الماكينة العصرية الوحيدة على الزورق ، الذى لم يتغير شكله وهيكله على امتداد قد يصل الى الوف الأعوام . ويستخدم الرحالة عامة اسم « الدو » الانجليزى لتسمية كل انواع السفن الشراعية العربية التى تجوب مياه الخليج والجزءين الغربى والشمالى من المحيط الهندى . والواقع أن السفن الصغيرة والزوارق المحلية مختلفة الأنواع ، ويحمل كل منها اسما خاصا به .. ولقد بقيت حتى يومنا هذا الترسانات القديمة فى جزيرة المحرقة وهى احدى جزر البحرين ، حيث يجرى صنع السفن الشراعية (الدو) من الاخشاب المجلوبة من الهند . وتعرفت على أحد بناة السفن ، وقد ورث هذه الصناعة أبا عن جد وجدا عن جد . وكان رجلا قويا ذا لحية عارى الجسد حتى بطنه وسألته عن الرسومات التى يبنى منها السفينة ضحك الرجل وخبط على جبينه قائلا : « ان كل الرسومات هنا ، ولا أعرف غيرها » تتمتع سفن (الدو) الشراعية بمواصفات ملاحية فائقة ، حيث يمكن القيام برحلة عليها عبر المحيط .

واصل خرير المياه رنينه تحت مقدم السفينة ، وأخذت خطوط خيال ملاح الدفة ذى الملامح الزنجية الدالة على أنه ابن عبد افريقى — أخذت خطوطه تتضح بدقة على خلفية من ضوء السماء الآخذ فى الشروق . وتذكرت الأسطورة الرائعة التى سجلها الشيخ النبهانى مؤرخ الجزيرة العربية حول أصل اللؤلؤ والتى تقول : « تصعد الأصداف فى الربيع الى سطح البحر ، وحين تمطر السماء أو يجثم ندى كثيف على البحر ، تبتلع الاصداف نقطة من المياه

العذبة النقية وتهبط الى القاع ، وتتكون من هذه النقط اللؤلؤ النفيسة » وتذكر النقوش الاشورية فى القرن العشرين قبل الميلاد انه تم استلام طرد من « عين السمكة » — اى اللؤلؤ — من دلمون وهذه أول كلمة فى التاريخ عن درر الخليج . ويلتقى غالبية المؤرخين فى الراى على أن دلمون ليست سوى البحرين ، والتى كانت تعتبر فترة حضارة ما بين النهرين القديمة — مكان التقاء الارباب . ولقد كتب عن لؤلؤ الخليج كل من بلينيوس المؤرخ الرومانى القديم ، وابن بطوطة الرحالة العربى الشهير فى العصور الوسطى ، ودارس الجزيرة العربية المحب للمعرفة الايطالى دى فارتيما . كما ان اينشوتن فى نهاية القرن السادس عشر فى كتابه : « سجل رحلات الهند الشرقية والغربية » — يذكر اللؤلؤ قائلا : « يجرى استخراج افضل انواع اللؤلؤ واهمها ، والتى تستخرج فى بلاد الشرق ، فى الخليج بين بحر هورمز والبصرة » .

انتعش صيد اللؤلؤ بصفة خاصة فى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث كانت تخرج آنذاك آلاف الزوارق فى العام لصيد اللؤلؤ ، الذى كان يدر مئات الآلاف من الجنيهات الاسترلينية . وقوضت الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات من هذا القرن صيد اللؤلؤ حيث انخفض الطلب على الحلى النفيسة . ولكن انتاج اللؤلؤ المستنبت اليابانى نزل به ضربة تكاد مميتة . ولم يعد يخرج الى البحر الآن سوى بضع عشرات من الزوارق بغواصيها . وبالمناسبة فان الخبراء يعتبرون أن لؤلؤ الخليج افضل من اللؤلؤ اليابانى المستنبت لأن له بريقه الخاص الطويل الأمد مع ميل لونه الى اللون الوردى الغائر .

ويسود منطقة الخليج منذ الازل قانون يقضى بحظر استخدام الغواصين لأى من الادوات المتطورة ، بما فى ذلك الاقنعة وعلى ذلك كان هذا القانون — على ما يبدو — محاولة للحفاظ على مكامن اللؤلؤ من النضوب ، كما أنه يحمى كذلك صيادى اللؤلؤ من المنافسة ومن الموت جوعا .

وشاهدت كيف يستعد الغواصون للنزول الى قاع البحر . يتدلى من كل مجداف — وهو مربع الريشة — حبلان يستخدم

صياد اللؤلؤ احدهما فى الهبوط ، وتثبت فى الحبل الثانى الشبكة التى يجمع فيها اصداف اللؤلؤ ويعمل الغواصون وقد لفوا أفخاذهم بالقماش او يعملون عرايا . ولا يتعدى كل ما معهم من تجهيزات القفازات — التى يرتدونها كيلا تجرح أيديهم بروزات الصخور الحادة او الشعاب المرجانية — وسكين لفصل الصدفة . ويغلق الغواص انفه بمشبك خاص من العظام او من عظم السلحفاة ، اما الأذن ، فتسد بالشمع . ويدخل الغواص رجله فى حلقة مثبت بهـا ثقل ويهبط بسرعه الى القـاع ، حيث يستطيع البقاء فى المتوسط حوالى دقيقة ونصف غير الوقت الذى يستغرقه فى الهبوط والصعود . ثم يجذب الحبل ، فيرفعونه الى أعلى .

كان رئيس المركب — وهو رجل عجوز ملتهب العينين البادى فيهما القبح — يمسك الحبل بعناية خاصة تنبع من خبرته كغواص وصياد قديم ، ذلك لأن حياة انسان معلقة على مدى انتباهه . فينبغى عليه أن يحس فى الوقت المناسب بحركة جذب الحبل ، واخراج الصياد الى السطح على الفور . وقد يتعرض صـيادو اللؤلؤ المسلحون بالسكاكين وحدها الى الهلاك فى الخليج العربى نتيجة هجوم اسماك القرش او السمك المنشار ، ولكن خطورة حيوانات قنديل البحر السامة المسببة لحروق الجلد اكبر . فان ملامستها يمكن أن تؤدى الى صدمة يشرق الغواص بالمـاء معها .

ان مصير صيادى اللؤلؤ لا يحسدون عليه . فيصاب الكثيرون منهم بالأمراض الناتجة عن ازدياد الضغط تحت المـاء وغيرها من أمراض ، كما انهم يحصلون على أجور تافهة ضئيلة نظير عملهم الخطر الصعب ، فالأجور متوقفة على التجار ، والقباطنة ، وأصحاب السفن . وكان المدين منهم حتى وقت قريب لا يستطيع ترك دائنه ، فيصبح عبدا له فى الدين هو ومن بعده من ابناء . غير أن عادة العصور الوسطى هذه الغيت الآن .

لم اشهد عملية صيد اللؤلؤ فى البحرين وحدها . فقد شاهدتها فى قطر والكويت ، وابو ظبى ووجدت أن السكان لا يختلفون كثيرا فى عاداتهم واخلاقياتهم ومجال نشاطاتهم .

عدنا من منطقة الصيد قبيل المساء على زورق آخر ، ذلك لأن الغواصين يبقون فى منطقة الصيد عدة اسابيع . وبطول الساحل الصحراوى كان يمرق ركب من الفرسان فى الجلاليب التى تصل حتى العقبين الزاهية اللون ، وفى المناديل البيضاء التى تغطى الرأس والمحزمة بأحزمة جلدية مجدولة . وكانت تجلس على القفازات الجلدية المرصعة او اساور يد الجلابية لدى البعض منهم صقور الصيد المنفوشة الشعر وقد تمت تغطية اعينها بأغطية مخصوصة . ان وجهاء البحرين يحبون الصيد بالصقور ولذا يسافرون عدة مرات فى العام الى المملكة العربية السعودية المجاورة لاشباع هذه الهواية المنشطة للدماء فى الصحارى وشبه الصحارى . أما ما يقومون به الآن ، فليس سوى مجرد تدريب خفيف .

والمنامة مدينة جميلة حين تنظر اليها من ناحية البحر . فحين تقترب من المدينة من ناحية ساحل الجزيرة العربية ، ترى خطا من المنازل ذات الشرفات العميقة الظليلة تطل على البحر الأزرق المشوب بالاخضرار . وتبدو على الشاطىء الابراج لمتوسطة الارتفاع ، التى يهويها نسيم البحر حيث كانت تستخدم فيما مضى مكانا للراحة من القيظ ، وذلك قبل وجود المراوح الكهربائية وأجهزة التكييف . وتبرز من بين خط بيوت المدنية عدة مآذن . وفى الشارع الرئيسى تناطح السحاب المبانى الحديثة الشاهقة المنفذة وفقا « لأساليب البناء فى المناطق الاستوائية شديدة الحرارة » ، وتضم هذه المبانى المؤسسات الحكومية ، والفنادق والبنوك .

ومن خلال باب البحرين يصل المرء الى سوق المنامة . والسوق عبارة عن شوارع ضيقة تعج بالأصوات الحلقية (وهو ما تتسم به اللغة العربية) وبضجيج الزحام ، وتمتلىء بأنغام الموسيقى الشجية المنبعثة من أجهزة الترانزستور ، ويفوح الجو برائحة السمك الطازج ، والقهوة والتوابل . واغلب الرجال يرتدون الملابس الأوربية ، ولكن الكثيرين يرتدون الدشداشة واعتقد انها الزى الأمثل بالنسبة لحرارة الجزيرة العربية . وترتدى النساء العباءة السوداء التقليدية ، ولكن كثيرا ما ترى عربيات ، يرتدين الملابس الأوربية . وتتميز المحال الكبرى بشكلها العصرى ، والأسعار فيها ثابتة ، أما فى الدكاكين الصغيرة ، فينبغى المساومة

على السعر طويلا . ويحمل سوق السلع المستخدمة ، والتوابل والمطروقات المعدنية ، والاطبـــاق والقوارير ــ الطـــابع الشرقى الأصـــيل .

وتسر عينا الرحالة ، المتعبتان من صحارى شـــبه الجزيرة البلقاء ، برؤية احراش النخيل وحدائق البحرين ، حيث يوجد الكثير من ينابيع الميـــاه العذبة . ومما يثير الدهشة أن بعض هذه الينابيع تنبع من قاع البحر ذلك لأن الطبقات الحاملة للميـــاه تمر من شـــبه الجزيره العربية تحت قاع الخليج غير العميق . وتصل مياه « الينابيع العذبة البحرية » الى الحدائق من خلال الأنابيب . وتوجد بالقرب من المنامة عيون نقية من المياه العذبة يستريح عندها البحرانيون تحت تيجان النخيل الوارفة فى الجو الحـــار .

يؤمنون فى سوريا أن الجنة التى جاء ذكرها فى الانجيل كانت توجد فى واحة غوطة المباركة والتى تقع بها دمشق . ومع ذلك ترى الغالبية أن ما فيه دلتا دجلة والفرات كانت المكان الذى أغوت فيه الحية آدم وحواء . ولقد اقتنعت فى البحرين أن هذه الجزر جديرة بأن تكون من بين أماكن الجنة المذكورة فى الانجيل .

والبلح بالنسبة لسكان واحات الجزيرة العربية يمثل الخبز والخضروات والفاكهة . ويؤكدون أن ربة البيت الماهرة فى الجزيرة العربية يجب أن تتمتع بالقدرة على اعداد مئات الأطباق من البلح ويستخدم البلح فى الطعام طازجا ، ومسلوقا ، ومقددا وتصـــنع من خوص النخل الحصائر ، كما تصنع الحبال من الألياف المحيطة بجذع النخلة كما تستخدم فى صنع شباك الصيد . كما يجد الجذع مجالا كذلك للاستخدام ، مثله مثل الأخشـــاب عالية الجودة . ويصنع عرق البلح من العصير . وفى بعض الاحيان يحمصون نوى البلح ويستخدمونه بديلا للبن . وتستخدم الثمار غير الناضجة والنوى والسمك المجفف فى طعام الحيوان .

اللؤلؤ ، الصـــقور ، الخيـــول ، بل والبلح ما عدا المملكة العربية السعودية ــ والأبل ــ هذا هو الماضى .. هذا هو الماضى القديم الذى يشع دفئا نتيجة الأساطير غير المنسية ، والتقاليد

العزيزة على قلوب السكان المحليين والمثيرة الى حد الفضول بالنسبة للضيوف . ولكن ليس البلح ، وليس اللؤلؤ ، بل وحتى تربية الابل هى المصدر الرئيسى للعيش بالنسبة لسكان الدول البترولية . فهذا كله من خصائص عصر ما قبل البترول حيث تحولت هذه المجالات الى أعمال ثانوية أو ثالثية ، فلم تعد سوى مشاهد من صورة المنطقة المليئة بالتناقض والتفرد ، حيث اقتلعت موجة البترول سكانها من الكهوف وخيام العصور الوسطى العميقة والقت بهم فى دورة الحياة فى الثلث الأخير من القرن العشرين .

انتقلت الى أرض الجزيرة العربية صناعة البترول التى تعتبر من بين أكثر الصناعات تقدما فى القرن العشرين . واكتسب السكان المحليون مهارات عملية وانتاجية عصرية وذلك بين العمال أولا ، ثم بين الفنيين والمهندسين ، كما اكتسبوا خبرة تنظيم وادارة الانتاج الكبير . وكانت هذه العملية تجرى ببطء وبعناء ، ذلك لأن الشركات الاجنبية كانت ترى فى ظهور الكوادر المحلية تهديدا لمراكزها فى المستقبل .

غير أن انتاجية البترول كانت عالية بدرجة دعت الى استخدام جزء غير كبير من السكان . وظلت الصناعة الجديدة مدة طويلة كجزيرة فى بحر النشاط الاقتصادى التقليدى ، وجسما غريبا فى المجتمع الاقطاعى القبلى غير ان استخراج البترول فى دول الجزيرة العربية لم يلبث ان احدث تأثيره أولا قبل كل شىء عن طريق الدخول المتزايدة باستمرار والتى تصل الى ايدى الطبقة الحاكمة .

وتخلق الأرقام المجردة لدخل الفرد فى الامارات البترولية وهم المستوى المرتفع للتطور الاقتصادى . لقد تحولت دول ساحل الجزيرة العربية المطل على الخليج الى مصدر لاستيراد كل ما يمكن اقتناؤه بالمال : من السيارات حتى المغنيات ، ومن الطائرات النفاثة حتى لوحات الفنانين القدامى ، ومن ساعات اليد حتى الفطائر المجمدة . لم يكن النمو السريع للدخل القومى فى كل مكان فى العالم أمرا ممكنا الا نتيجة لتغيرات سياسية اجتماعية سابقة . أما هنا فالوضع مختلف ، اذ أن الانفجار المالى سبق الثورة الاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية . واصطدمت محاولات «الوصول» بمستوى الدول البترولية الى امكانياتها المالية لا بسياسة الاحتكارات

العالمية فحسب ، ولا بقلة سكان هذه المناطق فحسب ، بل وبالهيكل الاجتماعى للجزيرة العربية وسيكلوجية سكانها . ولكى نفهم خصائص هذا الهيكل الاجتماعى ونتصور ما كانت عليه الجزيرة العربية أكثر من ربع قرن مضى ، ننتقل من الامارات الى مناطق شبه الجزيرة التى لم تمسها النهضة البترولية .

البدو

ركبنا سيارة « لاندروفر » — وهى عبارة عن سيارة ذات قدرات عالية واتخذنا طريقنا عبر الطرف الجنوبى للجزيرة العربية المسمى بصحراء الربع الخالى القاحلة . وتبدلت الوديان الحجرية، والهضاب السوداء ، التى تبدو وكأنها متفحمة ، وحلت محلها الشعاب الضيقة والممرات الجبلية الشديدة الانحدار . وكانت ريح الصحراء تثير الرمال فتتصاعد فى دوامات العواصف . وكان أطفال البدو الرحل يخرجون الى الطريق يستجدون فليس هناك نقود ، أو خبز ، أو جرعة من الماء الطازج . حيث يطفئون الظمأ على امتداد عدة أسابيع بلبن الماعز والجمال وحده .

وشبه الجزيرة العربية عظيمة الحجم ، وعظيمة التاريخ . غير انه يبدو لأول وهلة أن الجاذبية تنقصها ، وانها كما لو كانت تصد كل من يبغى التعرف عليها عن كثب . ففيها تتيه جزر الواحات الخضراء وسط خضم الصخور والرمال اللانهاية ، والفضاءات الخالية من الحياة . ولك أن تتصور كيف تلهب الشمس بلظاها الصحارى والهضاب حيث لا توجد ظلال بالمرة . والسماء باهتة اللون ، والنظر اليها ليس سوى عذاب للعين . ويبدو كل شىء من خلال السراب المعتم وهذا غير واضح المعالم الان وديان الجزيرة العربية الصامتة — مثل البحر الذى لا حدود له والذى يبدو لأول وهلة رتيبا مملا — تكشف لمن يتعرف عليها عن كثب عن روعتها . لكن هذا لا يتأتى مرة واحدة ، بل يحتاج الى صبر طويل .

يعتبر البدوى المترحل المقيم فى شبه الجزيرة العربية مثالا رائعا للقدرة على البقاء على قيد الحياة والتكيف مع ظروف تصل تقريبا الى حد اللامعقول . فانه يولد فى مسكن يرثى له عبارة عن خيمة مصنوعة من صوف الماعز ، وذلك اما تحت وهج شمس ملتهب او فى برد ينخر العظام . وتغسل القابلة جسده الصغير ببول الجمل وترشه بالروث الجاف . ويبقى على قيد الحياة واحد من كل ثلاثة او اربعة اخوة او أخوات ، وكأنه ولد كذلك ليتحدى مصيره الصعب . ويبدأ فى سن مبكرة فى استيعاب دروس الصراع اللاهوادة فيه من أجل البقاء ، ويصلد ارادته ، ويدرك عظمة وتفاهة الانسان فى خضم الصحراء .

ولكن افقر بدوى ، رغم جوعه وظمأه الدائم ، والذى هزم حقا الحاجة وقسوة الطبيعة بعزيمته التى لا تلين — يعتبر نفسه أحسن الناس . وافظع جريمة بالنسبة له هى خيانة الرفيق . ان وفاء البدوى لصديقه وعشيرته وقبيلته لا يعرف الحدود . ويتسم بالشراسة والقسوة مع عدوه ، وتطفو كل عواطفه وانفعالاته على السطح مباشرة ، ويثير اى مساس بشرفه وكرامته غيظه العارم .

ان طبيعة البدوى ، التى أثارت اما اعجاب واما اشمئزاز الرحالة الأوربيين — تقوم على سعيه الجامح الى الحرية . فساكن الصحراء يحترم القوة ويحتقر اى مظهر من مظاهر الضعف . والى جانب ذلك يقدس البدوى المأوى . ورفض المأوى لمن يطلبه يعنى اهدار الشرف .

والبدوى رفيق طريق يتمتع برقة المعاملة ، والذكاء ، وانشراح الصدر . ويقدر البدوى تقديرا كبيرا الرباط الشخصى ، ويحكم على كل شىء من واقع خبرته الشخصية ، ولكنه لا ينسى ، فى الواقع ، أن يزن الفائدة التى ستعود عليه . ويصف فيليبس الرحالة الأمريكى المعاصر البدوى قائلا : « انه بطل فى كثير من الأحوال ، وشيطان اكثر ، ولكنه ليس عبدا ابدا » . والبدوى جشع تجاه المال ، ولكنه جواد بنفس القدر . فليقتسم معك البدوى آخر جرعة ماء ، وآخر حفنة ارز ، وحين يلقى ضيفا غريبا

يقدم له كل ما هو فى أمس الحاجة اليه . ومن الصعب تجاوز البدوى فى ضيافته .

هل من الممكن استخدام الفعل المضارع فى رسم صورة البدوى ؟ الرد بالايجاب والنفى . ففى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية ظل نمط حياة البدو كما كان منذ آلاف السنين التى انقضت . غير أن مفهوم البداوة — بمعنى الحصول على لقمة العيش عن طريق تربية الابل والأغنام — لم يعد له وجود على ساحل الخليج فما هى تلك الارتباطات القبلية تتبدد وقيم النظام الأبوى التى كانت تسود المجتمع القديم نتيجة لتغير ظروف الحياة ، وانتشار العمل بالأجر ، والتعليم والسفر الى الخارج ، وسهولة منال وسائل الاعلام الجماهيرية . ويسير الوضع فى المملكة العربية السعودية فى نفس الاتجاه . ورغم ذلك فان رياح التغيير لم تعصف بعد بالسيكلوجية البدوية ، وبالتقاليد القبلية ، والأباطيل الخرافية، والعلاقات الاجتماعية الخاصة للاقطاع وشبه الاقطاع فى الجزيرة العربية .

كيف يقلم البدوى فى الاندماج فى المجتمع الرأسمالى فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، ومابه من تنافس قاس ، وتسلط المال وتدهور القيم الأخلاقية التى كانت تبدو راسخة ، والتليفزيون ، والاتصال بالأقمار الصناعية ، والسيارات ؟

يعيش السكان الأصليون فى امارات شبه الجزيرة البترولية وفى المناطق الأكثر تقدما فى المملكة العربية السعودية فى عالمين — أحدهما العالم السابق الاقطاعى القبلى ، والآخر عالم عصرى . ويتسم هذا الوضع بعدم الاستقرار فضلا عن أنه وضع مؤقت مرحلى .

وحين نستخدم اصطلاح « اقطاع شبه الجزيرة العربية » ، لا ينبغى أن نضع الشيخ على قدم المساواة مع اقطاعى أوربا فى العصور الوسطى ، كما لا ينبغى أن نساوى بين الفرد العادى فى قبيلة بدوية وبين عبد الاقطاع . ان شيخ القبيلة هو أقرب من الزعيم العسكرى الديمقراطى فى أوربا قبل الاقطاع ، منه الى صاحب اقطاعية واقنان .

كانت علاقات الاستغلال والاخضاع داخل قبائل الرحل أقل تطورا منها فى الواحات ، كما أنها كانت خفيفة الوطأة نتيجة لتضامن القبلى وروح النجدة القبلية . فقد كان أمير الصحراء ، حين يستخدم ابناء قبيلته كقوة عسكرية لنهب السكان المستقرين أو الصيادين ، يرى أن واجبه هو تقسيم جزء من الغنائم أو الدخل المنتظم مع البدو . وبطبيعة الحال لم تكن هذه العلاقات الأبوية تنتشر على العبيد — ذوى الأصل الافريقى عادة — ولا على المحررة رقابهم الذين ظلوا على تبعية شبيهة بالرق بالأسياد ، ولا على الفلاحين ، والقبائل « الحقيرة » .

وحين تدفقت فى الصحراء نافورات الوقود السائل ، صارت الارستقراطية القبلية الاقطاعية تحصل على دخول هائلة من البترول ، لا تختلف من حيث الجوهر (وليس من حيث الاحجام) عن الريع الاقطاعى السابق . وأول ما حث عليه هذا الريع هو بناء القصور التى تتضاءل بجانبها قصور حكايات ألف ليلة وليلة ، ثم بعد ذلك منح الاخوة فى القبيلة مساكن لائقة وغير ذلك من خبرات ، ويقتصر الأمر على الاخوة فى القبيلة وحدهم .

ويمكن ملاحظة كيف بدأت هذه العملية فى دولة الامارات العربية المتحدة التى دخلت عالم البترول متأخرة عن الجميع . فقد بدا لى الكثيرون من الوجهاء المحليين شبيهين بعضهم ببعض. ولا يرجع سبب ذلك وحده الى أنهم تصاهروا منذ مدة طويلة وربطت بينهم صلة القربى خلال قرون على هذه الأرض الضيقة التى لم يكن يطأها الا القليل من الغرباء . فانهم يشبهون بعضهم البعض بحركاتهم السريعة الحادة وعلامات عدم الرضا المرتسمة على الوجوه . فقد كان عالمهم مقيدا فيما سبق بمدارك مجتمع الصحراء الاقطاعى القبلى . وفجأة تدفق البترول ، والذهب ، وجموع الأجانب . وأخذت أسراب رجال الأعمال المهرة والمغامرين — الذين لم يولوا هذه المناطق التى نسيها الله ، أى اهتمام فيما مضى — تتقاطر عليها ، وشعر الشيوخ أنهم موضع خداع مجرد من الضمير ، ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا عمل شىء .

لقد أصبح شخبوط ابن سلطان حاكم أبو ظبى السابق مضغة

على كل لسان فى ملحمة البترول فى الخليج . فقد كانت الامارة تقف فى بداية الستينيات على عتبة واحدة من اكبر القفزات خياليـــة فى تاريخ البترول ، وتدفقت الأموال كالسيل على جيب الأمير . وكان شخبوط رجلا مريبا غير متزن ، يصاب بنوبات من الغضب يرتفـــع أثناءها صوته بزعيق يشبه ولولة الأطفال . وكان الكثير يعتقدون انه فقد عقله . وكان الأمير يرفض التعامل مع الأجانب ولم يكن ينوى انفاق ثروته مفضلا جمع السبائك الذهبية تحت فراشـــه . ولقد ملأ الحجرة الخلفية من قصره الطينى بأوراق النقد من الفئات الكبيرة ، وحين طرد شخبوط ، اكتشفوا أن الجرذان أتت على أوراق نقد قيمتها مليونان من الدولارات على أقل تقدير .

وأمر شخبوط مثير لأنه استثناء ، فلعله كان دون كيشوت الصحراء فريدا فى نوعه ، دون كيشوت قيم المجتمع الاقطـــاعى القبلى البدوية الزائلة ، وهو المجتمع الذى حاول أن يحتفظ «بنقائه» بهذه الطريقة البالغة الغرابة .

والشيوخ والأمراء بشر بمالهم من مواطن ضعف وقوة ، وبما لديهم من مفاهيم عن الخير والشر ، وخيرات الحياة ، والترف ، ونعائم الجنة . لا يستطيعون الصمود أمام اغراءات العالم الحديث الكثيرة والتى ضاعفها فى العقول الخيال الجامح للأساطير القديمة، ويمرون بفترة الافراط فى الانفاق والاسراف سواء على المســـتوى الشخصى أو مستوى الدولة . ففى الأيام الأخيرة من حكم الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية بدأت رائحة الفساد تفوح فى الجو . فقد تقدمت السن بالملك ، ولم تعـــد لديه القدرة على السيطرة على الفساد الذى أخذ يتفشى فى النظام الذى أوجده بنفسه . فقد كان أبناؤه ، وأقاربه ووزراؤه ينفقون الدخول المتزايدة بمعدلات فائقة السرعة . وظهر لدى الوزراء وكبار الموظفين سكرتيرون من لبنان وفلسطين وسوريا كان همهم الوحيد تحـــويل الأموال من خزينة الدولة الى البنوك السويسرية أو الأمريكية أو شراء الممتلكات الثابتة فى بيروت . وكانت البلاد تستورد كميـــات هائلة من العطور المرتفعة الأثمان لدرجة ان أحد التجار اندهش قائلا : « ما حاجتهم الى كل هذه العطـــور ؟ ! من المحتمل أنهم

يستحمون بها » والواقع أن ارستقراطى هذا البلد المتمسك بالأخلاق كانوا يحمون محظياتهم الاوربيات فى العطور وحمامات الشمبانيا .

وحين ارتقى سعود بن عبد العزيز عرش البلاد عام ١٩٥٣ فاق والده . فقد كان حريمه اكثر من حريم ابيه ، أما عملاؤه فجابوا القاهرة وطهران وكراتشى وبيروت يشترون الفتيات (وفى بعض الأحيان الصبية) للارستقراطيين السعوديين . واكتسبت عملياتهم فضائح علنية مما دعا الصحافة فى الشرق الأوسط الى المطالبة بوضع حد لها . وفى الواقع لم يكن هناك مفهوم للميزانية وتوزيع دخول الدولة فى السعودية فى نهاية الخمسينيات ورغم نمو الدخول البترولية الا أن ديون البلاد بلغت أرقاما خيالية ولكن الملك سعود والمحيطين به لم يفكروا فى تخفيض نفقات القصور والسيارات والحريم والطائرات . ولم يتجرأ أحد أن يرفع صوته فى مواجهة فساد القصر . ولم يكن هناك صوت سوى صوت العجوز جون فيلبى باحث الجزيرة العربية المشهور الغريب الأطوار — وكان يعمل فى المخابرات الانجليزية ثم أدان السياسة البريطانية ، والصديق الشخصى لابن سعود مؤسس المملكة — هو الذى حاول علنا أن يزجر الملك الجديد ، فكان جزاؤه الطرد من البلاد .

ويتحدث كولن ماكجرجر الانجليزى ، الذى أصبح مستشارا ماليا للحكومة الكويتية ، عن الموقف فى هذه الامارة فى الخمسينيات : « كنا نحتفظ فى بادىء الأمر بكل الدخول فى خزينة هائلة بمكتبى ، حيث ملأناها بالروبيات الهندية ، والسبائك الذهبية ، وأكياس الجنيهات الاسترلينية الذهبية . وكانت تضم ملايين الملايين . وكان أقرباء الحاكم يأتون ويأخذون الأموال ، والتى كانت تبلغ فى بعض الأحيان مليون روبية ، وكانوا يستاءون جدا حين أصر على التوقيع على ايصال . واذكر أن اخا الشيخ أرسل رسالة ذات مرة — وكان معروفا باسرافه — يطلب مبلغا كبيرا بالجنيهات الاسترلينية الذهبية وريالات ماريا تريزة (عملة فضية نمساوية قديمة تساوى ثلاث ماركات) وأعددت له كيسين كبيرين وأرسلتهما له ، ولكنى أصدرت تعليمات مشددة للحراس ألا يعودا الى دون ايصال . وعاد الحراس بعد ساعة بقصاصة ورق مكرمشة كتب عليها بخط ردىء : « تسلمت كيسين من النقود » .

وكان الشيخ عبد الله أمير الكويت على استعداد أن يدفع مليون دولار سنويا لأقاربه على أمل أن الانسان القادر على صرف النقود بلا حدود لا يستطيع التفكير فى القتل او احداث انقلاب فى الدولة . ولقد اقام احد اقربائه وليمة تعبيرا عن شكره للحاكم ، كانت « النمرة » الرئيسية فى البرنامج بها اشعال النيران فى الأوراق النقدية ذات الفئات الكبيرة . وبعد ذلك تم اهداء الحاكم نموذجا لبرج من ابراج البترول مصنوعا من الذهب الخالص . وفى نفس الوقت كان الضيوف يبتلعون الجمال الصغيرة المشوية والمحشوة بالخراف المشوية على السفود ، والمحشوة بدورها بالكتاكيت والحمام . ولقد فقدت كباريهات بيروت والقاهرة واسطنبول نجومها ، حيث اشتراهن الكويتيون . وبعد ذلك ظهرت موضة الفتيات الشابات من اسر أوربا الغربية « المحترمة » وهو ما كان أغلى ثمنا .

ويمكن رؤية بقايا مظاهر الاسراف المجنونة هذه فى الكويت حتى يومنا هذا ، متمثلة فى القصور الآيلة للسقوط بغرفها المرمرية المليئة بالأثاثات العصرية من أغلى المحال الأوربية .

يبدو أن تلك الأزمنة قد ولت ، وحل محل الحكام السابقين الذين دارت رءوسهم من تدفق الذهب — حكام يفكرون بمنطق أكثر واقعية . ولم يعد الاسراف ظاهرة عامة ، وتبدل فى أحوال كثيرة ليصبح ادخارا ومضاعفة للثروات . غير أن الكثير من الاجراءات التى تقوم بها الدولة والمرتبطة باعتبارات مكانة الدولة — لا تبعد كثيرا عن حد الاسراف ولن نتعرض هنا لمشروع بناء سقف مدينة الكويت كلها واقامة مناخ صناعى فيها ، ولنقدم مثالا أبسط .

مكتب أحد الوزراء فى احدى الامارات الذى لن أذكر اسمه كيلا أسىء عن غير قصد الى هذا الرجل الكريم حسن الطوية . والمكتب من تصميم الخبراء الفرنسيين ، ومنفذ بألوان مذهبة برونزية تسود المقاعد وغلاف الجدران ، والمكتب ، بل وعشرات التليفونات الموجودة على المكتب . وفى الفازة المصنوعة من الكريستال باقة من الورد الطازج المجلوب من شيزار . وكان جهاز التكييف يهمس فى رقة

مصدرا برودة رائعة . واخذ الوزير يحدثنى عن مشروع اقامة محطة قوية للتليفزيون الملون . ولم املك وسألته :

ـ ولكن ما حاجتكم الى مثل هذه المحطة ؟

ـ كيف ماحاجتنا ؟ ! جيراننا لديهم محطة ، وعلينا أن نقيم محطة نحن كذلك .

ـ وما هى خططكم الأخرى ؟

ـ اقامة محطة اذاعة قوتها ٧٥٠ كيلوواط .

ـ الا تكفى بلدكم بسكانه البالغين بضع عشرات من الألوف محطة اذاعة ٢٥ كيلوواط ؟

ـ ولكنا نريد أن يسمعنا العالم العربى كله حتى المحيط الاطلنطى .

ـ ولماذا ؟

وبدلا من الاجابة وجدت نظرة ذاهلة ، بل يبدو فيها الاستياء .

الأنظمة

كانت الكويت ، والبحرين ، وقطر ، وأبو ظبى محميات بريطانية حين بدأ فيها عصر البترول . ولذلك ترك الموظفون الاستعماريون ووجهات نظرهم ، بصماتهم على كل من السياسة المالية للامارات والتحولات الادارية التى شهدتها تدريجيا . ومن التافه الاعتقاد أن الانجليز كانوا يرون النظام الاقطاعى القبلى أكثر اشكال الحكم ملاءمة ، فقد كانوا على قدر كبير من المرونة ، وجدوا فى البحث عن النظام السياسى الاجتماعى الذى من شأنه أن يتفق ومصالحهم . وفضل الموظفون الاستعماريون الاحتفاظ بالحكام الاقطاعيين ، الذين تمتد جذورهم الى الاقلية المسيطرة ، وذلك فى شكل حلفاء خاضعين لهم ، مع العمل على تحديثهم وتكييفهم مع متطلبات عصرنا ولو ظاهريا . فقد كانوا يريدون درء خطر المفاجآت الاجتماعية والسياسية عن من هم تحت وصايتهم من جهة ، وعن

مصالحهم الخاصة أولا وقبل كل شيء . غير أن « المفاجآت » وقعت لا محالة ، اذا أخذنا فى الاعتبار الارتباط المتبادل بين الاحداث التى شهدها الشرقان الأوسط والادنى فى الخمسينيات ، وتأثير التحولات الثورية فى مصر وسوريا ، ناهيك عن العراق ، على الوضع فى الخليج العربى .

لا جدال أن اقرار الأمن والاستقرار فى الرمال المتحركة فى الجزيرة العربية ، هو بطبيعة الحال ، الشغل الشاغل لحكام الدول البترولية . فلديهم جيوش وقوات أمن — كثيرة العدد طبقا للمقاييس المحلية وتتكون من البدو ، ومن العبيد السابقين أو من المرتزقة ، كما أن لديهم نظاما للبوليس السرى والمباحث . ولكنهم لا يبنون استقرار انظمتهم على القوة العادية فقط لا غير . فان حكام الدول البترولية دائبى البحث عن سند اجتماعى له وزنه ، ولهذا الغرض يوجهون انظارهم الى ابناء قبائلهم . وتجرى هذه العملية بصورة بديهية ذلك لأنهم لا يفتقرون الى بعض قيم المجتمع القبلى المترحل ، كما تجرى بصورة واعية اعتمادا على مشورة الخبراء الأجانب . ولقد قال أحد السفراء الغربيين فى احدى دول الخليج الكبيرة لمراسل مجلة « يونيتد ستيتس اندنيوز ورلد ريبورت » الأمريكية : « ان أهم شيء بالنسبة للحكام هو الايهام بأن الجماهير تحصل على نصيبها من الثروة الجديدة » والواقع أن فئات معينة من السكان يصل اليها بعض الثروة .

ويتمتع السكان الأصليون « بوظائف مربحة » فى الجهاز الحكومى والادارى ، والتجارة ، كما يتمتعون بالمدارس والمستشفيات المجانية وغير ذلك من الخيرات الاجتماعية ، والشقق الرخيصة . والتليفونات فى الكويت مجانية ، أما تلاميذ المدارس فيتلقون وجبات غذائية من مؤسسة تنتج عشرات الآلاف من الوجبات فى اليوم . والعشر فقط من الكويتيين الأصليين الذين يتقاضون مرتبات — من العمال ، اما الباقون فهم موظفون . واذا تغلغلنا الى الاعماق وراء أصل العمال الكويتيين ، يتضح لنا انهم فى غالبيتهم ابناء الجزر الأكثر اضطهادا من السكان وهم الصيادون وصيادى اللؤلؤ والفلاحين ، ولكنهم لسوا على الأطلاق من قبائل « الدم الأزرق » البدوية . واستقر البدو الرحل بكل سرور خلف عجلة قيادة سيارات الأجرة بدلا

من الجمال على سبيل المثال . ولم يكن من الصعب عليهم استبدال قيادة القوافل بقيادة السيارات كما أن البدو اتجهوا للخدمة فى البوليس والجيش ، وحصلوا على مناصب وظيفية فى الوزارات حيث يكادون يحصلون على مرتبات لا توازى الوظائف هذه . وأصبحت الهجرة المصدر الرئيسى للقوة العاملة ، ولكنا سوف نطرق هذا الموضوع فيما بعد .

لم يكن الوضع واحدا فى كل دول الجزيرة العربية . فقد انعكست فى الوضع الفوارق فى مستويات الدخول البترولية ، والعادات والتقاليد ، وعدد السكان ، ومستوى التعليم ، ودرجة تطور الاقطاعية .

بدات الدخول البترولية تتدفق على البحرين فى بداية الثلاثينيات ولم يكن يتلقى أمير البلاد واسرته سوى ثلثها فقط . اما الباقى فكان يوزع لتمويل مختلف المشروعات ، والطرق ، وادخار احتياطى مالى فى البنوك الانجليزية بطبيعة الحال . غير أن نمو الدخول البترولية توقف مؤقتا فى الخمسينيات واخذ عدد السكان فى الزيادة ، وطرأ وضع اخذت تزداد فى ظله متطلبات العشيرة الحاكمة بصورة اسرع من امكانيات تلبيتها . ويرجع أحد اسباب تطور الحركة الديمقراطية فى البحرين اكثر من غيرها من الامارات لا الى ارتفاع مستوى التعليم فيها فحسب ، بل الى استحالة تحييد الجدل السياسى عن طريق الدخول البترولية المتزايدة .. وبالاضافة الى ذلك جعل الطابع التجارى للبحرين واتصالاتها الواسعة مع العالم الخارجى — السكان اكثر وعيا من الناحية السياسية كما جعلت هذه الظروف الاحتفاظ بالاستبداد الاقطاعى الصرف أمرا صعبا .

وفى ديسمبر عام ١٩٧٢ اجريت فى البحرين أول انتخابات ، وتم تأسيس مجلس دستورى . وفى ديسمبر عام ١٩٧٣ أجريت انتخابات مجلس الأمة ، وأصبح عدد من التقدميين أعضاء فى هذا الجهاز التشريعى بالبلاد . وكتبت صحيفة « فاينانشيال تايمز » تقول حول مجلس الأمة البحرينى : « لا يعتبر البرلمان البحرينى ، بطبيعة الحال ، مثالا للديمقراطية البرلمانية بمعنى الكلمة . فالحاكم عيسى ابن سالمان آل خليفة هو السلطة العليا التى تحكم البلاد . ويشغل أفراد أسرته المناصب الرئيسية » . ويصعب الشك فى عدم

معرفة الصحيفة المذكورة لهذه الشئون معـرفة تامة . ورغم أن الحاكم احتفظ بالسلطة الفعلية بين يديه ، كما أن له حق الاعتراض على أى قانون ، الا أن مجلس الأمة استطاع التدخل فى عمليـة اتخاذ القرارات . ولذلك تحول المجـلس الى مركز للنشـاط السياسى ، ومنصة ترتفع عليها أصوات نقد سلطة المسيطرين . ولم ترغب أسرة الأمير فى الاقتناع بهذه الظاهرة ، ولذا تم حـل « البرلمان » البحرينى عام ١٩٧٥ ، واعتقل الأعضاء اليساريون به .

ويعكس تكيف السلطة فى الكويت مع الدخول البترولية الجديدة كيفية تحول الملكية الاقطاعية القبلية تدريجيا ، وكيفية ظهـور اشكال لكيان الدولة اكثر عصرية . فلا يمكن اغفال أن مفهـوم « موظف بالدولة » كان غريبا على التقاليد المحلية ، والنظام السياسى الاجتماعى . ولكن ما أن تبدل الجيل فى الكويت حتى اكتسبت البلاد الصفات الظاهرية للدولة العصرية ، بل أصبح بهـا برلمـان . وصارت الانتخابات حقيقة قائمة ولكل رجل كويتى يزيد عمره عن ٢١ عاما ويعرف القراءة والكتابة الحق فى الترشيح لها والانتخاب وكان معنى ذلك أن الذين أدلوا بأصواتهم فيها عام ١٩٧٢ من بين ٧٥٠ الف نسمة من السكان ٤٠ الف فقط . واشتكت المعارضة من اجتلاب البدو من الصحراء فى الدوائر التى كان من الممكن لهـا الحصول على اغلبية الأصوات ، وادلى البدو بأصواتهم لصالح مرشحى العشيرة الحاكمة .

ويذكر الصحفى الانجليزى ستيفنز فى كتابه « الحد الجديد للعرب » ان « السلطة فى البلاد (الكويت) فى يد الطبقة المسيطرة المكونة من الأسرة الحاكمة برئاسة الشيخ . وتضم هذه السلطة بعض ممثلى التجار بالتعيين . غير أن السلطة مقيدة الى حد ما ، فضلا عن أنها متوازنة نتيجة المعارضة فى مجلس الأمة ونمو الطبقة المتعلمة والصحافة التى تتمتع بحرية أكبر من مثيلتها فى الكثير من الدول العربية » . ولنترك اصطلاح « الطبقة المتعلمة » لضمير الصحفى . ولكن الحقيقة أن انتشار التعليم ونمو مستوى الوعى السياسى يجبران حكام الكويت على اتباع سياستهم بمزيد من المرونة ، آخذين فى اعتبارهم المعارضة المحتملة . ورغم أن البلاد تخلو من الاحزاب

السياسية الا أن بعض السياسيين ذوى النفوذ الراديكاليين الاتجاه يتعاطفون مع الحركة الاشتراكية العربية الشاملة .

ولا تزال الامارات الأخرى فى الخليج ـــ عدا البحرين تفضل عدم الدخول فى تجربة الأجهزة المنتخبة .

فاق الاستبداد الاقطاعى لسلطان مسقط سعيد بن تيمور كل الحدود التى تعرفها الجزيرة العربية . واصبح المبدأ المسيطر عليه هو محاربة اى شكل من اشكال التقدم الاجتماعى ، ومقاومة التغيرات مقاومة شرسة . « كان السلطان يريد أن يمنع القرن العشرين من اصابة القرن الخامس عشر ، الذى حبس فيه شعبه ، من العدوى » هذا ما اعترف به احد الموظفين الانجليز لمراسل صحيفة « لوموند » الفرنسية . فقد حظر السلطان الصحف والاذاعة والسينما ، وكرة القدم ، واستيراد السيارات ، ولعب الاطفال . وكان ممنوعا على العرب فى سلطنته ارتداء الملابس غير العربية ، والنظارات ، وحمل الشماسى ، وتصفيف الشعر وفقا للموضة . وبهدف تجنب « العواقب المهلكة » للتعليم ، قيد السلطان عدد المدارس بثلاث ، وعدد التلاميذ بألف واحد فقط . وماذا كانت النتيجة ؟ فقد بدأت فى السلطنة الثورة التى تراسها الجبهة الشعبية واصبح النظام على حافة الهاوية .

ورتب الانجليز سيناريو لانقلاب فى الدولة ، تم نتيجة له طرد السلطان من البلاد ، وتنصيب ابنه قابوس على العرش . وقابوس خريج كلية سانت هيرست العسكرية المميزة فى لندن ، كما انه على معرفة بمتطلبات العالم الحديث . والغى « الحاكم الليبيرالى » اكثر اجراءات الحظر ، التى فرضها ابوه ، مقتا ، وبدأ يبنى المدارس والمستشفيات لاخماد الحركة الثورية فى المحافظة الجنوبية الغربية بالسلطنة . والجدير بالذكر أن قابوس لم يمثل دور الليبيرالى سوى القليل من الزمن ، حيث أعلن صراحة انه من المعجبين بهتلر ومن المعروف أنه بدأ فى اقتناء الاشياء الشخصية ، التى تركها هتلر ، نظير مبالغ طائلة من المال . واحتفظت بريطانيا فى عمان لا بقواتها وحدها ، بل وبكل أدوات التأثير المباشر فى تشكيل

الحكومة واتخـــاذ القرارات . وظل الجيش ، الذى يتـــكون من المرتزقة بصفة أساسية ، تحت امرة الضباط الانجليز .

وكانت ثورة ١٩٦٢ فى اليمن بمثابة انذار خطير للكثير من النظم المحافظة فى شبه الجزيرة العربية ولا سيما العربية السعودية . وفى نوفمبر ١٩٦٤ أجتمع الامراء السعوديون وعلماء الدين وقرروا تنحية الملك سعود وتنصيب اخيه غير الشقيق فيصل ملكا على البلاد . واضطر الملك سعود ، الذى كان قصره محاصرا من القوات الموالية لفيصل ، الى الاستسلام ومغادرة البلاد . وكان فيصل يختلف عن أخيه من حيث المظهر الخارجى ، ووجهات النظر ، والسلوك . فقد كان يرى ضرورة فرض نظام دقيق للاشراف المالى فى البلاد ، واجراء التغيرات . وكان فيصل ، وهو نائبه للملك ممثلا لابيه فى الحجاز ـــ التى تعتبر من المناطق الرئيسية بالمملكة حيث توجد مكة والمدينة ثم أصبح وليـــا للعهد ، وشغل منصب رئيس الوزراء أكثر من مرة .

وتصف صـــحيفة « فاينشيال تايمز » الوضع فى العـــربية السعودية بعد عشر سنوات من ذلك الانقلاب قائلة : « لا تزال العربية السعودية بلدا محافظا الى ابعد حدود المحافظة ، واقطاعيا الى حد كبير . وهذه الدولة اقرب مثل للثيوقراطية فى عالم اليوم . فدستورها « القرآن » ، وقانونها الشريعة ، اما الأخلاقيات فتفرض دون هوادة باستخدام البوليس الدينى للعصا . لقد غيرت الدخول البترولية وجه المملكة العربية السعودية ، أكثر مما غيرت روحها وعقلهـــا » .

وكان فيصل يقوم بالمناورة فى حذر شديد بين علمـــاء الدين العجائز ، والذين يرى الكثيرون منهم أن الأرض منبسطة ، وبين السعوديين الشبان قليلى الصبر ، والذين يعودون من الخارج باعداد متزايدة حاملين شهادات مختلف الكليات والجامعات . وكانت الأسرة المالكة ، والتكنوقراط المتعلمون فى الحكومة والجيش ، والارستقراطية البدوية فى الصحراء وعلماء الدين ـــ القوى الرئيسية التى تؤثر فى سياسة المملكة العربية السعودية . ومما يسهل الوقوف عليه أنهم

جميعا يمثلون اتجاهات والوانا واشكالا من طبقة اقطاعية واحدة بكل طابعها المميز فى الجزيرة العربية .

وكان الملك فيصل يقوم بدور ما يمكن أن يسمى رئيس مجلس ادارة الأسرة السعودية المكونة من الفى فرد . وكانت هذه الأسرة هى المجموعة السياسية الدائمة والوحيدة فى البـــلاد . وهناك مجموعة ضيقة من ٥٠ أميرا تسمى « صانعة الملوك » . وما أن ارتقى الملك فيصل العرش حتى عين أخاه غير الشقيق خالد نائبا أول لرئيس الوزراء ووليا للعهد وتم تقسيم المناصب الرئيسية الأخرى فى الدولة بين اخوة الملك . فأصبح تركى ابن عبد العزيز نائبا لرئيس الوزراء ، وصاحب النفوذ الأمير فهد بن عبد العزيز وزيرا للداخلية ، وسلطان بن عبد العزيز وزيرا للدفاع ، ونواف بن عبد العزيز مستشارا للملك . كما تم تعيين حكام المحافظات والمدن الرئيسية من بين أفراد الأسرة المالكة . والى جانب ذلك أضفى فيصل أهمية جديدة على مجموعة التكنوقراط الشبان المتعلمين والتى تعتبر فى بعض الأحيان « الحكومة الثانية » فى المملكة .

واكد كل من الأمراء الشبان ، وأفراد الأسرة المالكة الأكبر ســـنا فى كل مناسبة احترامهم للقبائل البدوية ، وكثيرا ما يختفى أمير من العاصمة لعدة أسابيع بقصد « الصيد » . ولكن الواقع انه يقوم بزيارة القبائل البدوية ويوزع عليها الهدايا والمعونات . كما أن رئيس الدولة يستطيع أن يستمع فى جلسات المجلس الملكى الى شكاوى أى بدوى حافى القدمين بكل اهتمام ، ويتخذ القرار لصـــالحه .

لم يكن الجيش الملكى يعتبر سندا مأمونا بما فيه الكفاية للنظام . فقد تم ابعاد الجيش عن المدن الرئيسية ، بل وحرمانه من الوصول الى مخازن الأسلحة ، وذلك بعد المؤامرة التى كانت تنوى احداث انقلاب فى الدولة والتى اشترك فيها عـــام ١٩٦٩ موظفو الدولة وضباط الطيران ذوو الاتجاهات الجمهورية . وفى عام ١٩٧٢ صـــدر العفو عن بعض الذين نجوا من بين المشتركين فى المؤامرة ، واطلق سراح ١٥٠ شخصا .

وكان سند السلطة الحقيقى هـو الحرس الوطنى المجهز تجهيزا جيدا الذى يتكون من أبناء اكثر قبائل « الدم الأزرق » ولاءا . ولدى الحرس الوطنى احتياطى كبير لا ينضب من البدو . ويقوم الحرس الوطنى بحماية اهم المؤسسات الحكومية وآبار البترول . ويؤكد وضع قائد الحرس الوطنى الأمير عبد الله انه أحد ثلاثة أو أربعة فى الحكومة ممن يثق فيهم الملك ثقة خاصة .

ولم يضمن هيكل السلطة فى السعودية العربية وما حققه من استقرار داخلى مؤقت بها — لم يضمن حياة الملك فيصل نفسه .

فقد كان الملك يستقبل فى صباح يوم ٢٥ مارس عام ١٩٧٥ أقاربه وشيوخ القبائل ورجال الدين بمناسبة المولد النبوى . واقترب منه فيصل بن مساعد ابن أخيه وبدلا من تحيته وتهنئته أخرج مسدسا وأفرغ خزينته فى جبين عمه . وحين اقتحم الحرس الصالة ، كان الملك قد فارق الحياة .

وقطعت اذاعة الرياض برامجها المخصصة للمولد النبوى ، وأذاعت نبأ اغتيال فيصل . وذكر البيان الأول أن الأمير فيصل بن مساعد مجنون ، غير أن الأطباء بعد عدة أشهر أقروا أنه سليم عقليا ، وحكمت المحكمة الشرعية على القاتل بالاعدام .

وبعد صلاة الجمعة يوم ١٨ يونيو أطاح الجـلاد أمام أعين الآلاف برأس فيصل بن مساعد بثلاث ضربات من السيف ، تفصل بين كل ضربة وأخرى دقيقة بهدف اطالة العذاب .

من الذى كان وراء بن مساعد ؟ لقد ظل هذا سرا . والبعض يخمن أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لها ضلع فى هذا الأمر ، ذلك لأنها لم تكن راضية عن تمرد الملك العجوز . كما لم تستبعد فكرة الثأر ذلك لأن أخا للأمير الشاب كان قد قتل عام ١٩٦٦ أثناء محاولة للاستيلاء هو ومجموعة من المتعصبين على محطة التليفزيون، التى كانت تذيع برامج لا تتفق والاسلام من وجهة نظرهم . وعلى كل حال فلم يكن فيصل أول من اغتيل فى الأسرة السعودية .

وتمت عملية تغيير السلطة داخل الأسرة المالكة فى هدوء نسبى وتم تنصيب الملك خالد ملكا للسعودية ، أما الرجل القوى فهد ، فقد عين وليـــا للعهد ونائبا أولا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية . واحتفظ الأمير عبد الله بمنصبه الهام كقائد للحرس الوطنى ، كمـــا اصبح نائبا لرئيس الوزراء .

ولا تزال لا توجد حتى الآن الدلائل التى تشير الى أى تغير جوهرى فى البلاد . فالبوليس السرى يواصل عمله ـــ كسابق عهده بنشاط خاصة بين أوساط الطلبة والتى تعتبر مكمن الخطورة . والرقابة مفروضة على المراسلات وأحاديث التليفون والتنقل . وتؤكد احدى البعثات الفرنسية التى زارت المملكة العربية السعودية أن البوليس السرى « هو الجهاز البوليسى الوحيد الذى يعمل جيدا » .

وتخضع الدعاية لرقابة شديدة ، كما انها موجهة لخدمة النظام وتبدو أخبار جلسات الحكومة على النحو التالى تقريبا : « قام مجلس الوزراء بدراسة كل الموضوعات الضرورية الواردة فى جدول الأعمال واتخذ الاجراءات الضرورية » .

ويضطر السعوديون الى ضبط أجهزة الترانزستور على المحطات الأجنبية وشراء المجلات المصرية والكويتية لمعرفة معلومات أكثر عن العالم بما فى ذلك أخبار بلدهم .

وتخـــلو البـــلاد من حقوق الاضراب ، والاجتماع ، وتنظيم التنظيمات وعندما يحـــل موعد أى من الصـــلوات الخمس يقوم المطوعون ـــ وهو بوليس خاص يشرف على اتباع الفروض الدينية ـــ بالمرور فى الأسواق والشوارع لاجبار الناس على « أداء واجبهم » .

ويتخلل الدين الاسلامى ـــ وان كان فى صورة غير حديثة ـــ حياة دول شبه الجزيرة كلها ، وان كان تأثيره أضعف بعض الشىء فى البحرين والكويت . وموضوع الدين هذا موضوع متعدد الوجوه ، ولذا فلننظر فى وضع المرأة فقط كمثال .

يرى سكان واحات ومدن الجزيرة العربية عامة أن للمرأة مكانة

فى المجتمع أقل من مكانة الرجل ، ذلك لأن هذه هى ارادة الله ، ويستندون فى ذلك الى القرآن . ولقد جاء فى القرآن ان المراة لا ترث سوى نصف ما يرثه الرجل مع توافر الظروف الواحدة . كما تساوى شهادة الرجل فى المحكمة شهادة امراتين . ويرى الجميع أن المراة عرضة للغواية ، ولذا ينبغى على الرجل مراقبتها مراقبة شديدة . وكانت معرفة القراءة والكتابة بين العربيات حتى وقت قريب استثناء نادرا . والمراة المثالية — وفقا للتصورات المحلية ، هى المتواضعة الخجولة ، ربة البيت ، التى تتحاشى الاتصال بالرجال ما عدا الأقارب ، والتى لا تختلط كثيرا حتى مع نساء الأسر الأخريات . والعمل الرئيسى للمراة هو خدمة الزوج والأطفال والقيام بالأعمال المنزلية . أما مكان المراة العربية فهو البيت ، وليس السوق أو اجتماع عام . ومن الطبيعى أن المقصود بكلمة « البيت » ليس الأسرة بمفهومها الضيق ، بل مجموعة أسرية كبيرة العدد .

واذا كانت المراة ذات مبادرة ، فانها تستطيع أن تفتح دكانا فى بيتها ، وهذا اذ لم يمانع الرجال فى أسرتها ، ولكنها لا تستطيع البيع الا للنساء فقط . ويقوم الرجال فى الجزيرة العربية بشراء الجزء الأكبر من المشتروات . وحتى اذا كانت المراة بالغة الثراء وتريد القيام بمشروع ما ، فيجب أن يكون لها وسيط من الجنس الآخر .

ومن غير الممكن استئجار العربية للعمل كخادمة ، ذلك لأن هذا يعنى أنها ستقوم بخدمة الرجال الآخرين . وكان هذا الدور مقصورا فى الأسر الثرية على العبيد من النساء قبل الغاء الرق . وعندما تم فيما بين الثلاثينيات والأربعينيات تحرير الكثير من العبيد النساء — والسبب الرئيسى كان اعتبار السادة أن الاحتفاظ بهن باهظ التكاليف — أصبح البغاء الوسيلة الوحيدة للحصول على لقمة العيش .

وينبغى على المراة حين يطلقها زوجها بحلف يمين الطلاق — أن تغطى وجهها على الفور بخمار ، وجمع حاجياتها والعودة الى منزل والدها .

ويقع عبء معيشتها على رجال أسرتها ، لا على زوجها

السابق . ولكن اذا كان لديه طفل منها ، فانه يكون بمثابة تأمين اجتماعى لها لانه ينبغى عليه الاهتمام بهناء الأم .

ومن البديهى أن انتشار التعليم ، ودخول التليفزيون البيوت ، وازدياد عدد الأجانب الذين يعاملون المرأة معاملة مختلفة — كل هذا يؤدى الى تلاشى العادات القديمة بسرعة غير أن هذا لا يمس سوى جزء ضئيل من السكان . وتعتبر البحرانيات أكثر النساء تقدما فى منطقة الخليج ، فالكثيرات منهن يتلقين قسطا من التعليم ، ويشغلن مناصب السكرتيرات وغير ذلك من مناصب . ورغم ذلك فالرجال وحدهم فى البحرين هم الذين يقومون بالأعمال التقليديه بالنسبة للمرأة فى البلاد الأوربية مثل جارسونات المطاعم ، والعمل على التليكس والتلغراف .

ولقد بدأت المملكة العربية السعودية ، حيث كانوا يحاولون بعناد الاحتفاظ بوضع المرأة السابق — تنفق الملايين من الدولارات لتعليم الفتيات . ولكنها تنفق فى الوقت نفسه مبالغ لا تقل عن ذلك لفصل الفتيات عن الفتيان . ففى جامعة جدة تحضر الطالبات المحاضرات مثلما يحدث فى جميع جامعات العالم ، ولكنه من غير المسموح لهن بالجلوس فى قاعة واحدة مع الفتيان . فتجلس الفتيات فى جزء خاص بهن من الجامعة ويتابعن المحاضرات بالتليفزيون . وحين يقمن بالدخول الى المكتبة ، يحظر على الطلبة الدخول . ويحظر على المرأة والرجل فى السعودية العمل تحت سقف واحد . ولذا فان أبناء الجنس الخشن يشغلون مناصب السكرتارية . ومن غير المسموح للمرأة بقيادة السيارات ، كما أنها لا تستطيع العمل مضيفة فى طائرات الخطوط الجوية السعودية .

لم تطأ قدما الشيخ ناصر ابن حماد مدير ادارة مدارس البنات — وهو قاض سابق — يوما ما عتبة المدارس التى يتحمل مسئولياتها فانه يصدر تعليماته للمدرسات أما بالتليفون أو بصورة مكتوبة . فان الاعتبارات الاخلاقية والدينية تمنعه من الالتقاء بهن شخصيا .

التوتر الرأسي

أخذنا نقترب بالسيارة على الاوتوستراد الرائع الممتد من الدوحة عاصمة قطر ويشق الصحراء القاحلة ـ من مصنع السماد ، الذى يتلألأ بطلائه الفاتح . وبدا المصنع سرابا صناعيا فى عالم ما قبل التاريخ . وسألت مدير المصنع اويستن لينده النرويجى الأصل :

ـ كيف تسدون حاجتكم من الكوادر للمصنع ؟ فأجاب :

ـ تقضى القوانين القطرية بأولوية القبول للعمل للسكان المحليين ، ثم يليهم عرب الخليج ، وعرب الدول الأخرى ، وأخيرا الأجانب على اختلاف جنسياتهم . وحتى الآن يعمل فى المصنع مصريون ، وفلسطينيون ، ولبنانيون وباكستانيون وهنود . وربما يحل محلهم القطريون الذين نعدهم هنا فى المصنع .

ـ وهل يستغرق التعليم فترة زمنية طويلة ؟

ـ ما بين ستة أشهر وعدة سنوات .. فنعلمهم فى بادىء الأمر اللغة ، ذلك لأن كل المستندات والخدمة الفنية باللغة الانجليزية ، وبعد ذلك نعلمهم المهن التخصصية . وعلى كل حال فان الوظائف فى المصنع أكثر مما يستطيع القطريون شغله الآن وفى المستقبل . وعلاوة على ذلك ، فان الكثيرين منهم سيتركوننا بعد تعلم اللغة ذلك لأنهم سيحصلون على وظائف جيدة فى المؤسسات الحكومية ومن المحتمل أن يبقى لدينا جزء منهم ، ولكنى لست واثقا من ذلك ومن الممكن ايجاد بعض المتخصصين الضروريين للمصنع فى امارات الخليج الأخرى من بين الذين كانوا يعملون فيما سبق فى مجالات الصناعات البترولية . كما يوجد هنا نجارون ممتازون ، ذلك لأن سكان هذه المنطقة كانوا يبنون سفنا خشبية رائعة . ومن الطبيعى ان لا يوجد هنا عمال آلات أو غيرهم من عمال التخصصات الأخرى .

ـ وما هى علاقة القطريين بالانضباط الانتاجى ؟

ـ هذه مشكلة هامة ومعقدة . ان العمل لدينا يتطلب الدقة والاهتمام بالعمل واتباع الورديات . ان البدو يتميزون بالروح الذاتية بطبيعة الحال . ولقد واجهتنا مثل هذه المشكلة فى الترويج بالنسبة للصيادين واحتاج تحويل الصيادين الى عمال متخصصين الى حوالى عشر سنوات . فقد كانوا يتسمون بحب حرية التصرف ، والروح الذاتية ، ولم يكونوا يرغبون فى الخضوع للنظام والانضباط . والأمر يتطلب هنا اكثر من عشر سنوات واستطرد اويستن لينده قائلا :

ـ ان الوضع الاجتماعى للعامل هنا غير واضـــح . ونحن معنيون بان يكون العاملون فى المصنع من القطريين ، ذلك لأن هذا يعنى المزيد من الاستقرار ، وخفض تسرب القوة العاملة ، كما أن هذا يؤدى الى خفض النفقات . فنحن نقوم الآن بتشغيل عمال اجانب ، ولذا ينبغى علينا أن ندفع لهم سنويا قيمة رحلاتهم لزيارة اوطانهم . ويتلقى القطريون الآن العلم فى الجامعات الأجنبية لشغل المناصب العليـــا للفنيين والمهندسين . ولكن سينقضى وقت طويل حتى يتمكنوا من شغل بعض مناصب الفنيين والمهندسين .

ـ الا يعوق التعصب والتقاليد البالية العمل فى الصناعات العصرية ؟

ـ ان سكان ساحل الخليج يتعاملون مع العالم بقدر أكبر ويستوعبون كل ما هو جديد بصورة أسهل ، وأقل تقيدا بالاعتبارات الخيالية ، وذلك بالمقارنة بسكان المملكة العربية السعودية على سبيل المثال . فانهم متقدمون على العربية السعودية بحوالى عشرين عـــاما .

ـ هل هناك توتر اجتماعى فى الامارة ؟

ـ نعم يوجد ، ولكنهم يســـتطيعون التصرف مع رعاياهم ، ويعطون لكل فم لقمة ، ويحاولون ضمان امتيازات لعمالهم .

ـــ ما هي النظرة للمال هنا ، مثلا ، لدى الذى يحصل على هذه « اللقمة » ؟

ـــ هذا ســـؤال صعب . فقد انهالت الرفاهية المادية على الناس مرة واحدة . ولا يغير الكثيرون منهم نمط حياتهم ، بل يبقون فى الخيام ، ولكن الذى يجد عليهم هو اقتناء سيارات « اللاندروفر » وأجهزة الراديو ، وأجهزة التليفزيون الترانزستور . ولا تزال العادات والتقاليد القديمة راسخة الجذور .

لقد ظهرت الكوادر الحديثة فى امارات الخليج العربى والمملكة العربية الســعودية من خلال العمل عشرات الســنين فى مواطن الصناعات البترولية وحدها . ولا شك أن مصنع الأسمدة الكيماوية فى قطر نتيجة للاتجاهات الجديدة الآن .

لم يكن لدى عــرب الجزيرة العربية المهــارات الادارية والانتاجية الضرورية للحياة العصرية رغم ارتفاع مستوى الاستهلاك ولكن ينبغى أن يكون هناك من يحرك عجلة الانتاج الكبيرة ، التى تشهدها امارات الخليج العربى والمملكة العربية السعودية ، ومن يستخدم التكنولوجيا التى لم يخترعها سكان شبه الجزيرة ، ويصلح السيارات الأمريكية واليابانية ، وأجهزة التليفزيون والتكييف ، ويبنى البيوت والاستادات والمصانع ، والموانىء ، ويحفر الخنادق ، وينزح القمامة ، ويحمل الصناديق ، ويدير مزارع الدواجن ، ويدرس الرياضيات ، ويطبع الصحف ، ويرسم لوحات الاعلانات هذا هو ، عادة ، نشاط المهاجرين الدهماء .

لقد جلب الانفجار البترولى عنصرا بشريا نشطا من جميع انحاء الشرقين الأدنى والأوســط الى امارات الجزيرة العربية . ويعمل الفلســطينيون واللبنانيون والمصريون والســوريون وبعض الأوربيون كمهندسين وفنيين وعمال مهرة ، أما العمال غير المهرة فأغلبهم يمنيون ، عراقيون ، ايرانيون ، باكستانيون هنود ، عمانيون والذين كانوا منبوذين حتى وقت قريب بالمقارنة بجيرانهم « الفائقي الثراء » . وغالبية السكان فى كل الامارات ـــ عدا البحرين وسلطنة

عمان طبعا — من المهاجرين . كما أن هناك عددا كبيرا من النازحين من المملكة العربية السعودية الأكثر سكانا .

ولقد بلغ الدخل القومى لأبو ظبى عـام ١٩٧٤ حوالى ٢٧ الف دولار بالنسبة للفرد الواحد من السكان ، بما فى ذلك المهاجرين . وكان من الممكن أن يتضاعف هذا الدخل ويفوق عشر مرات المؤشرات المثيلة فى اكثر الدول الرأسمالية تطورا ، لولا تجميد انتاج البترول . ولا توجد على الارجح ، دولة تجمع بين مثل هذا الدخل الضخم ، وقلة عدد السكان ، وما من دولة تحتاج لتدفق القوى العاملة ، والمعارف المستوردة مثلما تحتاج أبو ظبى ، وما من دولة تعيش مثل هذا التحول المفاجىء من الفقر الى الثراء الذى لا يعرف الحدود ، مثلما تعيش أبو ظبى .

ويمكن سماع اللغات الاردية والفارسية والسندية اكثر من اللغة العربية فى شوارع مدينة « العين » الصغيرة مركز واحة البوريمى . ولقد اشتهرت هذه المنطقة فى بداية الخمسينيات حيث أصبحت مسرحا لصدام مسلح بين المملكة العربية السعودية والانجليز (كانت عمان وأبو ظبى آنذاك محميتين بريطانيتين) . وتمخضت تلك الاحداث عن تقسيم الواحة بين هاتين الأمارتين . والجدير بالذكر أن المهاجرين فى أعماق الصحراء الآن اكثر عددا من السكان الأصليين . ولنفرض أنهم جاءوا مؤقتا بقصد الكسب ، ولكن الكثيرين سيحلون محلهم . فالذين يقومون بالخدمة فى فندق هيلتون الفاخر — وهو من بين سلسلة معروفة عالميـا من الفنادق المرتفعة الثمن — هم الهنود وحدهم . ولقد اشتكى أحد الصحفيين اللبنانيين قائلا : « لقد زرت مسقط وأبو ظبى والدوحة ووجدت انهم لا يفهمون اللغة العربية فى الفنادق فى كثير من الأحيان . والمثير للعجب أن اللغـة الانجليزية تستخدم أكثر من اللغة العربية فى الوزارات » .

لا يوجد فى أبو ظبى طبيب واحد من السكان الأصليين . فأغلب الاطباء قادمون من الهند والباكستان . كما لا يوجد هنا طيار واحد من السكان المحليين لقيادة الطائرات النفاثة من طراز « ميراج » والتى تم شراؤها من فرنسا ولذا يقودها طيارون باكستانيون . وهناك نقص فى عمال البناء ، وشركات البترول فى حاجة دائمة للقوى

العاملة . وبطبيعة الحال يفضل مواطن ابو ظبى فى شغل اية وظيفة اذا كان لديه المؤهلات الضرورية لهـا ، ولكن الواقع انه ما من احد من السكان الأصليين لديه مثل هذه المؤهلات .

كان عدد سكان ابو ظبى حين اكتشف البترول ٢٠ الف نسمة . اما الآن فيربو عدد سكانها على المائة الف . ولا يختلف الوضع كثيرا فى دولة الأمارات العربية المتحدة بصفة عامة . وتدرك الحكومة ما ينطوى عليه هذا الوضع من عواقب وخيمة ، ولذا فانها تبحث عن مخرج له .ومن بين الاجراءات التى تتخذ فى هذا المجال منح الجنسية لابناء عمان المجاورة بعد اقامتهم ثلاث سنوات فى البلاد . والجدير بالذكر أن المستشارين الأجانب يرون استحالة حدوث اضطرابات وصعوبات سياسية بين المهاجرين نتيجة تفرق كلمتهم . وفى هذا الصدد قال لى أحد الموظفين الانجليز :- « ان العراقى والايرانى يستطيعان العمل معا ، ولكنهما لن يتفقا أبدا على عمل سياسى مشترك . ويصل الهنود والباكستانيون الى هنا بهدف الكسب وحده ، ويرغب الكثيرون منهم فى البقاء أكثر من خمس وست سنوات . ولذا فان أبو ظبى ستكون قادرة على السيطرة على الموقف » لا شك أن هذا الرأى موضع جدل وسوف نعود اليه فيما بعـد .

ويتشابه الوضع فى دبى وقطر . ويشكل النازحون فى البحرين اقل من خمس السكان ، ويغادرها الكثيرون للعمل كفنيين فى الامارات المجاورة . ولكن النازحين يشكلون أكثر من ثلث عدد السكان القادرين على النشاط الفعال اقتصاديا ، كما يمثلون أكثر من النصف فى المجالات الفنية .

ومما يثير الدهشة أن المملكة العربية السعودية يزيد اعتمادها على استجلاب القوى العاملة . ولقد تم حظر الرق فى السعودية عـام ١٩٦٢ . غير أن جمعية محاربة الرق فى لنـدن أكدت منذ وقت قريب أنه لا يزال هناك بقايا من الرق فى العربية السعودية . وذكرت مجلة « موند ديبلوماتيك » الشهرية أن « عدد العبيد كان فى المملكة العربية السعودية ٧٥٠ الف عـام ١٩٥٦ » . غير أن هذا الرقم مبالغ فيه اذ ضمت المجلة الباريسية الى العبيد الذين

حررت رقابهم وذريتهم الذين ظلوا اشباه عبيد . ويعمل الآن فى الأعمال غير الفنية فى المملكة اليمنيون ، الذين يتراوح عددهم بين ٧٥٠ الفا ومليون يمنى . ويقف اليمنيون فى بورصة العمل فى مستوى العبيد السابقين ذلك لانهم يعملون فى مجالات العمل الشاقة ، ويعملون اعمال نظافة ، وحمالين ، وعمالا فى الموانىء وفى البساتين ، فضلا عن الخدمة فى البيوت . ويقول أحد السكان الأصليين لمراسل مجلة « موند ديبلوماتيك » : « انهم فى منتهى السعادة لانهم جاءوا الى هنا . فانهم يحصلون على عمل ونقود وهو ما لا يوجد لديهم فى وطنهم . انهم سعداء حقا ، بل وهناك من يثرى من بينهم » . ويجد اليمنيون تسهيلات فى الحصول على تأشيرات الدخول ، والعمل ، كما لا يدفعون أية ضرائب ، ولا تنطبق عليهم قوانين العمل ، وهى القوانين السائدة فى المملكة العربية السعودية والتى تتسم بكثير من الغموض . ويشتهر بعض اليمنيين ، خاصة ابناء حضرموت من اليمن الجنوبية — بمبادراتهم التجارية مما جعلهم يجمعون ثروات كبيرة .

فما سبب مثل هذا الوضع فى العربية السعودية ؟ يرجع الأمر أولا وقبل كل شىء الى أن الجزء الأكبر من سكان البلاد من البدو الذين لا يجتذبهم الا عدد محدود جدا من المهن العصرية . واذا حدث ولم يوجد لهم اماكن فى الوزارات ، أو الجيش ، أو الحرس ، الوطنى ، فانهم يتلقون اعانات كبيرة على كل حال . ويؤكد الكثير من الباحثين أن النظام الملكى لا يريد ببساطة بناء طبقة بروليتارية من السعوديين ، فى الوقت الذى ترى فيه حكومة صنعاء فى هذا الوضع مخرجا من البطالة التى تعانيها اليمن الشمالية .

ويتنافس السعوديون — مثلهم مثل امارات البترول فى الخليج — فى الحصول على القوى العاملة الجاهزة من الدول العربية الشمالية فالمدرسون والمهندسون والأطباء والموظفون الفنيون من غير السعوديين بصفة أساسية . وكان دخول المصريين الى المملكة العربية السعودية مقيدا فترة طويلة بسبب الخلافات السياسية بين القاهرة والرياض ، أما الآن فقد رفع الحظر وتدفق سيل الآلاف من المصريين الذين يعتبرون من أرخص العمال المهرة فى العالم العربى .

كان يوجد فى المملكة العربية السعودية والامارات ، كما ذكرنا من قبل نظام شبه طائفى يقسم القبائل الى قبائل «الاشراف» ذات « الدم الأزرق » والقبائل التابعة والدنيا ، هذا بجانب العبيد والمحررة رقابهم . ولا تزال فئات السكان التى توجد فى الدرج الأسفل من السلم الاجتماعى شبه الاقطاعى ، قريبة فى وضعها من المهاجرين « الدهماء » المفتقرين الى الحقوق .

ويصعب اندماج « دهماء » الجزيرة العربية فى « مجتمع النعيم الشامل » . فالقادرون والمتعلمون من المهاجرين لا يستطيعون شراء الأراضى أو العقارات او افتتاح مشروعات أو محال . فان عليهم مشاركة « الاشراف » مع دفع مبلغ كبير للكفل نظير استخدام اسمه . وهذا من شأنه أن يزيد امكانيات اثراء الأسر الارستقراطية . ولا يحصل على الجنسية الا عدد قليل من النازحين .

وخير دليل على ذلك ما ذكره لى أحد كبار المهندسين الفلسطينيين فى احدى شركات البترول حيث قال : « الواقع أن مرتبى كبير جدا ، ولكن الحياة مرتفعة التكاليف كذلك . واذا طردت من العمل غدا ، فسأبقى صفر اليدين اللهم الا من اعانة ترك العمل . وليست لدى أية حقوق لا فى معاش ، ولا فى ايجاد عمل جديد ، ولا فى الحصول على مسكن » .

ولقد قال أحد الفلسطينين بمرارة للباحث الانجليزى موسلى : « مما يثير الألم فى النفس أن يرى الانسان شبانا لا يعملون فى أى مكان ويبعثرون المال هنا وهناك . ولكن الأسوأ من ذلك تعاليهم . كنت دائما اعتقد أن الاعتزاز بالنفس الى حد الكبرياء كان من بين عيوبنا نحن الفلسطينيين . ولكنا متواضعون بالمقارنة بالكويتيين . انهم لا يسمحون لنا بشراء الأراضى وافتتاح مشروعات دون شريك كويتى ، والأدهى من ذلك انهم لا يعترفون بجهدنا فى بناء دولتهم . انهم يلتحقون بالكليات ويعودون حاملين دبلومات الفنون الجميلة وعلم الاجتماع ، ولكنهم لا يستطيعون التفريق بين الصامولة ومسمار القلاووظ ، والأدهى أنهم ينظرون الينا من عل لا لشىء الا لأن لديهم المال » .

ويذكر مراسل صحيفة « نيويورك تايمز » أن عـــدد المرضى المحتاجين الى علاج فى المستشفيات النفسانية قد زاد ٤٠ مره فى الفترة من ١٩٥٦ حتى نهاية ١٩٧١ . ويرى الأطباء النفســـانيون أن الكثير من الأمراض النفسية والعصبيه يرجع لا الى التغيرات الحافلة وحدها ، بل والى أن الكويتيين يعتبرون انفسهم جزءا من الصفوة .. فهم على ايمان عميق بانه ليس من المهم تماما أن يعمل الكويتى أولا يعمل . كما انهم لا يعيرون أهمية لمـــا يرتكبـــونه من اخطاء . وينظرون الى النازحين الذين حصلوا على الجنسية الكويتية منـــذ عهد قريب كمواطنين من الدرجة الثانية . أما غير الكويتيين فينظرون اليهم كبشر أقل درجة .

ويحصل الكويتيون ، الذين يقل دخلهم من العمل عن الفى جنيه فى العام ، على اعانة خاصة من الحكومة . ولكن الكثير من العمال غير المهرة المهاجرين يشقون نظير أقل من ٣٠٠ جنيه فى العام دون امل فى اى نوع من الاعانات . وتوجد فى الصحراء خارج حدود المدينة العصرية مساكن غير الكويتيين المقامة من المعـــدن ، والذين لن يقدموا ابدا من الخدمات ما يتيح لهم امكانية الحصـــول على جنسية هذه الدولة . فانهم يعيشـــون بين بخر البيوت المتهبـــة الخانق فهى مقامة من الواح الحديد القديمة ، وبالليل ينير بيوتهم وهج النيران المنبعثة من ابراج الغاز . وليس لديهم أجهزة تكييف أو ما يمكن أن يحميهم من العواصف الرملية . وتحيط المنـــاطق السكنية الفقيرة هذه بأبو ظبى والدوحة ودبى .

وآفاق التكامل بين الدهماء والأشراف والمسساواة بينهم فى الحقوق السياسية غير واضحة المعالم . وفى هذا كتب ستيفزنز الصحفى الانجليزى الذى ذكرناه آنفا ـــ يقول : « تكمن الخطورة الكبرى التى تهدد الاستقرار السياسى فى الفوارق الكبيرة للغاية بين فئات السكان هـــذه . ولذا كلفت الحكومة الكويتية جهـــاز التخطيط التابع لها باعداد سياسة جديدة من شانها اتاحة الامكانية للنظر فى مشكلة الحصول على الجنسية » .

ويمكن للأجانب الحصول على الجنسية الكويتية بعد اقامة ١٥ عاما بها من الناحية النظرية فقط . ولكن الواقع أن هذا القانون

قد تم تجميده بعد حرب ١٩٦٧ حين تدفق سيل جديد من الفلسطينيين على الامارة . وحتى الأجانب ، الذين منحوا الجنسية ، ليس لهم الحق فى التصويت فى الانتخابات أو شغل المناصب الهامة فى الدولة . وتخشى الكويت أن يكون منح حق الجنسية دون قيود للنازحين ، خاصة للنازحين من الدول العربية التقدمية — من شأنه أن يتيح الفرصة لهؤلاء النازحين لتغيير هيكل الدولة الأمر الذى يعتبر غير مقبول لكل من الحكومة ، و « الاشراف » المحليين . كما أن هناك جانبا آخر فى هذا الموضوع : فمن السهل تحويل عدم رضا السكان الأصليين عن الأنظمة القائمة ، وتوجيهه ضد النازحين . ولا تزال حاضرة فى الأذهان مطالبة عضو مجلس الأمة اليسارى أحمد الخطيب بتطبيق امتيازات العمال الكويتيين على كل العمال العرب فى الكويت . وتصدى « الاشراف » لفكرته هذه .

ويقوم أصحاب الأعمال ببث الانقسام بين صفوف العمال عن عمد . فقد كان عمال البترول ، على سبيل المثال ، يؤثرون ، كفئة منظمة من الطبقة العاملة ، فى بقية السكان بمواقفهم البطولية. الا أن انتاجية العمل العالية جدا ، وضآلة الانفاق على القوى العاملة فى تكاليف البترول ، وتدفق البترول بكميات كبيرة من الآبار — كل هذا أتاح الامكانية للشركات الأجنبية لتحسين ظروف عمل وأجور عمالها بدرجة كبيرة ، وتمييزهم عن بقية السكان ، وخلق واحات من النعيم والاستقرار ، وتحقيق مستوى مرتفع نسبيا من المعيشة . ويحاولون جعل عمال البترول ارستقراطية عمالية يمكن الا تهتم بمشاكل عمال اليومية ، والحمالين ، وعمال شركات المقاولات التى تعمل من الباطن فى تنفيذ طلبات شركات البترول الرئيسية . « ان عدم وجود مشاكل — هو مشكلة فى حد ذاته » — هذا ما وصف به رئيس اتحاد النقابات الكويتية وضع عمال البترول. ويقول رئيس الاتحاد :

— يضم الاتحاد أربع عشرة نقابة يبلغ عدد أعضائها حوالى عشرة آلاف عضو . وفى الاتحاد عدد كبير من غير الكويتيين ، ونحن نطالب باشتراكهم فى كل الأمور . غير أن أصحاب العمل يبحثون عن أيد عاملة رخيصة ويفضلون استخدام المهاجرين ، وخاصة المهاجرين بصورة غير شرعية حيث يمكن دفع أجر أقل لهم ،

وعدم ضمان اية اجراءات اجتماعية لهم . كما يحاولون ادخال التمييز العنصرى بين الكويتيين وغير الكويتيين . ويناضل الاتحاد ضدهم . ولكن هناك بعض الكويتيين الذين لا يرغبون فى التعامل مع النازحين » .

ان التوتر الاجتماعى فى امارات شبه الجزيرة العربية يجرى اولا وقبل كل شىء لا على مستوى افقى — اى ليس بين جمهرة السكان الأصليين « الاشراف » والارستقراطية القبلية الاقطاعية، بل على مستوى راسى اى بين « الاشراف » و « الدهماء » . واذ كان المحامون والمهندسون والاقتصاديون ، والأطباء والموظفون — اى المهاجرون المتعلمون يهمهمون فقط فى حق « الاشراف » ، فان الكثيرين يعتبرون العمال غير المهرة « الدهماء » هنا مصدرا قابلا للانفجار .

ولقد علق أحد الديبلوماسيين الغربيين ، ممن عملوا فترة طويلة فى امارات الخليج — لمراسل « يونيتد ستيتس نيوز اندورلد ريبورت » قائلا : « ان الخطر فى الخليج ينبع من الأفكار الاشتراكية والماركسية . ومن غير الممكن مواجهة هذه الأفكار الجذابة . فان جذورها تمتد بين أفقر سكان الخليج ، والطبقة المتوسطة العربية ، حيث يشعر الناس انهم لا يحصلون على نصيبهم . وينبغى على الحكام أن يقدموا للناس الدلائل على أن أمانيهم ستتحقق . وينبغى على الشيوخ أن يعلموا انهم لن يستطيعوا وقف الأفكار بواسطة المدافع » . ويستحيل أن نصف هذا الديبلوماسى الا بالواقعية .

وخير دليل على صدق هذا الكلام — الكفاح المسلح فى ظفار . لقد بدأ « دهماء » الخليج والفقراء المضطهدون الثورة فى المحافظة الجنوبية الغربية من عمان . انهم هؤلاء الذين غادروا عمان — وطنهم الفقير المتخلف بمستوى العصور الوسطى ، وتوجهوا للعمل فى الامارات البالغة الثراء ، ثم عادوا الى وطنهم من جديد . ولقد تحدثت مع زعماء ومناضلى الجبهة الشعبية لتحرير عمان ووجدت أنهم مروا جميعا بمدرسة الاستغلال الرأسمالى وذاقوا الاحتقار ، وعرفوا الفقر فى امارات الخليج الغنية . وكان تحرك « الدهماء » فى هذه الامارات مباشرة أمرا صعبا لاعتبارات سياسية

عسكرية من جهة ، وجغرافية من جهة أخرى ، ولذا رفعوا السلاح فى سلطنة عمان التى تعتبر أضعف حلقة فى سلسلة امارات شبه الجزيرة العربية حيث يقبض الفقر على الصدور أكثر من أى مكان آخر ، وحيث لا يعرف الاستعمار الرحمة ، وحيث تتميز سلطة السلطان بأسوأ سمات الاستبداد الاقطاعى . ولم تكن فى عمان آنذاك دخول بترولية ، ولم تظهر فئة « الاشراف » الراضين بالحياة . وكانت النتيجة أن حربا أهلية طويلة تمزق السلطنة ، ويزيد من تعقدها التدخل الأجنبى . وأود الاشارة مرة أخرى الى أن جماهير « الدهماء » المضطهدة حقوقهم ذوى الأصل العمانى القادمين من امارات شبه الجزيرة العربية البترولية — هى التربة المغذية لهذه الحركة .

الكويت عام ٢٠٠٠

هل يدرك « الاشراف » ، أو حتى من يتمتع ببعد نظر منهم ، وضعهم هذا ؟ اتجرأ وأؤكد الاجابة بنعم . فقد انتشرت فى الكويت منذ عدة سنوات اشاعة تزعم أن شركة البترول تبالغ فى بياناتها عن احتياطى الوقود السائل ، وان الآبار ستنضب خلال حوالى ١٥ عاما فى ظل معدلات استخراجه السريعة . وسيطر الذعر على الجميع . وأصدرت شركة « كويت أويل كومبانى » تصريحا مهدئا ، ولكن قل من صدقه من أعماق قلبه . وأخذ الكثيرون يفكرون فى مستقبل بلدهم وأنفسهم .

كنت قد شاهدت فى ذاك الوقت مسرحية للهواة فى أحد مسارح الكويت تحمل عنوان « الكويت عام ٢٠٠٠ » حيث تصور المسرحية بلدا بدون بترول ، فقد نضبت الآبار ، وتوقف سيل الذهب ، واختفت ضروريات وامكانيات وجود مدينة كبيرة فى الصحراء المتوهجة قيظا .. وأخذت تتهدم المبانى والطرق وتتعطل السيارات ، وتنهار محطات ازالة ملوحة مياه البحر ، وتتعطل أجهزة التليفزيون والتكييف لعدم وجود ما يمكن دفعه للنازحين من ذوى الكفاءات فيضطرون الى مغادرة البلاد .. ويعلو الصدأ كل شىء ، ويسود

القنوط والهلاك . وعندئذ يبدأ « الاشراف » الكويتيون فى العودة الى نشاطات الأجداد — تربية الابل والأغنام والماعز ، وصيد السمك والغوص وراء اللؤلؤ .

ينبغى أن ينضج حتى ولو جزء من المجتمع كى يسخر من نفسه بهذه الطريقة . فقد كانت المسرحية الساخرة تتحدث عن استحالة العودة الى الوراء . وكان العرب الذين يفكرون تفكيرا واقعيا فى الجزيرة العربية يدركون أن نعيم حياة « الاشراف » تحت السيل الذهبى للعائد البترولى سينتهى ان آجلا أو عاجلا ، وعندئذ تبدأ التحولات والطوفانات الاجتماعية . ولكن هذه البلاد يمكن لها ان تنجو اذا ما كان لديها كوادرها الخاصة واقتصادها المستقل عن البترول .

تحاول دول الخليج بناء كوادرها الخاصة من المتخصصين ببذل الباهظ من النفقات ، وتقديم ما هو فوق الامتيازات لمن يتعلم . فحتى المملكة العربية السعودية زادت من انفاقاتها على التعليم خلال الـ ١٥ سنة الأخيرة ١٥ مرة ، رغم أن المدارس لم تستوعب بعد كل الأطفال وخاصة البنات . لقد زرت جامعة الكويت حيث يقوم بالتدريس أساتذة أجانب ، وزرت المدارس الفنية المهنية فى قطر والشارقة والبحرين . وظروف الدراسة هنا حسنة ، بل ممتازة فى بعض المناطق . فماذا ستكون النتيجة ؟ ومن الذى سيتمتع بالمكانة الاجتماعية الأكثر احتراما ، وبالمرتب الأفضل .. هل هو العامل الماهر فى مصنع للكيماويات أو صاحب الدكان الصغير ، أو صاحب الورشة الخاصة ، المهندس أو الموظف ؟ ليست هناك اجابة حتى الآن على هذه الأسئلة .

وكلما أمعن عرب الجزيرة العربية النظر فى ثروات أراضيهم ، التى لا تعوض وهى تحترق فى صمت عبر فوهات أبراج البترول ، يزداد حديثهم عن التصنيع ، واقامة مجالات من الصناعات الكبيرة موجهة للتصدير . لقد تمخض عن الاقتصاد الاستهلاكى لدول الخليج ظهور ورش اصلاح يدوية ، وصناعة للأسمنت ومواد البناء محدودة الطاقة ، ومزارع دواجن ، ومزارع لزراعة الخضروات باستخدام المحاليل المغذية للنباتات . ولقد ظلت صناعة انتاج

البترول فترة طويلة هى المجال الصناعى العصرى الوحيد ؛ وبعد ذلك ظهرت مصانع تكرير البترول . ولقد ذكر لى عبد الرحمن العتيقى وزير الماليه فى الكويت قائلا :

ـ نحن الآن نزيد طاقات تكرير البترول . ولكن استراتيجيتنا ترمى الى تطوير الصناعات الكيماوية .

وحين يتحدث العتيقى ، فانه مسئول عن كل كلمة يقولها . ورغم أنه ليس من العشيرة الارستقراطية الحاكمة ، الا أنه ارتفع منصبه بفضل العلم والعقل والمبادرة العملية . ويتملقه شركاؤه فى المفاوضات مازحين ، بأنهم على استعداد لاسناد منصب مدير احدى شركات « الشقيقات السبع » اليه .

ويخطط الكويتيون لانتاج الأسمدة ، والأسمنت ، والبلاستيك والزجاج ، واطارات السيارات ، والألمنيوم والصلب بهدف التصدير . ولكن رأس المال الخاص المحلى يشتغل بالنشاط الصناعى على مضض ، حيث يفضل الاستثمار فى الاراضى والتجارة ، حيث سرعة التداول وضخامة الأرباح . وتتولى الدولة تمويل المشروعات الصناعية ، وفى كثير من الأحيان لا يستطيع أحد تحمل هذا العبء سواها . وأقامت الكويت مجمعا صناعيا فى الشعيبة بتكاليف ضخمة ، ثم اشترت تدريجيا الحصة الأجنبية فى أسهمه . واخذ المجمع الصناعى يحقق خسائر على امتداد ثمانى سنوات ، ولم يحقق أرباحا الا بعد رفع أسعار المنتجات الكيماوية والأسمدة . ولا يزال نصيب مجمع الشعيبة فى الدخل القومى ضئيلا .

فى عام ١٩٧٦ يسكن زئير مشاعل ابراج البترول فى جزيرة داس وتنطلق ناقلة غريبة الشكل فى رحلة الى طوكيو تستغرق خمسة عشر يوما . وتحمل الناقلة الغاز الطبيعى بعد تحويلة الى سائل . وتشهد الجزيرة أحد أكبر مشروعات تحويل الغاز الطبيعى الى سائل فى العالم حيث تبلغ قيمته حوالى مليارين من الدولارات . وتشترك فى المشروع شركة «ميتسوى» وشركة « بريتش بتروليوم » وشركة « كومباني فرانسيز دى بترول » وحكومة أبو ظبى التى اعلنت أنها تنوى زيادة حصتها . وتتعدى طاقة هذا المشروع مليونى

طن من الغاز السائل . ولكن مهما بلغت العمليات التكنولوجية لتحويل الغاز الى سائل ، وبغله من حداثة وتعقد الا أن تصديره ليس سوى نوع من تصدير الوقود .

وفى المملكة العربية السعودية تنوى مجموعة من الشركات الأمريكية والألمانية الغربية واليابانية اقامة مصنع للصلب بطاقة من ٣ ملايين حتى ٥ ملايين طن فى العام . ومن المقرر استيراد الحديد الخام للمصنع من البرازيل على ناقلات خاصة سوف تفرغ حمولتها من البترول اثناء العوده فى الولايات المتحدة الأمريكية . كما يجرى التخطيط لاقامة مصنع لانتاج الاثيلين ، ومصانع لتحويل الغاز الطبيعى الى سائل . ولكن ليس هذا سوى خطط فقط لأن الصعاب جمة ، والمال وحده لا يقرر كل شىء .

تقول صحيفة « نيويورك تايمز » : « تبدأ المملكة العربية السعودية من الصفر فى الواقع . فباستثناء شركة « أرامكو » التى تعمل فى المحافظة الشرقية ، وشركة الطيران السعودية المملوكة للدولة ، لا يخرج النشاط الاقتصادى المعاصر فى البلاد عن مصنع غير كبير للصلب ، ومصنع لتكرير البترول ، ومصنع للأسمنت وآخر لازالة ملوحة مياه البحر » . هذا ما قيمت به الصحيفة الأمريكية اقتصاد السعودية فى الوقت الراهن ، وبالمناسبة ، فانها تقييم كذلك للنشاط الأمريكى فى المملكة على امتداد اربعين عاما .

ولا تزال المملكة العربية السعودية رغم ازدياد ثرواتها ، مملكة اقطاعية متخلفة فى كثير من النواحى . فتحيط الأكواخ السكنية بعدد من مدنها الرئيسية ، لم تجد الا بضع طريق تشق الصحراء ، كما أن البضائع كانت مكدسة فى جدة — التى تعد ميناءها الرئيسى — مما يحتم نقل البضائع الهامة عن طريق الطائرات ، وحين تصل يتم التفريغ يدويا وسط مظاهر اللا انضباط . ان التخطيط للمشروعات الكبيرة شىء ، وتنفيذ الخطط شىء آخر . وتصف مجلة «نيوزويك» هذا الوضع فى أكتوبر ١٩٧٤ قائلة « يبلغ عدد الصفوة الفنية فى السعودية اليوم الفين وخمسمائة فنيا ، تلقوا تعليمهم فى الخارج . وهناك نقص شديد فى العنصر البشرى فى المجالات الرئيسية . ويضج وزير التخطيط نظير بالشكوى قائلا : « ان أشد صداع

أعانى منه ، هو عدم الفعالية الانتاجية والبيروقراطية » . وكان قد انتهى من اعداد برنامج لتطوير قيمته ٧٠ مليار دولار يستهدف النهوض بالمملكة الصحراوية المتخلفة فى القرن العشرين » .

ان التفتت وقلة عدد السكان فى دول منطقة الخليج يجعلان من مفهوم « الاقتصاد المستقل » مشكلة . ولا شك أن العربية السعودية تملك أكثر الآفاق ملاءمة فى هذا المجال ، رغم أنها متخلفة عن الامارات لسنوات عديدة . فمن الممكن أن تظهر فيها فى ظل المناخ الاقتصادى والاجتماعى المناسب زراعة متطورة ، رغم أن الأرض المزروعة الآن لا تشغل سوى $\frac{1}{5}$ من مساحتها الضخمة ولا تغطى الزراعة وتربية الحيوانات سوى اقل من ٢٪ من اجمالى المنتج القومى .

وكانت البحرين — حيث بدأ انتاج البترول قبل الدول الأخرى — أول من ادرك فى المنطقة أن آبار البترول ليست ابدية ، ولذا بدأت توسع قاعدتها الاقتصادية . ورفعت الحكومة القيود المفروضة على خروج رءوس أموال وأرباح الشركات الأجنبية ، والغت ضرائب الدخل عليها ، والضرائب الجمركية المفروضة على استيراد المعدات وتصدير السلع . ولقد اثمرت هذه الاجراءات الممكنة فى ظل ظروف دولة متناهية الصغر ذات موقع جغرافى مقيد . ومن الممكن رؤية اكوام سبائك الألمنيوم الفضية اللون فى ميناء سلمان — وهو ميناء جديد فى المدينة . ورغم أن مصنع الألمنيوم — الذى يعتبر من اكبر المصانع فى العالم — مملوك للشركات الأجنبية ، الا أن راس المال البحرينى يشارك فيه . وتخلو جزر البحرين من البوكسيت ، ولكن احتياطيات الغاز — هذه الطاقة الرخيصة — ضخمة . ويتم استيراد الألومنيا من استراليا .

ويحاولون فى البحرين جعل البلاد مركز الاتصالات فى حوض الخليج . وكان مطار البحرين حتى عهد قريب أحدث مطارات المنطقة ويستقبل المطار بمبناه الأسود الفاحم الذى يشبه العمارة فى الفضاء ركاب عشرات الرحلات الجوية فى صالاته المكيفة الهواء .

وبالقرب من المنامة تتوجه راحة الرادار نحو قمر الاتصالات

الصناعى الطائر فوق المحيط الهندى . ومن الممكن الاتصال تليفونيا من البحرين بتكساس أو طوكيو فى عدة دقائق . ويفضلون فى بريطانيا ارسال برقيه بالتليكس لمندوبيهم فى البحرين ، كى يقوم هؤلاء بالاتصال بهم تليفونيا . ولقد قال لى احد رجال الأعمال فى المملكة العربية السعودية فى لهجة تشبه المزاح : « ان اسرع وسيلة للاتصل بالخارج من الرياض هى ركوب الطائرة والسفر الى البحرين والاتصال بالتليفون ثم العودة الى الوطن » . ان التجارة المعاصرة تتوقف على فعالية الاتصالات التليفونية ولذا فان مركز الاتصال البحرينى يعود على البلاد بدخل ثابت .

ويجرى توسيع ميناء سلمان ، وتقام فيه احواض لاصلاح ناقلات البترول العملاقة ، وتقام فنادق جديدة . ولكن هناك من ينافس البحرين الآن . فجاراتها الأكثر ثراء تقيم مطارات حديثة من حيث الاعتداد ، ومن حيث الاعتبارات الاقتصادية . ولقد اقيم فى دبى مركز للاتصالات الكونية ، كما يجرى فيها كذلك بناء احواض لاصلاح الناقلات العملاقة التى لم تظهر فى الطرق البحرية بعد ، والتى تصل حمولتها الى مليون طن .

ان الوضع والنشاط الاقتصاديين لدول الخليج ليسا متماثلين ولذا يصعب التعميم . ولنتخذ دبى مثالا للدلالة على هذه الحقيقة .

المهربون يستخدمون التليكس

تشتهر دبى بأنها مركز للتجارة والتهريب ، وكنت قد سمعت عنها حكايات عجيبة حين كنت فى العراق وافغانستان واليمن . وعلى ذلك فلا يعتقد القارىء أن المهربين المعاصرين فى الخليج العربى لا يشبهون قراصنة العصور الوسطى الذين يضعون عصابة سوداء على اعينهم وحلقة ذهبية فى فتحة الأنف او فى الاذن اليمنى .

كانت معرفتى بدبى « وبالرجال الناجحين » فيها قد بدأت

حين كنت فى قطر فى فنـــدق « الواحة » (وازيس) الذى يعمل المصريون والسودانيون بالخدمة فيه . ويرى المرء من صالة الفندق العاصمة القطرية الدوحة وارصفة الميناء الجديدة حيث عمليات التفريغ لا تهدأ بين الهرج والمرج . وبالقرب مدينة ـــ بل الاحرى ليست مدينة ، بل موقع بناء شاسع المساحة محفور به شوارع وبيوت وطرق واسعة . وفى صالة فندق « الواحة » بدا الضجر على اثنين من السادة . كلاهما يرتدى نظارة سوداء ، وكلاهما يرتدى قميصا أبيض ورباط عنق عريضا يتمشى مع الموضة ، وكلاهما يحمل حقيبة سمسونيت . وبدا أن احدهما رجل مولد يجمع بين الدم العربى والباكستانى ، كثيف الشعر ، عظيم الفكين ، تبدو اسنانه بيضاء قوية ، ويعكس مظهره العام الطمأنينة وقوة الشكيمة ، ولكن حركة يديه المضطربة تكشف عن توتره العصبى . اما الآخر فرجل فرنسى ممتلىء الوجنتين ، أصلع الراس ، رطب الفم ، تعلو الحمرة انفه ، متورد الخدين تورد المحب لشرب الخمر ، مترهل الكرش ، ومحب للمزاح (حيث كان يقـــول : لقد انفقت الكثير لتكوين هذا الكرش ، فلماذا اذن ازيله ، ثم أخذ يقهقه) .

كان كلا السيدين يريد الاحتفال بنجاح احدى الصفقات ، ولكن قوانين الدوحة تحرم الخمور . وحين عرضت عليهما زجاجة الفودكا التى كنت احتفظ بها فى حقيبتى ، دبت الحياة فى جسدهما بصورة واضحة . وتبادلنا الحديث . وأخذ أحدهما يحدثنى بكل سرور عن مهنته . كلاهما مهرب . فمهنتهما هذه منتشرة على نطاق واسع منذ القدم فى الخليج ، ولذا فانهما لا يعتبران اخفاءها أمرا ضروريا ، أو ربما ارادا التباهى لا اكثر ولا اقل امام الصحفى العابر ، والذى لا يشكل أية خطورة على عملهما . أخذ العربى يحدثنى قائلا :

ـــ اذا لم تزر دبى ، فلن تفهم شيئا . هل تعتقد أن دبى عبارة عن مستعمرة سكنية صغيرة للصيادين ؟ لا بالمرة . عليك أن تمر بشوارعها الرئيسية ، فستجد مبانى حديثة رائعة . لقد اقيمت كل هذه المبانى قبل بداية استخراج البترول . ومن اين الأموال ؟ من التهريب ويوجد فى دبى أكثر من خمسين فرعا للبنوك الأجنبية ، أى قدر ما يوجد تقريبا من البنوك فى بيروت . فما الذى تشتغل به بجانب العمليات المتصلة بالبترول ؟ تشتغل بالتهريب . وترتبط شركات « الشقيقات السبع » اليه .

مكاتب رجال الأعمال بكل ارجاء العالم بواسطة التليكس عبر قمر الاتصالات الصناعى . وتعقد صفقات بمئات الآلاف من الجنيهات بالاتفاق الشفوى . تريد الاتجار بالمنسوجات ، أو الماكينات ، أو الالكترونيات ؟ الباب مفتوح .. تريد الاتجار بالسلاح ؟ الباب مفتوح كذلك .. أو الاتجار بمطابع للشيوعيين أو الاخوان المسلمين ؟ الباب مفتوح ايضا . ولكن هناك شرطا واحدا هو ان تحفظ لسانك والعهد ، واذا نقضت العهد مرة واحدة فعليك أن تنتظر زيارة ليلية من المسلحين بمسدسات كاتمة للصوت .

— اذن التهريب مرتبط بالمخاطرة ؟

— ان كبار التجار لا يخاطرون . فلدى المرء رأس واحد . ان الذين يخاطرون هم الذين يعبرون الحدود ويشتبكون مع حرس السواحل الهندى أو الايرانى ، هذا اذا لم يكن قد تم رشوتهم مسبقا . واذا حدث أمر طارىء ينبغى التصرف بسرعة وكأن كل شىء كان ملحا وذاب فى الماء ، فان المحيط مليىء باسماك القرش . ويوجد فى دبى الآن ميناء عصرى تمتد ارصفته عدة كيلومترات ومكدس بكل ما يتخيل المرء ، حيث يجرى تفريغ مختلف السلع . ولكن عمليات اعادة التصدير رسميا ، والتهريب تجرى على السفن الشراعية من طراز « دو » . لا يهمك أن منظرها غير جميل ، ولكن فى بعضها محركات تصل قوتها الى ٢ — ٣ آلاف حصان ويمكن لها أن تسير بسرعة قد تصل الى سرعة زوارق الطوربيد . كما يمكنك أن تتصور كذلك أن مدفعا رشاشا ثقيلا مخبأ فى مكان ما بمخزن السفينة .

— وهل العرب هم الذين يقومون بكل هذه العمليات ؟

— العرب بصفة رئيسية . وقد تم طرد عصابة من المهربين من ذوى الأصل الباكستانى من مسقط منذ عهد قريب ، واستقرت فى دبى ، واتحدت مع المهربين المحليين بعد عدد من الاحتكاكات . وتدعمت الروابط بين مهربى دبى والهند وباكستان .

— وهل يقتصر التهريب على السلع المنقولة بحرا ؟
— لا على الأطلاق . ان التهريب الرئيسى هو « المخفى »

اى تهريب الذهب والمخدرات . ويهرب الذهب بصفة اساسية الى الهنـــد وباكستان وسرى لانكا حيث اعتاد الناس تحويل مدخراتهم الى حلى للنساء ، ولذلك فان ثمن الذهب هناك أعلى من ثمنه فى السوق العالمى (لقد تم ادخال ٢٦٠ طنا من الذهب فى دبى عـــام ١٩٧٠ وفقا للبيانات الرسمية ـــ المؤلف) ولم يكن هذا النوع من التهريب مشكلة فيما مضى حيث كانت الروبية الهندية تتداول فى الامارات ، ثم بعد ذلك بدات الامارات تستخدم روبية مختلفة اللون مع الاحتفاظ بالقطع النقدية الصغيرة المستخدمة فى الهند . وعندئذ بدات القطع النقدية الصغيرة تختفى من السوق الهندية ، حيث كانت تنقل الى هنا بعشرات الأطنان . وتحول المهربون الآن الى الدولار والجنيه والين . والتهريب عملية ثنائية الاتجاه ، حيث ينقل المهرب سلعة ويعود بغيرها . ولقد تم تهريب كميات كبيرة من الفضة من الهند واذكر اننى رأيت ذات مرة فى مطار دبى اكواما كاملة من سبائك الفضـــة ، ولكن الهنـــد ، كما أعلم تنتج الفضة بكميات محدودة ، فى الوقت الذى تستخرج فيه الصين كميات كبيرة . وهذا يعنى أن الحلقة تكتمل فى مكان ما فى الصين أو هونج كونج .

لا شك أن محدثى كانا يتسمان بالشجاعة . فقد أخرج كل منهما اثناء وداعهما ، بطاقة زيارة تحمل اسمه ومدها لى . فقلت :

ـــ هل استطيع ذكر اسميكما فى الصحف ؟

وتبادلا النظر وقالا :

ـــ لا .. من الأفضل عدم ذكر الأسماء ، سنواصل عملنا دون ما حاجة الى الدعاية !

كان من الممكن الا أصل الى دبى واستطيع التحقق من صدق كلام « الرجلين الناجحين » هذين ، لولا وكالة « ادريس » السياحية الكويتية . لقد أعد لى الشاب اللبنانى المجامل فيكتور ـــ ذو لبدة الشعر الرومانتيكية ـــ تذكرة لزيارة الامارات دون ادخال دبى فى الرحلة لأن زيارتها لم تكن ضمن خططى . وكان فيكتور على قدر كبير من المجـــاملة لدرجة اننى نسيت a bade cash Vigilence

ولم اراجع جدول رحلات الطائرات ، وهذا ما ينبغى عمله فى هذه المناطق . وتحتم على دفع الثمن . لقد اختلط الأمر على فيكتور بطبيعة الحال ، وتأخرت عن موعد الطائرة المتجهة من اندوحة الى أبو ظبى . وانقذ الموقف احد المصريين الذى يعمل فى شركة « طيران الخليج » ، حيث نصح بالطيران الى دبى ثم السفر من هناك الى أبو ظبى ، وهذا ما فعلته . واتصلت تليفونيا بمكتب استعلامات دبى وطلبت أن يستقبلونى هنـــا ، فوعدوا بالمســـاعدة .

وساحل دولة الامارات العربية المتحدة عبارة عن متاهات من الاهواز والقنوات ، والجزر الصغيرة والمستنقعات المالحة ، وتشكل بذلك مرفأ مثاليا لسفن « الدو » السريعة التى ترسو فى الميـــاه الضحلة . وهذا ما اتاح الامكانية للصيادين والتجار والجنود فى المنطقة لمواجهة الأسطول البريطانى فترة طويلة فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

ان امثل ميناء طبيعى على ساحل الخليج يقع فى دبى . وتعتبر هذه الامارة ميناء حرا ، توجد به كل انواع التجارة فضلا عن شرعيتها . وكانت سفن الأسطول البريطانى ، التى ترصد عمليات تهريب الأسلحة ، تميز سفن «الدو» المحملة بتجار الذهب ولاتعترض طريقها ، فربما كانت تأخذ نصيبها من « عملياتهم » .

حين تدخل سفن المهربين المياه الاقليمية للدول الأخرى ، تتعرض للخطر . والسرعة هى الضمان الرئيسى للنجاح . كما يستخدم سبيل آخر للضمان . تقدم حكومة الهند وحكومة الدول الأخرى جزءا معينا من الذهب المضبوط لموظفى الجمارك بهدف تشجيع مبادرتهم واجتهادهم . ولكن المهربين يدفعون مثل هذا النصيب او اكثر مقدما ، ويعرضون من وقت لآخر سفينة « دو » للضبط لخلق صورة وهمية عن نشاط الجمارك .

وفى الآونة الأخيرة ولد الاقتصاد المتنامى بسرعة فى امارات الخليج نوعا بشـــعا من « التهريب » هو الهجرة غير الشرعية . فالعاطلون من شبه القارة الهندية ، وخاصة من باكستان ، على استعداد لدفع كل مدخراتهم لصاحب سفينة « الدو » نظير ادخالهم

الامارات بصورة غير شرعية . ويحشرونهم حشرا فى المراكب وينقلونهم الى الجزيرة العـربية . ويموت بعضهم فى الطـريق ، ويلقون بجثثهم فى البحر . ويتركون الضعفاء ممن انهكتهم الرحلة فى مكان ما على الساحل ليلا ، وعليهم ان يصلوا بأنفسهم الى « الأرض الموعودة » .

وتهريب السلاح من بين عمليات التهريب التقليدية فى الخليج ، وتلعب دبى دورها فيها . فالكثير من العرب يريدون امتلاك سلاح خاص . وكانت المدافع الرشاشة والمسدسات والبنـادق تنقل فيما سـبق من دبى الى المناطق الداخلية بعمان عن طريق واحة البوريمى ، ثم بدأ ميناء سور على ساحل السلطنة ينافس دبى فى هذا المجـال .

وشـجعت الضرائب الكبيرة على الكماليات فى ايران على التهريب كذلك . وكانت ايران تنطلق من اعتبارات استراتيجية حين دخلت قواتها جزيرة تومب فى الخليج فى نهـاية عـام ١٩٧١ . والى جانب ذلك كان هناك دافع آخر وراء ذلك . فهذه الجزر تعتبر مخزنا للمهربين العاملين فى ايران . وتم تسليح رجال الجمارك الايرانيين بزوارق حديثة تسير على وسائد الهواء لمطاردة سفن « الـدو » السريعة .

ولقد شاهدت فى مطـار دبى كيف كانت تجرى عملية تفريغ شحنة من سبائك الذهب من احدى الطائرات البريطانية . كانت العملية تجرى بقدر كبير من عدم الاكتراث واللامبالاة لدرجة أنه رآها أحد رجال الأمن فى مطار « هيترو » بلندن لمـات بالسكتة القلبية . ويسلم الذهب للاحتفاظ به فى البنوك المحلية ثم يحمل على سفن « الدو » بعد المرور بأياد مختلفة . وفى بعض الأحيان تصهر السبائك وتعد منها سبائك أصغر .

كان خليج دبى مليئا بأسطول من السفن الخشبية الصغيرة . كانت تقف صفا بطول كورنيش الساحل الذى يمكن أن تعتز به أية مدينة أوربية ، وتعلو العمارات الشاهقة اسماء البنوك المختلفة « تشيز مانهاتن » و « بنك اوف أميركا » و « باركليز بنك » وعشرات

اخرى . لقد تم بناء ميناء الرشيد — وهو ميناء دبى الجديد — منذ وقت قريب . وتبلغ طاقته الممكنة ٣ ملايين طن فى العام . وكان أمير الامارة على ثقة من أن الميناء — الذى سمى باسمه — سيغطى تكاليفه ، ولم تخطىء حساباته . فان عشرات المخازن العملاقة فى ميناء دبى تستقبل مختلف السلع من جميع ارجاء العالم .

ويعلو الخليج كوبرى كبير يضيق بسيل السيارات . وحين كنت فى دبى ، بدأت الدولة فى حفر نفق تحت الخليج ، ووعـــدوا سائقى السيارات أن تبلغ السرعة القصوى فيه ١٢٠ كيلو مترا فى الساعة . وتوجد امارات دبى ، والشارقة ، وعجمان قريبة بعضها من بعض ، ولا يفصل بينها سوى بضع كيلو مترات ، ومن المحتمل أن تندمج كلها بعد حوالى خمس سنوات لتصبح مدينة واحدة — هونج كونج الخليج العربى من نوع خاص .

وتتميز البيوت القديمة فى دبى والشارقة بالطابع المعمارى المتميز ، وبابراجها العالية المربعة الشكل التى اقيمت للتهوية مثلما الحال فى البحرين . ولكن عددها آخذ فى النقصان تحت ضغط المبانى السكنية والادارية العصرية .

وفى الشارع الرئيسى بدبى اقترب منى شاب حسن الملبس وعرض على فى وضح النهار مجلة بها صور نجوم السينما السويدية عاريات فقلت على سبيل المزاح .

— لا .. انى فى حاجة الى سلعة من نوع آخر .. على سبيل المثال مدرعة من ماركة « صلاح الدين » للعمل فى الصحراء .

غرد فى لهجة جدية .

— مدرعة ؟! هذا أمر ممكن ، ولكن يتأتى دفع مقدم ثمن كبير .

■

إنحسار الاتحاد الدولى لشركات البترول

استطاع جان بول جيتى — وهو رجل أعمال يتميز بسرعة نشب أظافره وعدم التورع عن استخدام اية وسيلة للوصول الى هدفه — أن يحقق نجاحا كبيرا فى صناعة البترول بالولايات المتحدة الأمريكية ، وتمكن من أن يصبح مالكا لاثنتين من أكبر الشركات المستقلة هما شركة « جيتى أويل » وشركة « تايدوتر أويل » . وكان يشبه العجوز جيولبينكيان فى الشغف بجمع المقتنيات الفنية ، والعشيقات والقصور ، كما لم يكن يختلف عنه كذلك من حيث البخل ، فقد كان يجبر ضيوفه على دفع ثمن المكالمات التليفونية أثناء وجودهم فى ضيافته . أما من ناحية التنافس ، فكان على استعداد للمخاطرة بعشرات الملايين من الدولارات ، لو لمح «فريسة» ضخمة . وضاقت الحدود الأمريكية على جيتى، وأخذ يحدوه أمل خفى فى اقتحام عالم البترول الدولى الذى اقتسمته «الشقيقات السبع» فيما بينها . وحاول الحصول على امتيازات فى ايران أو العراق ، ولكنه لم يفلح . ولم ير فى مصر مستقبلا بتروليا . وفى هذه الاثناء كانت شركة « أرامكو » تبدل امتيازها فى المنطقة المحايدة فى الخليج بامتياز فى قطاع من ساحل الخليج بهدف تركيز عملياتها حول ميناء عمل بالفعل . وبالقرب من مصنع للتكرير .

فى نوفمبر عام ١٩٤٨ ارتفعت فى الجو طائرة صغيرة خاصة من أرض مطار لم يعبد بعد بالقرب من مدينة الكويت المقامة بيوتها من اللبن ، واتجهت الطائرة الى الجنوب . حلقت الطائرة فوق بحر من الكثبان الرملية وبلغت التلال فى المنطقة المحايدة . وكانت

الطائرة تحمل جيولوجيا ، عكف على دراسة المنطقة دراسة سيسموجرافية ، ثم عاد الى الكويت وارسل برقية لصاحبه يقول فيها : « الطبقات تبشر بالخير » . وقرر جيتى أن اللعبة تساوى همها .

ولكن الواقع أنه وجد من ينافسه ، حيث كانت مجموعة شركات أمريكية قد كونت شركة « امينويل » وحصلت على امتياز فى المنطة المحايدة من الحكومة الكويتية نظير ما يربو على ٧ر٥ مليون دولار ، دفعتها للشيخ أحمد مع وعد بزيادة الحصة فى المستقبل . وتوجه جيتى الى المملكة العربية السعودية المشاركة فى امتلاك المنطقة العازلة وحصل على الامتياز ، وبالتالى على الحق فى ٥٠٪ من اسهم الشركة المستقبلة وبشروط اثارت حفيظة عمالقة البترول فى العالم . وقد بدا الانزعاج فى تعليق هاورد بيدج من شركة « نيوجرسى » على هذا الاتفاق حين قال : « كان من الممكن أن يغير هذا الاتفاق كل شىء فى الشرق الأوسط » . ولقد كان على حق ، حيث يثبت مدى الأرباح التى يعود بها البترول ، مما جعل الشركات «المستقلة» مستعدة لدفع مبالغ أكبر مما تدفعها « الشقيقات السبع » نظير نصيبها من « الفطيرة » . وحين تدفق البترول من منطقة الحسا عام ١٩٤٨ حولت شركة «أرامكو» لملك السعوديةمبلغ ٤٨ مليون دولار ، أما جيتى فكان قد دفع حوالى ١٠ ملايين نظير البترول الذى لم يكتشف بعد . وكان ظهور الشركات « المستقلة » فى نفس الوقت الذى حدث فيه تأميم البترول الايرانى مما دفع الشركات الكبرى الى تطبيق مبدأ « النصف بالنصف » فى منطقة الخليج . اما فيما يتعلق بجيتى ، فانه أصبح من أصحاب المليارات من بترول المنطقة المحايدة .

الشركات البترولية من غير أعضاء الاتحاد

لقد ضمن احتكار صناعة البترول العالمية أرباحا هائلة « للشقيقات السبع » غير أن هذا كان يحمل فى طياته عوامل الانهيار الذاتى لهذه الشركات ، ذلك لأن امكانية الارباح الطائلة

اجتذبت كالمغنطيس الشركات التى ليست عضوا فى الاتحاد الدولى لشركات البترول . ومن بين هذه الشركات شركات يستحيل عمل حساب لهـــا . فالكثير من الشركات الأمريكية خارج الاتحاد ، مثل «ستاندرد اويل اوف انديانا» و « كونتيننتال» و «سينكلر اويل» و « سيتيز سيرفيس » و « جيتي أويل » ــ تفوق من حيث اصول رأسمالها واستثماراتها المتداولة شركات كبرى فى أوربا الغربية واليابان . وكانت « الشقيقات السبع » آنذاك تستطيع أن تلعب « الاستغماية » مع حكومات الدول البترولية التى كانت لم تكتسب الخبرة بعد ، وذلك عن طريق اخفاء دخولها الحقيقية . ولكن الشركات البترولية من غير أعضاء الاتحاد كانت تعلم مدى الارباح التى يعود بهـــا البترول فى منطقة الخليج الأمر الذى أسال لعابها .

وحصلت الشركات «المستقلة» ــ الى جانب المنطقة المحايدة ــ على نصيب صغير كذلك من المساهمة فى شركات البترول الايرانية ثم حصلت على امتيازات فى المياه الاقليمية الايرانية . غير أن أكبر نجاح حققته لم يكن فى حوض الخليج العربى ، بل فى ليبيا . وبطبيعة الحال كانت الشركات من غير اعضاء الاتحاد تعمل مع « الشقيقات السبع » فى عدد من المسائل . ولقد أفلت لسان الن كالفرت رئيس الرابطة الأمريكية لأصحاب شركات البترول المستقلة ، فقال ذات مرة : « ان كل مستقل يدرك فى قرارة نفسه انه لا يمكن الاستغناء عن الشركات الكبرى . فنحن جميعا فى نهاية المطاف من عجينة واحـــدة » .

كان غزو عالم البترول الدولى بالنسبة للشركات الأمريكية من غير أعضاء الاتحاد الدولى لشركات البترول ــ يعنى انتشار صراع التنافس داخل أمريكا للخروج خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية . أما الشركات اليابانية والأوربية المستقلة عن الاتحاد ، فقد كانت تواجه دائما السؤال المعروف : « أكون أو لا أكون ؟ » . وكانت الحكومات تساندها أملا فى اضعاف دكتاتورية « الشقيقات الســـبع » .

ويثير رجال الأعمال اليابانيون الآن ــ الذين يحيون بعضهم البعض بالانحناء بشدة فى مطارات دول الخليج ــ دهشة ليست

اكثر مما يثيرها الفلاح الذى يفترش سجادة الصلاة فى صالة انتظار المطار مباشرة . ولقد توقفت فى الكويت فى فندق « امباسادور » ثلاث مرات وكنت أجد دوما مهندسين وفنيين يابانيين ، حيث يقومون ببنـــاء شىء ما فى الكويت ، وفى وقت الفراغ يعلمون الجرسونات ـــ ودون ما عجلة ـــ التحدث باللغة اليابانية ، كما يعلمون الطباخين الأطباق اليابانية . وسمعت أنه قد تم فى طوكيو افتتاح دراسات خاصة لتعلم اللغتين العربية والفارسية بسرعة . ويثير خريجوها الدهشة بروعة اتقانهم لكتابة الحروف العربية المزخرفة .

لقد أصبحت اليابان فى نهـــاية الستينيات من بين الشركاء التجاريين الرئيسيين لدول حوض الخليج . فأسواق هذه الدول الآن مليئة بمنتجات اليابان من آلات تصوير ، وساعات ، وأجهزة راديو ، وأجهزة تسجيل ، وآلات حاسبة ، ومنسوجات . وتزداد فى الطرق اعداد سيارات « داتسون » و « تويوتا » . ويحصد اليابانيون منافسيهم بأسعارهم الرخيصة . ولكن ما كل هذا سوى مفارز هجوم أوســـع شمولا . فوراء الغزو الاقتصادى للخليج العربى شركات « ميتسوى » و « ماتوشيتا » و « ميتسوبيشى » . ويستثمر اليابانيون رؤوس أموالهم فى الصناعات البتروكيماوية فى ايران وامارات الخليج وفى اقامة مصانع الغاز السائل ، وبناء أرصفة الموانى واحواض الاصلاح بالموانى .

ان ما يهم اليابان بصفة أساسية فى هذه المنطقة هو البترول بالطبع . فان هذه الدولة الصناعية الثانية فى العالم الرأسمالى تعتمد على ما تستورده من الوقود السائل من حوض الخليج بنسبة ٨٠ ـــ ٩٠ فى المائة . واذا كانت اليابان قد افلحت فى مزاحمة منافسيها الأوربيين والأمريكيين فى المجالات الأخرى ، فانها لا تزال مضطرة ، كسابق عهدها ، الى دفع اتاوة « للشقيقات السبع » .

ولم يبخل اليابانيون بالجهد والمـــال لاقتحام هذا المجال المحظور عليهم . وكان رأس المـــال اليابانى قد تمكن فى الخمسينيات من الحصول على امتياز للتنقيب عن البترول فى مياه المنطقة المحايدة ، حيث تعمل شركة « ارابيان أويل كومبانى » التابعة لهم .. وحصلت شركة « ميتيسوبيشى » فى ابو ظبى على امتياز بالتنقيب فى مساحة

تبلغ ٥ر١٦ الف كيلو متر مربع من اراضى الامارة . واشترت مجموعة من الشركات اليابانية شركه « ابو ظبى اويل كومبانى » . واخيرا حدثت صفقة عام ١٩٧٢ وما لهـــا من دوى هائل . فقد اشترت الشركات اليابانية من شركة « بريتيش بتروليوم » ٥ر٢٢ فى المائة من أسهم شركة « ابو ظبى مارين ايريز » المتنامية بسرعة وذلك نظير ٣٣٠ مليون جنيه استرلينى . وكانت هذه الشركة تنتج حوالى ٢٥ مليون طن فى العام وتأمل فى زيادة انتاجها ست مرات . ولقد اضطرت شركة « بريتش بتروليوم » الى بيع نصيب من الاسهم (حيث احتفظت بما لا يقل عن ٥ر٢٧ فى المائة) نتيجة للانفاقات الباهظة التى يحتاج اليها التنقيب عن البترول فى بحر الشمال والاســـكا . وكانت « بريتش بتروليوم »قد اقترحت فى بادىء الأمر بيع أسهمها على شركة المانية غربية ولكن المشترى كان صعب المراس ، اما اليابانيون فلم يتباطأوا فى عرض دفع قيمة الأسهم نقدا . واهتزت احدى « الشقيقات السبع » تحت وطأة ضغط اليابانيين . ولقد صرح ايشيتو شيمو دو رئيس احدى شركات البترول المملوكة للحكومة اليابانية ، أن هذا الحدث يعتبر نقطة تحول فى سياسة بلاد الشمس المشرقة البترولية كلهـــا . وعلق أحد رجال الأعمـــال فى طوكيو على هذه الصـــفقة قائلا : « ان اليابانيين لا ينوون التغلغل فى الخليج العربى ، لأنهم هناك بالفعل » . والواقع أن حكومة أبوظبى قد حددت زيادة انتاج البترول بعد حرب أكتوبر عـــام ١٩٧٣ ، ولم تعد الصفقة ذات الضجة هذه على اليابان بالفوائد المتوقعة .

واذا أخذنا فى الاعتبار أن طوكيو تخطط للتوسع فى الشرقين الأوسط والأدنى ، وان اليابان تمتلك أسطولا ضخما من ناقلات البترول ، وأن « الشقيقات السبع » نفسها تبنى الجزء الأكبر من ناقلاتها فى ترسانات اليابان ، لاتضحت لنـــا أهمية العنصر الجديد فى الموقف البترولى للخليج العربى .

لم يكن لدى ايطاليا فحم ، مثلما كان فى ألمانيا الغربية ، كما لم تكن تمتلك نصيبا فى اتحاد الشركات البترولية أو فى الشركات العاملة فى شمال أفريقيا ، مثلما كان لدى فرنسا . وكانت تعانى وطأة « الشقيقات السبع » أكثر من دول أوربا الغربية الأخرى .

وفى بداية الخمسينيات انشأت ايطاليا شركة «اينى» للبترول والغاز ، وهى شركة تابعة للدولة ، املا فى الحصول لنفسها على مكان تحت شمس عالم البترول . وكان المبدأ الأساسى لشركة «اينى» هو اقامة علاقات مباشرة بينها وبين الدول المستخرجة والمنتجة للبترول . وبدأ الايطاليون نشـــاطهم فى خمسة عشر بلدا ، ودخلوا بذلك فى مواجهة غير متكافئة مع الاحتكارات الانجلو امريكية . وانريكو ماتيى هو الذى اطلق كنية « الشقيقات السبع » على أعضاء الاتحاد الدولى لشركات البترول . واصبح اينريكو ماتيى — وهو رجل أعمال سريع الخاطر على قدر كبير من المهارة واللباقة وكان من بين المشتركين فى المقاومة الايطالية وهو ديمقراطى مسيحى يسارى — أصبح كالقذى فى عين الأسرة الاحتكارية . وتتعرض له مجلة « بتروليوم انتيلجنس » الأمريكية الاسبوعية قائلة : « تعتبر بعض الدوائر السنيور اينريكو ماتيى بطلا ، وتعتبره دوائر اخرى شريرا ، والواقع انه ليس هذا ولا ذاك . انه ليس سوى سياسى نافذ البصيرة الى حد كبير ، يملك خيالا واسعا ، ولا يرتبط بأية التزامات ، ويعمل بمهارة على بناء امبراطوريته البترولية » . واعلنت « الشقيقات السبع » الحرب عليه دون هوادة وحتى الموت . وارسل له مجهولون طردا يحمل قرار الاعدام ، وبعد فشل عـــدة محاولات لاغتياله ، انفجرت طائرة شركة « اينى » تحمل اينريكو اينى فى الجو فى اكتوبر عـــام ١٩٦٢ « ولأسباب مجهولة » .

كان دخول الشركات « المستقلة » عالم البترول يعنى تقويض سيطرة الاتحاد الدولى لشركات البترول على السوق العالمية دون منازع . فقد أصبحت الشركات « المستقلة » حتى بداية السبعينيات تسيطر على حوالى ثلث انتـــاج البترول خارج الولايات المتحـــدة الأمريكية ، فضلا عن سيطرتها على نسبة اكبر من هذا من عمليات التكرير ، وأخذ نصيبها يزداد بصفة مستمرة .

وكانت بعض الاتفاقيات الجـــديدة ، التى عقدتها الشركات « المستقلة » تحمل طابع العقود ، وليس الامتيازات ، اى أن الشركات البترولية أخذت تمارس دور شركات المقاولات . واخذ نظام الامتيازات الاستعمارى القديم ينهار . وطالبت حكومات دول الشرقين الأوسط والأدنى اكثر من مرة — أصحاب الامتيازات

بالسماح لهـــا بالمشاركة فى شركات البترول ، ولكنهم كانوا يرفضون دائما . واقدمت الشركات الفرنســية والايطالية واليابانية على المشاركة بهدف تسهيل توسعها فلم تتردد الشركات القادمة الجديدة فى تغيير الشروط القديمة لاتفاقات الامتيازات ، وهى تدرك جيدا ان المعدلات المرتفعة للارباح مضمونة لا محالة .

ووجدت « الشقيقات السبع » تحت ضغط حكومات منطقة الخليج نفسها مضطرة الى اعادة اراضى الامتيازات التى لم تستغلها . فقد اعادت شركة « ارامكو » فى بداية الستينيات ٧٥٪ من الأراضى التى استأجرتها ، الى الحكومة السعودية . واختصرت الامتيازات فى قطر بنسبة الثلث ، وفى الكويت بنسبة النصف ، بل وتمكن حاكم أبو ظبى من اجبار الشركات على اعادة الأراضى التى لم تستغل . ولقد حاول أصحاب الامتياز ، بطبيعة الحال الاحتفاظ بمناطق الانتاج الرئيسية ، ولكن احتكار « الشقيقات السبع » كان فى طريقه الى الضعف ، ذلك لأنه لا يستطيع حماية الاحتياطيات غير المكتشفة من هجوم المنافسين الى ما لا نهـــاية .

وفى عـــام ١٩٦١ اعلنت بغداد أنهـــا تجرد شركة « العراق بتروليوم كومبانى » من ٩٩ر٥ فى المائة من المســـاحات التى تقوم بالتنقيب بهـــا ، عدا الأراضى التى تنتج البترول بالفعل . وكانت هذه الضربة قاسية ، ذلك لأن شركة « العراق بتروليوم كومبانى » كانت تعرف حق المعرفة بوجود احتياطيات ضخمة من البترول فى المناطق التى جردت منها . واستمر الصراع عشر سنوات كاملة اهتزت معه دعائم راس المـــال الأجنبى . واجتذب الصراع اهتمام خبراء البترول فى دول الخليج الأخرى ، واثار الرأى العـــام فيها . وانتهت المواجهة بنهاية شركة « العراق بتروليوم » فى العراق كلية .

الأوبيك

اتخذت شركة « نيوجرسى » فى صيف عام ١٩٦٠ خطوة وحدت الدول المنتجة للبترول فى الشرقين الأوسط والأدنى بصورة لم يسبق لها مثيل . فقد خفضت شركه « نيوجرسى » اسعار بترول الشرق الأوسط ، وسرعان ما حذت الشركات الأخرى حذوها . وكانت هذه الخطوة بمثابة ضربة أثارت الغضب واليأس فى الشرق الأوسط من بغداد حتى الرياض ، ومن طهران حتى الكويت . وقررت الدول المنتجة للبترول الاتحاد وعدم السماح بتخفيض أسعار البترول ، ووضع نظام جديد للأسعار ، تحسب على أساسه حصص الدول من ارباح شركات البترول .

وعقد فى بغداد مؤتمر ، تمخض فى سبتمبر عام ١٩٦٠ عن انشاء منظمة الدول المصدرة للبترول أو الأوبيك وفقا للحروف الأولى من اسمها باللغة الانجليزية . وكانت المنظمة تضم فى بادىء الأمر ايران والعراق والكويت ، والمملكة العربية السعودية وفنزويلا . ثم انضمت اليها فيما بعد ابو ظبى ، وقطر ، وليبيا ، والجزائر ، واندونيسيا ، ونيجيريا ، واكوادور ، وجابون .

وطالبت الدول الأعضاء فى الأوبيك بتحديد أسعار ثابتة للبترول ورفعها الى المستوى السابق ، وهو المستوى الذى كان من المفروض عدم تغييره دون مشاورات مسبقة مع حكومات الدول المصدرة للبترول . وكان المطلب الثانى لدول الأوبيك فى منطقة الخليج هو ضم قيمة الايجار الى النفقات الاستثمارية للشركات وحساب ضريبة دخل مقدارها ٥٠٪ من واقع المبالغ المتبقية . وكان هذا يعنى زيادة نصيب الدول صاحبة البترول من الحصة التى تحصل عليها بعدد من النسب المئوية الاضافية ، أو بعدد من مئات الملايين من الدولارات فى العام . وأخيرا رفضت دول الاوبيك تحمل أى جزء من اعباء النفقات التجارية للشركات . وطالب أعضاء المنظمة بالتضامن ، وتعهدوا بعدم الموافقة على اية شروط خاصة

يمكن أن تقدمها الشركات فى محاولة لاحداث انقسام فى جبهتهم الموحدة .

وكانت طلبات الأوبيك متواضعة ولا تخرج عن الاطارات التجارية البحتة ، وذلك بالمقارنة بتطور الاحداث فيما بعد .

قل من كان يؤمن آنذاك ان المنظمة الوليدة يمكن ان تبقى . فقد حاولت دول الشرقين الأدنى والأوسط كثيرا فيما سبق تنسيق عملها ، وكثيرا ما كانت وحدتها تنهار تحت ضغط القوى الامبريالية، والمنافسة الداخلية ، والانقسامات . ورغم أن « الشقيقات السبع » أحست بالقلق لمولد الأوبيك ، الا انها رفضت الاعتراف بهذه الحقيقة الجديدة ، مما جعلها تدفع ثمن قصور نظرها غاليا .

واعلن ممثلو الاحتكارات الدولية انهم لن يدخلوا فى مفاوضات الا مع كل دولة على حدة ، وليس بحال من الأحوال مع منظمة متحدة . ولقد أجمل براون مدير شركة « أرامكو » موقف « الشقيقات السبع » قائلا : « نحن لا نعترف بما يسمى الأوبيك » . وبدا لهم انه اذا لم يعترفوا بالأوبيك ، فسوف تنهار من نفسها . وكان الكثيرون من كبار رجال أعمال البترول يعتبرون آنذاك أن الخطر ليس مصدره الأوبيك بل أحد منظمى الأوبيك وهو وزير البترول السعودى عبد الله الطريقى الواسع النشاط ذو الميول المتعصبة قوميا ولذا حاولوا ازاحته عن منصبه بعد عدة سنوات . ولم تكن ادارات الاحتكارات تتصور بعد الدروس الخطيرة التى استخلصتها الدول العربية وايران من تاريخها السابق فى المجالات السياسية والتجارية والفنية . وكان العرب والايرانيون قد اكتشفوا عندئذ أن الشركات صاحبة الامتيازات تبيع البترول ، الذى خفضت أسعارها ، لشركاتها التابعة وفروعها بأسعار أرخص ، فى الوقت الذى لا يفيد هذا التخفيض المستهلك على الاطلاق ، وعلى هذا تتراكم الأرباح فى خزائن « الشقيقات السبع » دون أى تغير يذكر .

واقتصرت الأوبيك على ما يمكن تسميته « بمعارك محلية » طوال فترة وجود فائض نسبى من البترول فى السوق العالمى ، وفرض المشترى وليس البائع للشروط . غير أن المنظمة أخذت

تكتسب من عام لآخر خبرة العمل الجماعى ، وهى الخبرة التى اثبتت مدى فعالية العمل المشترك حتى بالنسبة للدول ذات الأنظمة المختلفة .

لم تكن الاتجاهات السياسية للدول المصدرة للبترول غير ذات تأثير فى مصائر صناعة البترول العالمية . فقد حد قيام انظمة وطنية ديمقراطية فى عدد من الدول من مجالات تأثير « الشقيقات السبع » على هذه الدول بدرجة كبيرة ، وأضعف مواقف الاحتكارات بصفة عامة فى الشرقين الأدنى والأوسط . ودليل ذلك أن انتصار اسرائيل فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ — وهو العدوان الذى كان يرمى الى قلب النظم التقدمية فى العالم العربى وتدعيم نفوذ الاحتكارات البترولية — قد أحدث نتائج عكسية . فقد قامت الحركة التحررية الوطنية بقفزة نوعية وكمية جديدة . وتغير ميزان القوى بدرجة جوهرية . وازداد فى الشرقين الأدنى والأوسط دور الاتحاد السوفيتى كعامل اقتصادى وسياسى وعسكرى قوى ، من شأنه الا يسمح للاحتكارات الامبريالية بالعمل وفق هواها .

وأسرع سقوط النظام الملكى فى ليبيا بتغيير علاقاتها مع الشركات الأجنبية . واقترحت الحكومة الجمهورية فى نهاية الستينيات على أصحاب الامتيازات دفع ٥٤ — ٥٥ فى المائة من الأرباح للبلاد بدلا من ٥٠ فى المائة . وفى عام ١٩٧٠ خفضت ليبيا انتاج البترول لبعض أصحاب الامتيازات ردا على رفضهم اقتراحها. ولم يجسر الاتحاد الدولى لشركات البترول على مقاطعة البترول الليبى نظرا لاغلاق قناة السويس ونسف الفدائيين الفلسطينيين لخطوط انابيب البترول (خط التابلاين) واعتماد حوالى خمس استهلاك أوربا الغربية على البترول الليبى . وكانت الشركات الأمريكية المستقلة عن الاتحاد — والتى لم تكن تعمل فى الخارج الا فى انتاج البترول الليبى — مثل شركة « أوكسدينتال بتروليوم » وشركة « كونتيننتال » ، أول من استسلم لشروط الحكومة الليبية ، ثم تبعتها الشركات الأخرى . وأحدث نجاح ليبيا رد فعل سريعا فى الشرقين الأدنى والأوسط . وأجبرت دول منطقة الخليج أصحاب الامتيازات على دفع مثل هذه النسبة من الارباح .

وزادت دخـــل الدولة النامية الغنية بالبترول عام ١٩٧٠ حوالى نصف مليار دولار .

فى ديسمبر عام ١٩٧٠ عقد فى كاراكاس المؤتمر الحـــادى والعشرين للاوبيك وطالب المشتركون فى المؤتمر « الشقيقات السبع » لا بزيادة حصتهم الى ٥٥ فى المائة من أرباح بيع البترول الخـــام فحسب ، بل وزيادة أسعاره كذلك . وقرر أعضاء الأوبيك كذلك ضرورة أن يرفع المصدرون أســـعار البترول الى أعلى مســـتوى بلغته . وكان ينبغى الاحتفاظ بجبهة موحدة لمواجهة الاجـــراءات الانتقامية ، التى يمكن أن يتخذها أصحاب الامتيازات .

مـواجهـة طهـران

بدأ أعضاء الأوبيك من دول الخليج فى ١٢ يناير عام ١٩٧١ مفاوضات فى طهران مع ممثلى شركات البترول . وتقدمت الدول المصدرة للبترول بالطلبات التى اتفقت عليها فى مؤتمر كاراكاس عاصمة فنزويلا .

وفى اليوم التالى كتبت « فايننشال تايمز » اللندنية تقـــول : « لقد واجه عالم البترول أزمة خطيرة جدا . فلاول مرة تواجـــه الاحتكارات البترولية مجموعة متحدة من الدول المنتجة للبترول ، ومستعدة للدخول فى المفاوضات كتلة واحدة . وليس هنـــاك فى يد الاحتكارات البترولية ما ترد به . فقد فقدت هذه الاحتكارات امكانية المناورة بعد اغلاق قناة السويس وعمليات التأميم التى شـــهدها الشرق الأوسط . ولم تتمكن الأوبيك من تحقيق هدفها برفع أسعار البترول طول عشر سنوات كاملة . وعكست التغيرات التى حدثت فى العام المـــاضى ، تحولات بطيئة فى الوضع فى السوق العـــالمى ، حيث أصبحت هذه التحولات تلائم لا المشترى ، بل البائع » .

وتصرف ممثلو « الشقيقات السبع » و ١٥ شركة أوربيـــة غربية ، وأمريكية ، ويابانية مستقلة عن الاتحاد الدولى — يدا

واحدة حيث اثبتوا من جديد انهم من عجينة واحدة . فقد حاولوا استمالة ممثلى ايران والمملكة العربية السعودية للدخول فى مفاوضات منفصلة . وعندما لم يفلحوا فى ذلك ، لم يجعلوا المفاوضات تتحرك من مكانها .

ورغم ان مواجهة طهران لم تكن تحمل الا طابعا اقتصاديا بحتا ، الا أن لندن وواشنطن لم تغفلا عن العواقب السياسية التى يمكن ان تؤدى اليها . ولذلك أرسلت الحكومة الأمريكية أروين نائب وزير الخارجية الأمريكى الى الشرق الأوسط . وحاول أروين الاستئناف لدى « أصدقاء الولايات المتحدة القدامى » — حكومات ايران والمملكة العربية السعودية والكويت ، حيث أصر على أن تعيد هذه الحكومات النظر فى « طلباتها المتطرفة » وحين وصل أروين الى طهران سلم الشاه رسالة شخصية من الرئيس نيكسون ، ينصح فيها بعدم اتباع « مثال طرابلس والجزائر السيء » . وجاء الرد سلبيا . وفى المملكة العربية السعودية صرح أروين بقوله : « لا يجب أن تنسوا انكم سوف تحتاجون الينا . فان الخطر كان يتهددكم أكثر من مرة ، وحتى هنا فى المملكة العربية السعودية . واذا كنتم تزدهرون ، فهذا بفضلنا نحن فقط » ولكن أروين لم يجد فى السعودية سوى آذان صماء . « فالصداقة صداقة ولكن المال أمر آخر » — هذا ما أجمل به الكثيرون نتائج مهمته .

توقفت مفاوضات طهران ، وغادر ممثلو الاحتكارات العاصمة الايرانية على أمل مد فترة التفاوض أو ربما تقويضها بالضغط على دول الخليج الست . ولكنهم لم يفلحوا فى ارهاب أعضاء الأوبيك أو جعلهم أكثر مرونة ، أو احداث انشقاق فى جبهتهم . فان « هروب » دولتين أو ثلاث من الدول الكبيرة المنتجة للبترول كان يعنى أن الدول المصدرة عامة لم تستطع الاستفادة من الموقف الملائم لها . ولم يحدث هذا .

وفى ١٩ يناير انذرت الأوبيك « الشقيقات السبع » أن دول حوض الخليج ستوقف انتاج البترول اذا رفضت الشركات العودة الى المفاوضات ورفضت مطالبها . ونظرت ادارات الشركات الاحتكارية الى الانذار نظرة جدية . وتجددت المفاوضات . وعلق

اللورد استراتلموند ممثل الاتحاد الدولى لشركات البترول على الموقف حيث قال متجهما : « ان طلبات الاوبيك أكثر مما كنا نتوقع » .. ووصل وزير شئون البترول فى ليبيا الى طهران وحذر من انه اذا أحبطت المفاوضات ، فان بلاده ستوقف هى الأخرى عن ضخ البترول . وأيد وزير صناعة البترول الفنزويلى زملاءه من دول منطقة الخليج . وبدأت مواجهة طهران تأخذ مزيدا من طابع المواجهة العالمية بين الاحتكارات الامبريالية والدول النامية .

واضطرت شركات البترول قبل يوم من انتهاء مدة الانذار الى الاعتراف بالهزيمة ، ووافقت على تلبية غالبية الطلبات المقدمة وارتفعت أسعار البترول ٢٥ سنتا فى البرميل مع زيادة ٥ سنتات سنويا . وحددت ضرائب الارباح بـ ٥٥ فى المائة فى كل دول الخليج وعلاوة على ذلك وافقت الشركات على زيادة أسعار البترول ٢ر٥ فى المائة سنويا ابتداء من ١ يونيو عام ١٩٧١ حتى نهاية ١٩٧٥ وذلك انطلاقا من التضخم العالمى .

أوجد نجاح دول منطقة الخليج ظروفا مواتية للهجوم على الاحتكارات فى مناطق العالم الأخرى . فقد أصدرت الحكومة الجزائرية فى فبراير عام ١٩٧١ قانون تأميم كل آبار الغاز الطبيعى وأنابيب البترول وأعلنت الحكومة فى الوقت نفسه زيادة نصيبها فى الشركات الفرنسية العاملة فى حقل البترول فى البلاد — الى ٥١ فى المائة . وبعد شهر رفعت فنزويلا أسعار البترول من جانب واحد .

وكانت مرارة الفشل فى انتظار الاتحاد الدولى لشركات البترول فى المفاوضات مع اعضاء الأوبيك من دول البحر الابيض المتوسط والتى جرت فى العاصمة الليبية طرابلس فى مارس — ابريل من العام نفسه . وسرعان ما ارتفعت أسعار البترول فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ونيجيريا واندونيسيا عقب اتفاق طرابلس . وطبقت اتفاقية طرابلس على العراق والمملكة العربية السعودية حيث يضخ جزء من بترولهما عبر خطوط الأنابيب الى موانىء البحر الابيض المتوسط .

وبدا للكثيرون آنذاك أن العلاقات بين « الشقيقات السبع » والدول المصدرة للبترول قد تغيرت بصورة درامية . غير أن عالم

البترول سيشهد قبل انقضـــاء ثلاث ســـنوات ثورة ، توصف حيالها اتفاقيتا طهران وطرابلس « بآخر خطوات العقد القديم » . فان هاتين الاتفاقيتين لم تمسا نظام الامتيازات،أو قوة الاحتكارات، رغم انهما حققتـــا للاوبيك كسبا تجاريـــا يبلغ عدة مليـــارات من الدولارات .

نجـــاح العـــراق

اصبح ميزان القوى العام فى صالح المنتجين . واستخلصت حكومات الدول الأعضاء فى الاوبيك استنتاجات سياسية من الموقف الاقتصادى الجديد . وبدأت عام ١٩٧٢ مرحلة جديدة من حيث المبدأ فى صراع الاوبيك مع الاتحاد الدولى لشركات البتـــرول . وطالبت الدول المصدرة للبترول تقديم حصة من اسهم الشركات صاحبة الامتيازات لها ، معتبرة هذا خطوة نحو السيطرة الكاملة على ثرواتها البترولية .

ولقد صرح باتشاتشى الذى كان يشغل آنذاك منصب الأمين العام لمنظمة الاوبيك ـــ قائلا : « ان المساهمة المباشرة فى الشركات من شأنها أن تزيد من فعالية حقنا فى السيادة الدائمة على مواردنا البترولية . وهذا من شأنه أن يتيح لنا امكانية المســـاهمة بفعالية فى الادارة الفعلية لصناعاتنا البترولية . فقد كانت حكوماتنا حتى وقت قريب تعمل « كشريك نائم » أو كجامع ضرائب . ولا يجب النظر الى مطالبتنا بالمساهمة فى الشركات على أنها رغبة فى الحصول على المزيد من المـــال . فاننا نستطيع الحصول على ذلك لو اردنا فقط زيادة دخولنا .. وكانت شركات البترول تعارض حتى عهـــد قريب مطالبتنا بالمساهمة فيها ، متعللة « بقداسة » الاتفاقيات . غير أن الارادة الحرة للجانبين هى ، كما هو معروف ، اساس التعاقد السارى المفعول . كما أن غالبية امتيازات البترول فى الشرقين الأوسط والأدنى قبل وبعد الحرب العالمية الثانية . تم الحصول عليها من دول ، كانت اما تحت الحماية واما خاضعة لنفوذ الدول الاستعمارية » .

كان خبراء الاقتصاد والمراقبون السياسيون الغربيون يفترضون أن مشكلة عودة سيادة دول منظمة الخليج على ثروات أراضيها سوف تظهر فى بداية الثمانيات ولكن هذه المشكلة ظهرت فى السبعينيات . ويرجع ذلك لا الى وضع سوق البترول العالمى الملائم للدول الأعضاء فى الأوبيك فحسب . بل والى التحولات الايجابية المتواصلة لصالح قوى التحرر الوطنى فى كل أرجاء الشرقين الأدنى والأوسط .

وحاولت «الشقيقات السبع» اخماد الموجة الجديدة من هجوم الدول المصدرة للبترول ، والانتقام لاتفاقيتى طهران وطرابلس ، وعرض عضلاتها . وتم اختيار العراق ليكون موضع الضربة . حيث تقدم بطلبات أكثر ثورية فى مجال البترول . وكانت شركة البترول الوطنية العراقية تثير ضيقا خاصا لدى الاتحاد الدولى لشركات البترول . فقد بدأت فى ربيع عام ١٩٧٢ بمساعدة الاتحاد السوفيتى انتاج البترول فى منطقة الرميلة الشمالية وفى تلك الأراضى التى تم تجريد شركة « العراق بتروليوم » منها عام ١٩٦١ . وخفضت شركة « العراق بتروليوم » انتاج البترول فى الحقول الشمالية بزعم أن أسعار البترول العراقى فى موانى البحر الأبيض المتوسط وفقا لاتفاقية طرابلس ، قد جعلت من انتاجه غير مفيد من الناحية الاقتصادية . وزعموا كذلك ان ضخ البترول عن طريق الخليج هو وحده الذى يعود بالفائدة الاقتصادية . وتدليلا على ذلك زادت الشركات التابعة لشركة « العراق بتروليوم » انتاج بترول حقولها الجنوبية بعض الشىء . وكان هذا التصرف بمثابة اجراء ، حيث بلغت خسائر العراق فى الأربع أشهر الأولى من عام ١٩٧٢ اكثر من ٢٨٠ مليون دولار ، وأصبح الخطر يهدد خطط التنمية الاقتصادية بالبلاد .

وفى مايو عرضت الحكومة العراقية على شركة «العراق بتروليوم» الدخول فى مفاوضات معها وتحقيق حل وسط ، ولكنها لم تتلق ردا .

وفى أول يونيو عام ١٩٧٢ أصدر مجلس قيادة الثورة بالجمهورية العراقية قانون تأميم ممتلكات شركة « العراق بتروليوم » . وانتقلت ملكية حقول البترول فى كركوك ، ومصانع تكرير البترول ، ومحطات الضخ وأنابيب نقل البترول الى العراق . وكانت هذه اكبر عملية

تأميم فى الشرقين الأدنى والأوسط بعد انتقال قناة السويس الى ملكية مصر . وكان قانون التأميم يقضى بتعويض الشركة عن قيمة الممتلكات المؤممة مع خصم المبالغ المدينة بها للعراق من الضرائب والحصص القديمة . وفى اليوم ذاته أعلن رئيس جمهورية سوريا تأميم ممتلكات شركة « العراق بتروليوم » فى أراضى سوريا وعلى رأسها خطوط أنابيب البترول الثلاثة ، التى يضخ عبرها البترول من كركوك الى موانى البحر الأبيض المتوسط .

وفى يوم التأميم خرج الى شوارع بغداد عشرات الآلاف من العراقيين المبتهجين ، واتجهوا الى ميدان التحرير ، حيث اعربوا عن تاييدهم للحكومة فى اجتماع جماهيرى حافل .

حاول المساهمون فى شركة « العراق بتروليوم » تنظيم حصار للعراق على شاكلة سيناريو الحصار الايرانى فى بداية الخمسينيات . غير أن الوضع السياسى والاقتصادى والعسكرى فى العالم كان مختلفا . ولم يثر بالمرة موضوع اتخاذ اجراءات عسكرية . ولم تلق محاولة اعلان أن البترول المؤمم بترول « مسروق » تأييدا فى أوروبا الغربية واليابان .

كانت الأسواق العالمية تعانى نقصا فى الوقود السائل . ولكن اعضاء الاوبيك الاخرين لم يرغبوا فى أن يهزم العراق ، حتى وان كانوا لا يتفقون ووجهات النظر السياسية للقيادة العراقية ، ولذا لم يتحركوا لغزو أسواق البترول العراقى . ولاقى تأميم ممتلكات شركة « العراق بتروليوم » تأييدا اجماعيا من جانب منظمة الاوبيك وكل الدول العربية المصدرة للبترول بوصفه « عملا مشروعا لدولة ذات سيادة يستهدف حماية المصالح الحيوية للعراق » .

وكسب العراق المعركة من « الشقيقات السبع » . وكان لنجاحه أهمية خاصة ، حيث اثبتت أن كل بلد يستطيع تأميم صناعة البترول فيه فى ظل توازن القوى الجديد فى المجال الدولى وفى ظل حالة السوق الاقتصادية .

أبدت احتكارات البترول بعد خسارتها فى العراق — مرونة اكبر فى موضوع مساهمة الدول المنتجة للبترول فى نشاط الشركات صاحبة الامتيازات . ففى عام ١٩٧٢ عقدت « الشقيقات السبع »

مع العربية السعودية والكويت وقطر وابو ظبى اتفاقات اشترت بمقتضاها هذه الدول عام ١٩٧٢ نسبة ٢٥ فى المائة من اسهم الشركات صاحبة الامتيازات . وكان من المقرر أن تصل دول الجزيرة العربية بنصيبها فى المساهمة الى ٥١ فى المائة قبيل حلول عام ١٩٨٢ .

وتعهدت الاحتكارات بشراء البترول الذى تصدره دول شبه الجزيرة العربية باسعار أعلى من اسعار الامتيازات ؛ ولكن اقل من اسعار السوق الحر خارج الاتحاد الدولى لشركات البترول . وكان ذلك نجاحا نسبيا لمجموعة من أعضاء الاوبيك . وخطوة محددة على الطريق نحو السيطرة على الموارد الخاصة . وتخلى أعضاء الاتحاد الدولى لشركات البترول عن حق احتكار التصرف فى حقول البترول . غير أن « الشقيقات السبع » كانت تستهدف بعقدها « اتفاقات المشاركة » مع الدول العربية افتداء نفسها من الدول المصدرة للبترول ، واخماد موجة التأميم وكسب الوقت ثم الانتقال بالصراع الى اشكال أكثر هدوءا . وهذا لاقت صحف الغرب الموالية للاحتكارات انباء نجاح المفاوضات مع دول شبه الجزيرة العربية براحة نفس .

وكان السرور سابقا لاوانه ، فقد رفض العراق ثم من بعده ليبيا ونيجيريا « اتفاقية المشاركة » . وفى يناير عام ١٩٧٣ قررت الحكومة الايرانية تغيير علاقاتها مع الاتحاد ، وفى مايو أخذت الشركة الوطنية الايرانية للبترول بيدها الاشراف الكامل على انتاج ونقل وتكرير البترول فى مناطق أقدم الامتيازات فى الشرقين الأدنى والاوسط . واصبحت ايران مالكة لبترولها ، رغم انها تعهدت بتصديره للاتحاد على امتداد ٢٠ — ٢٥ عاما « بأسعار خاصة » . غير أن هذه الأسعار لا يجب أن تقل عن الأسعار التى تحددها دول الخليج الأخرى .

اتخذت الدول المصدرة للبترول طرقا مختلفة نحو الاستقلال الاقتصادى . فسلكت بعضها سبيل طرد الاحتكارات الثورى ، ورفضت اخرى طريقة التأميم ، مفضلة التحولات التدريجية . ولكن أصبح من الواضح أن نظام الامتيازات وغيره من النظم شبه الاستعمارية لاستغلال الموارد البترولية قد زال مع الماضى .

تربيـــع الدائـــرة

شمل تأميم البترول فى دول الشرق الأوســـط وشـــمال أفريقيا رءوس الأموال الانجليزية والفرنسية بصفة أساسية الى حين . ولكن ليبيا تحركت من جديد فى صيف عام ١٩٧٣ بعد الاستنتاجات التى استخلصتها من نجاح التجربة العراقية . ففرضت حكومتها الاشراف على شركات « اوكسيدنتال بتروليوم » و « أويسيز » و « أموسيز » ثم على جميع الشركات الاجنبية فى البلاد ابتداء من أول ســـبتمبر . ولم يقدر الكثيرون فى الولايات المتحدة الامريكية « طلقات الانذار » هذه حق تقديرها ، على افتراض أن المصالح الامريكية الرئيســـية توجد فى شبه الجزيرة العربية ، وهناك من المستبعد أن تحدث « اية مفاجآت » ألم يسو « نظام المشاركة » كل نزاعات « الشـــقيقات السبع » مع الأنظمة الملكية المعتدلة فى شبه الجزيرة ؟

غير أن المشكلة خرجت عن مستوى العـــلاقات المتبادلة بين شركات البترول وحكومات الدول التى تقدم الامتيازات . فقد كانت تتعلق بالمركز الامريكى . فى العالم العربى كله ، وهو المركز الذى لم يكن الا ليتأثر بدور الولايات المتحدة الامريكية فى الصراع العربى الاسرائيلى .

حاول واضعوا الاستراتيجية فى واشنطن تربيع الدائرة ـــ أى الجمع بين « الأمن الطاقى للولايات المتحدة الامريكية » ومصـــالح احتكاراتها البترولية وتأييد النهج العدوانى الاسرائيلى . واذ كان الهدف الأول يتطلب تدعيم العلاقات مع الدول العربية ، ولو مع الدول المحافظة التى توجد بها الثروات البترولية الرئيسية ، فان الهدف الثانى كان يسير فى اتجاه مضاد . وشعر الكثيرون فى الدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة الامريكية بتناقض هذه السياســـة . وفى هذا الصدد تقول صحيفة « وول ستريت جورنال » واســـعة النفوذ « ان جوهر الموضوع هو أن على واشنطن أن تختـــار بين تسليح اسرائيل وملء خزانات الوقود الامريكية » .

قبل حرب اكتوبر عام١٩٧٣ أعد خبراء الشرقين الأدنى والاوسط

الامريكيون لوزارة الخارجية الامريكية ما يسمى « بالسياسة الوسط » التى تستهدف اخذ الموقف الجديد بمزيد من الاعتبار . ويرى هؤلاء الخبراء أنه يتعين على الولايات المتحدة الامريكية أن تتبع سياسة متوازنة مع كل من اسرائيل والدول العربية دون اتخاذ موقف موال لاسرائيل او للعرب . ورغم أن واشنطن تعهدت بضمان وجود اسرائيل ، الا أنهم اقترحوا على الحكومة الامريكية الاعتراف بأن مصالح الولايات المتحدة الامريكية لا تتفق كلها ومصالح اسرائيل .

وبدأ ممثلوا شركات البترول الامريكية فى اصدار تصريحات « موالية للعرب » بهدف الاستهلاك الخارجى . فقد صرح — على سبيل المثال — ميلر رئيس مجلس مديرى شركة « ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » قائلا : « يجب أن نبدى من جانبنا اهتماما بأمانى الشعوب العربية . وينبغى علينا تأييد محاولاتها لتحقيق السلام فى الشرق الأوسط » . ورغم أن الصهاينة حملوا على ادارة هذه الشركة الا أن الشركات البترولية الكبرى الأخرى أيدتها . وهنا زار السناتور جاكسون « الصقر » المعروف وممثل المؤسسة الصناعية العسكرية — وكأنه يرد عليهم قائلا : « ان لاسرائيل القوية اهمية بالغة الحيوية بالنسبة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ومنطقة الخليج الفارسى » .

لم يعكس هذا الجو التناقضات بين « القوى الموالية للعرب » شبه الخيالية فى واشنطن ، وبين القوى الحقيقية الموالية لاسرائيل . ان الأمر لا يخرج عن اختيار الأسلوب . فالبعض يرى ضرورة الاتفاق مع العرب ، والبعض الآخر يراهن على القوة الضاربة الاسرائيلية على أمل ارجاع حركة التحرر الوطنى الى الوراء بواسطتها ، وغرس انظمة استسلامية موالية للغرب فى المنطقة ، ثم تقرير أمور البترول بعد ذلك . وانتصرت وجهة النظر الثانية مما أدى بالدوائر الحاكمة الامريكية الى اخطاء استراتيجية كبيرة وتعين دفع ثمن هذه الأخطاء بأزمة الطاقة .

■

وقصف الرعد

فجرت حرب الشرق الأوسط الرابعة أزمة الطاقة . ففى ١٣ أكتوبر عام ١٩٧٣ اجتمع فى الكويت وزراء بترول الدول العربية . وكانت الحرب فى يومها السابع ، وكانت الدبابات تحترق ، والموت يذهب بالارواح فى سيناء ومرتفعات الجولان . وباتت القاهرة ودمشق ليالهما فى ظل التعتيم ، مع كثرة الانصات لعواء صفارات الانذار . وكان الوزراء يواجهون لا مساندة الجيوش العربية فى ميدان القتال فحسب ، بل استخدام « سلاح البترول » كذلك . وتبددت كل الشكوك فى جدية نوايا الدول العربية حين قررت خفض انتاج البترول بنسبة ٥ فى المائة شهريا حتى تخرج القوات الاسرائيلية من الأراضى المغتصبة . أما الواقع فقد خفضت المملكة العربية السعودية والكويت انتاج البترول بأكثر من ١٠ فى المائة على الفور.

وفى الفترة ما بين ٢٠ — ٢٢ أكتوبر أعلنت الدول العربية الواحدة تلو الأخرى وقف شحن البترول الى الولايات المتحدة الامريكية التى تمد اسرائيل بالسلاح ، ثم لهولندا من بعدها ، حيث اتخذت موقفا مواليا لاسرائيل . وانخفض انتاج البترول فى الدول العربية بنسبة الثلث تقريبا . وفرضت الدول العربية كذلك حظرا على شحنات البترول الخام لمصانع التكرير التى تصدر عادة المنتجات البترولية الى الولايات المتحدة الامريكية أو تبيعها للاسطول الامريكى. وأوقفت أوربا الغربية تصدير المنتجات البترولية الى الولايات المتحدة بما فيها المنتجات التى تستخرج من البترول غير العربى ، وذلك بهدف عدم الدخول فى خصام مع العرب .

واجتمع فى الوقت الذى كان يعقد فيه مؤتمر وزراء البترول العرب فى الكويت — ممثلوا الدول المصدرة للبترول فى منطقة الخليج بما فى ذلك ايران ، واتفقوا على رفع اسعار البترول بنسبة ٧٠ فى المائة تقريبا ، ثم ضاعفوا هذا السعر الجديد فى ديسمبر بعد اتفاق طهران .

الحظر البترولى

أجمل اليمانى وزير البترول فى المملكة العربية السعودية سياسة حظر البترول على الوجه التالى : « اذا كنتم معادين لنا ، فلن تحصلوا على البترول . واذا كنتم محايدين ، فسوف تحصلون عليه ، ولكن ليس بالكميات السابقة . واذا كانت علاقتكم بنا علاقة صداقة ، فسوف تحصلون عليه بنفس الكميات السابقة » .

بدأ العرب يفرقون فى تعاملهم مع الدول الرأسمالية المتقدمة. ولم يوقف العرب تماما مد غالبية دول أوربا الغربية واليابان بالبترول ولم يتعرضوا للامتيازات بعد . غير أن العراق وحده هو الذى أنزل ضربة مباشرة بالرأسمال الاجنبى ، حيث أمم فى اليوم التالى لبداية الحرب الممتلكات الامريكية فى شركة « البصرة بتروليوم » ، وكذلك نصيب هولندا من أسهم شركة « رويال — داتش شل » فى نفس الشركة .

حين قررت الدول العربية استخدام البترول لتحقيق أهدافها العادلة ، اتهمها الغرب « بتسييس » منتج تجارى . ولم تكن هذه المزاعم لتثير الا السخرية . فالبترول مسييس دائما . فمن غير الممكن الا تعى الذاكرة أن الدول الامبريالية قد أرسلت فرقا عسكرية لحماية مصالح « الشقيقات السبع » ، وارسلت قوات انزال لهذا الغرض ، ودبرت الانقلابات وخنقت الشعوب التى حاولت فرض سيطرتها على ثرواتها القومية . فلقد دارت دائرة التاريخ . وتصدق مجلة ، « اكسبريس » الفرنسية حين تقول : « ان دول الشرق الاوسط حرة فى استخدام مواردها بأفضل طريقة لخدمة مصالحها:

فان من حقها رفع أسعار البترول طبقا للطلب ، والحفاظ على حقول بترولها ، واستخدام رأسمالها الطبيعى فى صالحها ، وليس فى صالحنا ، أما الاستياء من أن الدول العربية تضعنا «تحت سلطتها» فلا يعنى سوى نسيان كيف كان الاوربيون والامريكيون (الدوائر الامبريالية فى أوربا وامريكا — المؤلف) يتصرفون ، ولا يزالون يتصرفون ، ازاء باقى دول العالم على امتداد مئات السنين ، حين يستطيعون التصرف » .

ورغم ذلك لم يكن الغرب يثق فى فعالية عمل الدول العربية المشترك فى جبهة البترول ، حيث كانوا يشيرون دائما ، بصفة خاصة ، الى حظر البترول عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، والذى كان مرتبطا كذلك بالحرب بين العرب واسرائيل . غير أن العرض آنذاك كان يفوق الطلب ، وكانت الاحتكارات تملك احتياطيات ضخمة من الوقود . وعلاوة على ذلك كانت الولايات المتحدة الامريكية تستطيع الاستغناء عن استيراد الوقود السائل . ولكن الموقف اختلف جذريا فى بداية السبعينيات .

كانت حكومة ليبيا قد خفضت عام ١٩٧١ انتاج البترول لتجنب استنزاف مواردها دون هوادة . واتبعت حكومتا الكويت وفنزويلا نهجها بعد مضى بعض من الوقت . وانخفض انتاج البترول فى الجزائر فى العام نفسه ، وفى العراق عام ١٩٧٢ نتيجة للحصار الذى فرضته الاحتكارات البترولية ردا على تأميم امتيازاتها . ولقد أدى انخفاض قيمة دخول الدول المصدرة للبترول من العملات الاجنبية نتيجة انخفاض سعر الدولار — الى ضعف الدافع لزيادة انتاج البترول دون مقابل مناسب . ونتيجة لذلك بدأ الاحساس بنقص البترول فى بداية السبعينيات . وأخذت احتياطيات الاحتكارات فى النفاذ ، وأصبح الوضع فى السوق العالمى لصالح البائعين .

كانت الاستراتيجية الغربية تقوم فيما مضى على أساس مقولة تنحصر فى القول المأثور : « العرب لا يستطيعون شرب بترولهم » أى أنهم لا يستطيعون العيش دون بيع بترولهم . والواقع أن الدول العربية لا تستطيع كلية استخدام الجزء الأكبر من الوقود السائل التى تنتجه . غير أن دول الجزيرة العربية البترولية ، وليبيا تملك

مدخرات هائلة من العملات والذهب مما يجعلها قادرة على العيش لمدة طويلة دون تصدير البترول بالمرة .

وكان الغرب يعتقد فيما سبق أن أى حظر للبترول لايمكن ان ينجح الا اذا اشتركت فيه كل الدول المنتجة للبترول . غير أنه فى هـذه المرة فلقد ضمن اشتراك عدد من كبرى الدول المنتجة للبترول فى الحظر نجاح العرب . ولم تنضم ايران — التى تعتبر ثانى مصدر للبترول فى العالم — الى الحظر ، ولكنها أعلنت انها لا تنوى زيادة الانتاج بكميات تزيد عما هو مقرر من قبل . وعلى كل حال لم يكن انتاج ايران ليغطى نقص مئات الملايين من الاطنان من البتـرول العربى فى السوق العالمى .

واخيرا ، كان من المعتقد أن التعاطف الموالى لامريكا لدى الأنظمة العربية « المعتدلة » سيكون أقوى من الاتجاهات المعادية لاسرائيل . ولكن الذى حدث أنه حتى الحكومات المحافظة فى شـبه الجزيرة العربية تعاونت مع الأنظمة التقدمية على أساس معاد لاسرائيل والامبريالية . فلقد دفعت اتجاهات الجماهير الأنظمة الملكية العربية الى ابداء تأييد أكثر حسما لسوريا ومصر والعراق . ولم تكن أية دولة بترولية من دول شبه الجزيرة العربية لتستطيع اغفال اعداد النازحين من الدول العربية الأخرى بها ، خاصة ذلك العنصر المثير المتمثل فى الفسلطينيين الذين يعملون هنا كعمال مهرة ومتوسطى المهارة . هذا الى جانب أنه من المستحيل اغفال الاحاسيس القومية والدينية لحكام شبه الجزيرة العربية .

ولعبت الدول البترولية فى الخليج بما فيها المملكة العربية السعودية بالذات دورا كبيرا فى تطبيق الحظر البترولى . وكانت المملكة العربية السعودية وحدها تمتلك من احتياطى البترول وامكانيات زيـادة الانتاج ما يمكنها من تقويض خطـوات كل الدول المنتجـة للبترول مجتمعة . ولكن الخلافات بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية كانت أكبر مما يبدو لأول وهلة رغم الروابط الوثيقة بينهما .

وكان الملك فيصل قبل عام من حرب أكتوبر قد حذر الولايات

المتحدة الامريكية من أن أى صدام عربى اسرائيلى جديد سيؤدى الى عواقب وخيمة ، وسيجعل فرض عقوبات تؤيدها المملكة العربية السعودية أمرا واقعا لا محالة . وبدأت الحرب وتبعها تنظيم جسر جوى لنقل الأسلحة الأمريكية لاسرائيل وتصريح الرئيس نيكسون أن الولايات المتحدة الامريكية ستقدم لاسرائيل مساعدات عسكرية مقدارها ملياران و ٢٠٠ مليون دولار . وكان من الممكن الا يعترض الملك فيصل على اجراء أية تعديلات فى الحدود فى فلسطين ولكنه بوصفه « حامى الأماكن المقدسة الاسلامية » لا يستطيع الموافقة على حل وسط فى المطالبة بعودة القدس القديمة للعرب . كما أنه كان هناك عامل شخصى آخر . فحين كان فيصل يقول أنه « رجل مسن ويود أن يصلى قبل موته فى مسجد عمر » فمن المحتمل الا يكون ذلك محض دعاية . وعلاوة على ذلك أضفى الحظر البترولى على المملكة العربية السعودية وزنا فى العالم العربى ، لم يكن لها من قبل ، رغم ازدياد نفوذها بعد وفاة الرئيس المصرى عبد الناصر .

أجبرت الدول العربية ، باستخدامها البترول كسلاح سياسى — المعسكر الامبريالى على دفع ثمن تأييده للسياسة التوسعية الاسرائيلية على امتداد سنوات طويلة . وعمقت قضية البترول الانقسام بين الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها فى حلف شمال الاطلنطى . ورفضت كل الدول الغربية ، عدا نظام سالازار فى البرتغال ، السماح باستخدام أراضيها لنقل الأسلحة الامريكية الى اسرائيل .

وصدرت الأوامر للقوات الامريكية فى العالم أجمع ، بما فى ذلك أوربا الغربية ، أثناء حرب أكتوبر أن تكون فى حالة الاستعداد القصوى . ولقد اتخذت هذه الخطوة دون مشاورات مسبقة مع حلفاء الولايات المتحدة الامريكية مما أثبت لهم من جديد كيف تنظر اليهم الدولة الرئيسية فى حلف شمال الاطلنطى . وأثارت موجة الاستياء التى عمت أوربا الغربية حملة من قذائف السباب عبر الأطلنطى ، كما أثارت الكرامة المهانة لدوائر الدول « التسع » التى رفعت منذ مدة طويلة شعار أن « السوق المشتركة التى تحولت الى عملاق اقتصادى لا يمكن أن تبقى قزما سياسيا » .

ولكن الدول التسع فى حاجة الى البترول كى تبقى « عمـــلاقا اقتصاديا » .

وفى ظل هذا الموقف شعرت دول السوق الأوربية المشتركة بصفة خاصة بضرورة التملص فى أعين الدول العربية من سياسة واشنطن الموالية لاسرائيل . والجدير بالذكر أن الدول العـربية العشر الأعضاء فى منظمة الدول العربية المصدرة للبترول ، قـد قررت فى ٥ نوفمبر عام ١٩٧٣ تخفيض انتاج البترول بنسبة ٢٥ فى المائة بالمقارنة بنسبة انتاجه فى سبتمبر وبنسبة تقل ٥ فى المـائة عن انتاجه فى نوفمبر . وجاء رد فعل أوربا الغربية على الفور . ففى صباح ٦ نوفمبر أصدرت حكومات الدول « التسع » بيانا حول الوضع فى الشرق الاوسط ، طالبت فيه بتنفيذ قرارات مجلس الأمن بعودة قوات أطراف النزاع الى المواقع التى كانت عليهـا يوم ٢٢ أكتوبر . والجدير بالذكر أن القوات الاسرائيلية خـرقت يوم ٢٢ أكتوبر قرار مجلس الأمن بوقف اطلاق النـار ، وقامت بعمليـات هجومية على مصر . وأعلنت الدول «التسع» ضرورة تنفيذ قرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧ بكل بنوده بما فى ذلك الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ .

كان المراقبون السياسيون يعتبرون السياسـة الخـارجية اليابانية قبل حرب الشرق الاوسط موالية لاسرائيل . وكان هـذا الموقف يتفق ووضع الشريك الاصغر لواشنطن . غـير أن وزارة الخارجية اليابانية أصدرت فى نهاية نوفمبر عام ١٩٧٣ بيانا هددت فيه بأن اليابان « سوف تعيد النظر فى سياستها تجاه اسرائيل » اذا « لم تسحب اسرائيل قواتها من الأراضى المحتلة فى حرب عام ١٩٦٧ » . واعربت طوكيو عن رغبتها فى قيام علاقات طيبة مع الدول المصدرة للبترول فى الشرقين الاوسط والأدنى . وارسلت الحكومة اليابانية بسرعة عددا من كبار المسئولين الى الدول العربية .

الـــواقـــع المـــبـــارد

ومع ذلك ، فقد تعين على العالم الرأسمالى أن يصطدم بالواقع البارد للموقف ، حين نقصت المادة الخام الباعثة للدفء . وكانت أولى مظاهر أزمة الطاقة فى الدول الصناعية الرأسمالية فى شتاء ١٩٧٣ / ١٩٧٤ البرد فى البيوت ، وشلل جزء من الصناعات ووسائل النقل ، وارتفاع الأسعار ، وتطبيق نظام توزيع منتجات البترول بالبطاقات . وفى ذروة الأزمة أصدر رؤساء الدول والحكومات ووزراء الاقتصاد تصريحات وبيانات وأحاديث صحفية مسهبة حول مشاكل الطاقة . وتكونت « غرف عمليات لتخطى الأزمة » واجتمعت مؤتمرات الخبراء على المستويين المحلى والدولى .

« عصر الظلام فى انتظارنا » ، « آفاق مظلمة » ، « تدهور العالم الغربى » ، « حرب الطاقة » — كانت هذه هى عناوين الصحف فى أوربا الغربية واليابان ، والتى كانت تنشر كل يوم تقريبا أنباء حول الاجراءات الجديدة لتوفير الوقود . وقارن الكثيرون بين الموقف الطارىء بأزمة عام ١٩٢٩ الاقتصادية .

وفرضت الولايات المتحدة الأمريكية قيودا على امدادات الوقود السائل للمؤسسات والمساكن والمدارس ، وأعلنت خطط معدلات استخدام المنتجات البترولية وزيادة الضرائب عليها . وتم لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية وضع معدلات لاستخدام المازوت .

ومنح الكونجرس للرئيس الأمريكى صلاحيات استثنائية نتيجة لأزمة الطاقة . وتم حظر الانتقال من استخدام الفحم الى البترول فى كل الصناعات ، وألغيت اجراءات حماية البيئة وخفضت شركات الطيران عدد رحلاتها ، وحددت ساعات العمل فى المدارس والمؤسسات والمحال . وطلبت الحكومة من السكان خفض درجة الحرارة فى المساكن لتوفير الطاقة . وهددت أكبر الأخطار الولايات

الشمالية الشرقية التى كانت تعتمد أكثر من غيرها على استيراد البترول العربى . وزاد الأمريكيون من انتاج البترول فى المياه الساحلية . واخذوا يتحدثون فى الولايات المتحدة الأمريكية عن « التحدى البترولى » واضعين اياه على قدم المساواة مع أعقد المشاكل التى واجهتها البلاد . وتم وضع برنامج يستهدف ضمان استقلال الولايات المتحدة فى الطاقة حتى عام ١٩٨٥ .

واخذت كل الدلائل تشير الى أن الموقف سيزداد سوءا قبل أن يبدأ فى التحسن . وابلغ خبراء البترول الرئيس الأمريكى أن حظر البترول العربى عرض الولايات المتحدة الأمريكية لخسائر مباشرة وغير مباشرة تقدر بـ ١٥٠ مليون طن فى العام . وضاعفت كندا — وهى من بين المصدرين الرئيسيين للبترول الى الولايات المتحدة — الضرائب خمسة اضعاف على تصدير البترول . واستخلص مدير احدى الشركات الأمريكية الكبرى من الموقف ما جعله يقول : « ان التعقيدات المنتظرة عام ١٩٧٤ ستكون فظيعة » .

وكتبت مجلة « فورتشون » تقول : « كانت الصناعة الأمريكية تسرف دائما فى الطاقة بصورة غير عادية ، ذلك لأن الطاقة بالغة الرخص مما يجعلها لا تستحق القلق بشأنها . وبفضل رخص أسعار البترول لم تزد تكاليف الطاقة التى تشتريها الصناعات التحويلية فى الولايات المتحدة الأمريكية الا بنسبة ٥ فى المائة فقط بالأسعار الجارية ما بين عام ١٩٥٨ حتى نهاية عام ١٩٧٠ ، فى الوقت الذى زادت فيه التكاليف الأخرى بسرعة . وعلى هذا النحو وجد أصحاب الصناعات فى كل مكان دافعا قويا لتغيير العمل الباهظ التكاليف بالطاقة الرخيصة . ومن الواضح الآن أن الصناعات التى تستخدم قدرا كبيرا من الطاقة ستتعرض لأسوأ الظروف ، مثل صناعات تكرير البترول ، والألمنيوم ، والصناعات الغذائية ، والكيماوية وصناعة الأسمنت ، والورق . وسيتعين عليها رفع أسعار منتجاتها أسرع من المجالات الأخرى » . وتستطرد المجلة مؤكدة أن « خفض الأجور الفعلية للعمال سيكون أول نتائج ارتفاع سعر الطاقة » .

أجبر حظر البترول العربى هولندا على حظر ركوب السيارات الخاصة ايام الاحاد . الا ان بلجيكا وألمانيا الاتحادية عانتا كذلك من الأزمة لأن امدادات البترول لكثير من دول أوربا الغربية تمر من ميناء روتردام الهولندى . وبدت الأفلام ، التى التقطت فى طرق السيارات بالمانيا الغربية وهولندا أيام الاحاد ، استمرارا لفيلم « على الشاطىء الأخير » الذى أخرجه المخرج كرامر ويصور فيه العالم بعد حرب نووية . وخفضت كبريات مصانع السيارات فى المانيا الاتحادية ساعات العمل فى الأسبوع مع خفض أجور الكادحين .

واعتلى رئيس وزراء احدى دول أوربا الغربية دراجة وسار بها بصورة استعراضية . وأوجد الطلب على الدراجات فى ايطاليا سوقا سوداء لوسيلة المواصلات المنسية تقريبا .

واعلن أصحاب الفنادق المرتفعة الأثمان فى باريس — والذين لا يفتقرون الى روح السخرية : « يقدم الفندق بالمجان البرسيم والتبن للزبائن الذين يصلون على الجياد » . وكان ذلك ضحكا من خلال الدموع . واضطرت صناعة السيارات فى فرنسا الى وقف انتاجها عدة أيام . وتعين على الحكومة خفض عدد رحلات شركات الطيران ، واختصار ساعات الارسال التليفزيونى ، وتقييد السرعة على الطرق .

وفى بريطانيا أقامت الأميرة آن وزوجها مأدبة زواجهما على ضوء الشموع .. مظهر رومانتيكى من جهة ، ويعكس التضامن مع مشاكل الأمة من جهة أخرى . وأعلن عمال المناجم البريطانيون انهم لن يعملوا وقتا اضافيا دون أجر مناسب . وفى الوقت نفسه تقريبا بدأت نقابة العاملين بالسكك الحديدية اضرابا لزيادة الأجور . وخفضت صناعة الصلب والكيماويات الانتاج . واتخذت حكومة المحافظين اجراء ليس له مثيل من قبل يقضى بتطبيق نظام العمل ثلاثة أيام فقط أسبوعيا بهدف رفض طلب عمال المناجم أجر ساعات العمل الاضافى . وخفضت شركات الطيران البريطانية عدد رحلاتها عبر الاطلنطى . وانطفأت فى لندن أضواء الكثير من الاعلانات . وأصدرت الحكومة أوامرها بخفض امداد المستهلك بالبنزين وغير ذلك من وقود .

« لقد تخلفت المعجزة اليابانية » ـــ هذا ما أجمل به الموقف فى قلق مدير احدى الشركات اليابانية الكبرى الواسعة النفوذ . وعقبت صحيفة « ماينيتى شيمبون » قائله : « ان البلاد تسير نحو كارثة حقيقية » . كان الاحساس بالقضاء المحتوم مبالغا فيه . لا شك أن عملاق الشرق الأقصى بدأ فى السعال وقد أصابته غصة حظر البترول العربى فجأة وساد الذعر البورصة وبدأ سعر الين فى الانخفاض . وبدا بعض اليابانيين يستعدون لمواجهة الأسوأ ، حيث أخذوا ، ولأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية ، فى تخزين المواد الغذائية . واخذت أسعار السلع الاستهلاكية ترتفع بسرعة فى اليـــابان .

لقد جاءت أزمة الطاقة قبل أوان توقعها . فقد كان من المقرر وفقا لتنبؤات الخبراء أن تبدأ فى العقد التالى ، ولكنها اشتعلت فى الواقع شتاء ١٩٧٣/١٩٧٤ . وتعقب مجلة « التايم » على الأزمة بقولها : « لم يؤد أى حدث منذ الحرب العالمية الثانية الى مثل هذه العواقب على المستوى الدولى الواسع مثلما أدت أزمة الطاقة . فان اكتشاف عدم توفر الوقود فجأة أجبر حكومات الدول الغربية على أن تدرك اخيرا ، أن عصر وفرة الطاقة الرخيصة قد انقضى ».

والواقع انه حين هدأت العاصفة التى أثارتها حرب أكتوبر وأوقف العرب حظر البترول ، اتضح ان المشكلة الرئيسية ليست نقص البترول ، بل ارتفاع سعره . ولقد قيم دافيد روكفلر رئيس « تشيزمانهاتن بنك » الموقف فى حديث صحفى لمجلة «يونيتد ستيتس نيوز اندورلد ريبورت » على النحو التالى :

سؤال : على كل ما الذى حدث « لأزمة البترول الكبرى » ؟

جواب : نتلقى فى الوقت الراهن ما فيه الكفاية من البترول والبنزين . ومن المرجح أن الكثيرين يعتقدون أنهم كانوا فريســة للخداع ، وانه لم يكن هناك نقص فى البترول بالمرة . وهذه وجهة نظر كاذبة تماما .

سؤال : لمـــاذا ؟

جواب : ذلك لأن الموقف الصعب المشوب بالأزمة (والتى أسرع الحظر العربى للبترول فى العام الماضى ببدايتها) ظل دون تغير من حيث الجوهر . فان انتاج البترول على امتداد سنوات عديدة لا يغطى الاحتياجات وهذه الهوة تزداد ، واعتقد أن مشكلة الطاقة ستظل دون حل سنوات طويلة .

سؤال : تقولون أن موقف شحنات البترول قد تحسن مؤقتا . هل تعتقدون فى امكانية ازدياد حدته من جديد ؟

جواب : هذا ليس مستبعدا . ان الموقف الراهن لا ينبغى أن يشعرنا بالطمأنينة .

سؤال : هل من المحتمل أن تظهر من جديد الطوابير فى محطات البنزين ؟

جواب : نعم من المحتمل . ان أزمة البنزين لم تكن حادة بدرجة واحدة فى كل أنحاء البلاد . فلم تصب هذه الأزمة عدة مناطق بدرجة شديدة نتيجة توزيع الوقود بصورة غير متوازنة . وأعتقد أن الحكومة اخطأت حين طبقت نظام توزيع الوقود دون اعداد دقيق . ومن الأهمية بمكان فى الوقت الراهن عدم الغاء الاجراءات الرامية الى توفير الطاقة ، والتى تم تطبيقها فترة الأزمة الصعبة مثل تحديد سرعة السيارات ، وخفض درجات حرارة الهواء فى الأماكن المغلقة ، وتوفير استخدام الاضاءة الكهربائية .

سؤال : يرى الكثيرون أن ارتفاع أسعار البترول ثلاث ــ أربع مرات بالمقارنة بأسعاره منذ عام مضى ، كان النتيجة الرئيسية لحظر البترول . هل هذا صحيح ؟

جواب : هذا تقدير سليم ، بلا جدال ، للوضع بالنسبة للبترول الخام ، اما بالنسبة لمنتجات البترول فالوضع مختلف . فقد ارتفعت أسعار البترول الخام ارتفاعا كبيرا وبسرعة . ولقد أدى هذا الى ظهور مشاكل فى ميزان المدفوعات ، والأهم من ذلك ، انتقال احتياطيات العملات من منطقة الى أخرى بالعالم .

سؤال : هل ستظل أسعار البترول كما هى عليه فى الوقت الحـــالى ؟

جواب : اعتقد اننا نخطىء خطأ فاحشا لو كنا نتوقع انخفاضها بدرجة كبيرة . كان من الممكن ان يكون انخفاض أسعار البترول ظاهرة ايجابية ، ولكن من المستبعد ان يحدث ذلك . وينبغى علينا أن ندرك ان أسعار المنتجات البترولية ظلت منخفضة وثابتة الى حد كبير فى الولايات المتحدة الأمريكية سنوات طويلة . ويمكن القول اننا كنا نعيش بالتقسيط . ولقد أصبح ارتفاع أسعار البترول حتميا . والواقع اننا لم نكن نتوقع ان الأسعار سترتفع بمثل هذه السرعة . ويرجع ذلك الى حدما الى استخدام الدول الرئيسية المصـــدرة للبترول أســلوب الاحتكار ، والى الحرب العـــربية الاسرائيلية الى حد ما والتى ادت الى الحظر البترولى العربى .

سؤال : الى أى مدى تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأخرى المستوردة للبترول بكميات كبيرة ـــ تحمل أعباء الأسعار المرتفعة ؟

جواب : هذه احدى المشاكل العالمية الرئيســـية فى الوقت الراهن . وسوف تزداد تعقدا فى المستقبل .

سؤال : تزداد قيمة البترول المستورد فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٤ من ٨ مليـــارات الى ٢٥ مليار دولار . فهل تستطيع تحمل تسرب الأموال على هذا النحو ؟

جواب : كنا نفضل بطبيعة الحال الا يحدث هذا . وهـــذا الوضع يخلق لنا المشاكل . ولكنا فى وضع أفضل بكثير من الدول المتقدمة صناعيا الأخرى لاننا نستورد كميات أقل بكثير من البترول من حيث النسبة المئوية . وعلاوة على ذلك لدينا مصادر أخـــرى للطاقة ، وعلى سبيل المثال ، الفحـــم والذى تبلغ احتياطياته فى الولايات المتحدة احجاما ضخمة . وسوف نتمكن مع مرور الوقت

من زيادة استخدام مصادر الطاقة الداخلية بدرجة كبيرة اذا اردنا ذلك .

سؤال : وماذا عن اليابان ، وايطاليا ، وفرنسا ، وهولندا ؟
جواب : يتعين على هذه الدول الاستسلام لحتمية انتقال احتياطياتها من العملات بكميات كبيرة الى الدول المنتجة للبترول . وسينخفض مستوى المعيشة فى الدول التى لن تستطيع ايجاد مصادر جديدة للطاقة او لن تستطيع خفض معدلات استهلاك البترول .

أزمة الطاقة والاحتكارات

أخذت الصحافة البرجوازية ، ومعها التليفزيون والاذاعة ، تبذل كل ما فى وسعها لاقناع السكان بأن الذنب فى كل ما حدث ذنب الدول العربية ، وذلك فى محاولة لتغطية تحميل الأعباء الرئيسية لأزمة البترول على عاتق الكادحين . ولم تصف وسائل الاعلام تصرفات الدول العربية الا بالابتزاز . ولكن حين تركز الاهتمام ، على مشاكل الطاقة ، وقع ضوء ساطع فجأة على نشاط « الشقيقات السبع » .

لقد أخذت تتكشف فى كل الدول الواحدة تلو الأخرى فضائح الشركات التابعة وتابع التابعة لهذه الأسرة الاحتكارية . ويعلن ويلى برانت مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية آنذاك : « من غير الممكن تعليل ارتفاع أسعار البترول بالأزمة وحدها . فان الكثيرين استفادوا من هذه الأزمة » . فقد استغلت « الشقيقات السبع » حالة الذعر التى أثارتها من جهة ، وخطوات الدول العربية من جهة أخرى — لترفع أسعار البترول وتنهب المستهلكين . فقد كانت « أزمة البترول » تخنق الغرب فى الوقت الذى كانت تفيض فيه المستودعات ومصانع التكرير بالبترول . وأخذت تتضخم هستيريا « نقص البترول » بشتى الطرق . وارتفعت أسعار البترول قدرا كبيرا ، وارتفعت معها أرقام أرباح الاحتكارات .

فى ١٩٧٤ اجتمع أصحاب أسهم شركة « ايكسون » فى لقائهم السنوى فى أحد المعابد الماسونية ، حيث أطلت من جدرانه صور مبشرى الماضى كونفوشيوس ، وموسى ، وعشتاروت ، وتحتها أسماء الشركات المساهمة مضاءة بالنيون الأحمر . وعلم اصحاب الأسهم أن دخل الشركة قد بلغ حوالى ٢ر٥ مليار دولار بزيادة ٩٠٠ مليون خلال العام . وساد السكون قاعة الاجتماع والذى لم يكن يقطعه سوى أصوات آلات التنبيه الصادرة من سيارات النقل التى كانت تحوم حول المعبد . فقد قام السائقون بمظاهرة للاحتجاج على أسعار الوقود المرتفعة .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الأمريكيين ، الذين تعودوا على الكثير . بدأوا يفكرون حين علموا أن ٢١ شركة بترولية حققت عام ١٩٧٣ أرباحا بلغت حوالى ١٠ مليارات من الدولارات ، أى ضعف ما حققته شركات السيارات والصلب . لقد زادت الأرباح فى صناعة البترول حوالى ٦٠ فى المائة فى عام . ولقد حققت « الشقيقات الخمس الأمريكيات » أكبر قدر من الربح خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية . فقد بلغت أرباح شركة « أرامكو » الصافية وحدها عام ١٩٧٣ مبلغ ٣ مليارات من الدولارات .

وحاولت شركات البترول الكبرى التملص من الاتهامات التى تنهال عليها . وجاء فى البيان الذى أصدرته شركة « تكساكو » فى ١٥٠ صحيفة : « اننا لا نخفى شيئا » . أما شركة « شل » فقد تساءلت على صفحات ٢٥٠ صحيفة : « هل يستطيع أحد أن يصف أرباحنا بأنها فاحشة ؟ » أما كينيت جيمزون رئيس شركة « ايكسون » فقد استقبل مراسلى الصحافة فى مكتبه بمبنى الشركة المكون من ٥٠ طابقا فى وسط منهاتن وأعلن لهم : « اعتقد أن صناعتنا لا تقول الآن سوى عبارة : اتركونا وشأننا . لقد حققنا أكبر قدر من الأرباح من أوربا ، وجزء منه من اليابان . ويرجع ذلك الى ازدياد حجم المبيعات وكذلك الى ارتفاع أسعار البترول بدرجة كبيرة . فقد ظلت أسعار البترول الأوربية منخفضة جدا لسنوات طويلة . ولكن طالما طرأت الصعوبات على امدادات البترول ، يظهر مفعول قانون العرض والطلب وترتفع الأسعار .

ونتيجة لذلك ارتفعت أسعارنا فى أوربا . ولكنها لم تصل الى مستوى فاحش على الاطلاق » .

من الواضح أن الدول العربية وايران كانت ترفع أسعار البترول انطلاقا من مصالحها الذاتية أولا واخيرا . غير ان الصحفى الأمريكى المطلع جاك اندرسون كشف عن حقائق بالغة الاثارة حول نشاط اكبر شركة لانتاج البترول فى العالم ، وهى شركة « أرامكو »، والتى تساهم فيها أربع شقيقات من « الشقيقات السبع » . ولقد نشرت مجلة « سكيتش » اللبنانية حديثا تفصيليا معه . وتختلف الصورة التى رسمها اندرسون اختلافا جوهريا عما حاول الايحاء به أساطين البترول للرأى العام .

« سكيتش » : هل لكم أن تحدثونا بالتفصيل عن خدع شركة ارامكو فيما يتعلق بالأسعار ، ولماذا اتجهت هذا الاتجاه ؟

اندرسون : لقد تمكنا من التعرف على بعض الوثائق السرية لاتحاد شركات البترول المسمى « أرامكو » . وتثبت هذه الوثائق أن شركة أرامكو كانت تشجع على رفع أسعار البترول فى الشرق الأوسط . وكانت لديها أسباب اقتصادية للقيام بذلك . فقد كانت تريد المزيد من المال لأن هذا المزيد ضرورى لتطوير بعض مصادر الطاقة التى لا تستغل فى الوقت الراهن فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث يشعر المساهمون فى شركة « أرامكو » انهم سوف يحتاجون الى هذه الحقول انطلاقا من خوفهم من فقد امتيازاتهم فى الشرق الأوسط .

« سكيتش » : وكيف توصل أصحاب « أرامكو » الى هذا ؟

اندرسون : لقد حثت هذه الشركات السعوديين فى يونيو ١٩٧٣ على زيادة الضرائب على شركة «أرامكو» . ولقد أدى ذلك الى رفع الأسعار . ولكن الشركات ستخفض ما تدفعه لحكومة الولايات المتحدة بنفس القدر الذى تدفعه للمملكة العربية السعودية كضرائب .

ويستطرد اندرسون قائلا أن « أرامكو » تزعم الآن فى مجلس الشيوخ الأمريكى أنها كانت تعمل على تخفيض أسعار البترول

وليس زيادتها . ولكن هذا لم يحدث الا بعد ما أصبح من غير الممكن التحكم فى زيادة أسعاره ، وبعد ما رفعت ايران والدول الأخرى المنتجة للبترول الأسعار بدرجة اثرت فى العالم أجمع . والواقع أن « أرامكو » أصرت بعد ذلك على أن يكبح السعوديون ارتفاع الأسعار ، بل ويخفضوها . واذا تابعت الأنباء اليوم فستجد أن السعوديين يقومون بذلك الآن . لقد رأيت الوثائق السرية لشركة « أرامكو » واستطيع أن أؤكد لك أن الشركة تشعر بالقلق من امكانية فقد امتيازاتها البترولية ، او التأميم فى الشرق الأوسط ان الولايات المتحدة الأمريكية لا تتحكم فى ايران أو المملكة العربية السعودية . اننا نعمل معهما ، ولكن تأثيرنا فيهما محدود بسبب تأييدنا لاسرائيل بصفة رئيسية ، وهذا ما يثير غضب الملك فيصل . ولكنا نخوض لعبة ديبلوماسية دقيقة فى الشرق الأوسط .

« سكيتش » : هل ترى فى تعيين ريتشارد هيلمز مدير وكالة المخابرات المركزية السابق سفيرا فى ايران أمرا له مغزاه ؟

اندرسون : نعم أرى ذلك .

كانت « الشقيقات السبع » تحقق غالبية أرباحها من انتاج وبيع البترول الخام ، أى عن طريق استغلال الدول الأعضاء فى منظمة الأوبيك رغم أن الشركات التابعة وتابعة التابعة كانت تتصيد الأرباح وفقا للموقف فى مختلف مراحل دورة البترول وتكريره . وكانت الشركات تحصل فى الأربعينات على ٨٢ دولارا من كل ١٠٠ دولار من الأرباح ، حين كانت الدول المنتجة تحصل على الـ ١٨ دولارا الباقية . وأصبحت هذه النسبة فى فترة العمل بمبدأ « النصف بالنصف » ٦٨ الى ٣٢ ، وأصبحت عام ١٩٧٠ — ٣٠ الى ٧٠ . وقبيل نهاية عام ١٩٧٣ كانت الدول المصدرة للبترول تحصل على كل الدخل تقريبا من عمليات بيع البترول . وفى العام التالى زادت الدول البترولية فى شبه الجزيرة العربية الواحدة تلو الأخرى حصتها فى أسهم شركات الامتيازات حتى ٦٠ فى المائة من الأسهم ، ثم فرضت سيطرتها كاملة على هذه الشركات ، وان كان ذلك مع التعويض . وبهذا انتهى نظام الامتيازات .

وفى هذا يقول ماكفيدزن المدير العام لمجموعة « شل » : « حين تسيطر الحكومات (دول الأوبيك) سيطرة كاملة أو جزئية

على انتاج البترول وتحرمنا من دخولنا من بيع الزيت الخام ، فاننا سوف نحصل على الدخول من عمليات نقل ، وتكرير ، وترويج البترول » . ورغم أن هذه الكلمات ليست كشفا جديدا ، الا انها توضح الى حد كبير الموقف السائد فى العالم الرأسمالى .

منظمة مضادة للأوبيك

اذا كانت مراكز « الشقيقات السبع » قد ضعفت نسبيا فى المجال الدولى بصفة عامة ، فانها قد تدعمت تدعما نسبيا ومطلقا فى الدول الرأسمالية المتقدمة . ولا يدور الحديث عن دخولها فقط . فان ارتفاع أسعار البترول يجعل استغلال مناجم الفحم ، ورمال البيتومين والطين الصفحى ، والطاقة الذرية — أمرا مفيدا من الناحية الاقتصادية . وكانت « الشقيقات السبع » قد احتلت مراكز رئيسية فى كل هذه المجالات من قبل ، وضمنت لنفسها مكان الصدارة فى اعادة بناء الاقتصاد المقبل نتيجة لارتفاع أسعار الوقود السائل .

يمثل الاتحاد الدولى لشركات البترول المصالح الأمريكية أولا وقبل كل شىء ، ولذا تصبح الاحتكارات الأمريكية فى وضع أفضل من منافسيها فى ظل أزمة الطاقة . فهذه الاحتكارات متقدمة فى مجالات العلم والتكنيك ، ولها خبرات ومرونة أكبر فى تطبيق انجازات العلم والتكنولوجيا كما أن رءوس أموالها أكثر ، وأسواقها أوسع . وتغطى مصادر الطاقة الأمريكية ٨٥ فى المائة من احتياجات الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، وهذا يعنى أن نقل الأموال الى الدول المصدرة للبترول (دول الأوبيك) سيكون فى المرحلة الراهنة بالدرجة الأولى على حساب اليابان وأوربا الغربية.

تقدمت واشنطن فى بداية عام ١٩٧٤ بخطة تخطى أزمة الطاقة تدريجيا . وفى هذا كتب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لزملائه فى الدول الرأسمالية المتقدمة ، يقول : « ان الموقف فى مجال الطاقة الآن يهدد باطلاق قوى سياسية واقتصادية من شأنها

أن تلحق برفاهية واستقرار العالم أضرارا ضخمة ولا يمكن اصلاحها » واقترح انشاء منظمة الدول المستوردة للبترول ، وهى بمثابة منظمة مضادة للاوبيك .

ولكن أزمة الطاقة لم تعمل على تضافر الغرب بالمرة . « فأوربا مستاءة من الولايات المتحدة ، والولايات المتحدة مستاءة من تصرف أوربا — كما تقول « نيوزويك » الأسبوعية — لقد اختلط الأمر على الناس كلية ذلك لأن فوضى السلام غير الوطيد هذا تحل محل وضوح الحرب الفظيع » . لقد كانت لدى واشنطن كل الدلائل التى تجعلها تخشى أن تؤدى الرغبة فى اطفاء ظمأ البترول الى اجبار دول أوربا الغربية على المزيد من عدم مساندة سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، والبحث عن روابط وحلول وسط مع الدول المصدرة للبترول بصورة مستقلة عن الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت دول أوربا الغربية واليابان تخشى بدورها من أن الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث توجد خمس من « الشقيقات السبع » ، وحيث الاعتماد على استيراد البترول لا يزال أقل مما لدى الدول الأخرى — سوف تحاول جنى الثمار وحدها من وراء الصعاب الاقتصادية ، التى شملت العالم الرأسمالى .

وحين بدأت واشنطن تتحدث عن ضرورة العمل المشترك للدول المستهلكة للبترول ، اتضح أن التحليل الأمريكى لا يختلف فى شىء عن براهين « الشقيقات السبع » . فقد أكد ماكفيدزن ممثل الاتحاد الدولى لشركات البترول قائلا : « كنت أرى دائما انه من الضرورى فى حالة النقص الشديد فى البترول أن يكون هناك نظام لتوزيع البترول على أساس من التنسيق . وعلى هذا ينبغى توحيد جهود الحكومات » . ولذلك رأى الكثيرون فى الدعوة لانشاء « المنظمة المضادة للاوبيك » الرغبة فى احياء وتدعيم مراكز الاحتكارات الأمريكية المسيطرة فى السوق الرأسمالى العالمى ، وربط حكومات أوربا الغربية واليابان بواشنطن بصورة أقوى .

وفى الفترة ما بين ١١ و ١٣ فبراير عام ١٩٧٤ عقد فى العاصمة الأمريكية مؤتمر مغلق لممثلى الدول المستوردة للبترول : الولايات المتحدة الأمريكية ودول السوق الأوربية المشتركة التسع ، وكذلك اليابان وكندا والنرويج .

وناقش المجتمعون مشاكل أزمة الطاقة ، التى زادت حدتها . غير أن وثائق المؤتمر ، والبيان الصادر عنه ، والعديد من التعليقات تشير الى أن المؤتمر لم يعقد بسبب البترول وحده . فهناك صراع ناتج عن التوزيع الجديد للقوى داخل العالم الرأسمالى . فقد أخذت التناقضات تنخر دول الاطلنطى ، ولذا ظهرت فى واشنطن منذ عدة سنوات فكرة وضع « ميثاق اطلنطى جديد » من شأنه أن يوحد الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية واليابان ، مع الحفاظ فى الوقت نفسه على الولايات المتحدة فى مركز القيادة . وكانت واشنطن تستهدف ، باثارتها قضية السياسة البترولية المشتركة — استخدام أزمة الطاقة لاعادة سيطرتها على دول الاطلنطى فى ظل الظروف الجديدة ، وضمان أرباح طائلة للاحتكارات البترولية فى المستقبل . غير أن خطط الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن خافية عن حلفائها ، ولذا لاقت مقاومة . ويعلق مراسل « التايمز » البريطانية فى واشنطن على سير أعمال المؤتمر بقوله : « من غير الممكن المبالغة فيما اعترى الولايات المتحدة الأمريكية من خيبة أمل ، بل ومن يأس مرجعه أن حلفاءها . يعرقلون ، ومن وجهة نظرها ، محاولات الأمريكيين فى تكوين جبهة موحدة للدول المستهلكة للبترول » .

ولم يتمكن أعضاء « مجموعة التنسيق الخاصة بالطاقة » — والتى تضم ممثلى ١٣ دولة اشتركت فى مؤتمر واشنطن — من الوصول الى اتفاق مبدئى حول مشكلة البترول الا بعد نصف عام . وقرر أعضاء المجموعة خفض استهلاك البترول بنسبة ٧ — ١٠ فى المائة فى حالة ظهور أزمة جديدة فى الطاقة ، وتوحيد احتياطييهم من الوقود السائل . وفى نوفمبر عام ١٩٧٤ أعلنت الدول الرأسمالية المتقدمة صناعيا انشاء وكالة الطاقة الدولية . غير أن فرنسا وفنلندا واليونان رفضت الانضمام اليها . وهكذا جاءت نتيجة جهود واشنطن شهورا طويلة لتوحيد الدول الرأسمالية الكبرى — المستهلكة للوقود والخام — جاءت غير مقنعة . وعلى هذا النحو لم يكتب « للمنظمة المضادة للاوبيك » أن تولد عام ١٩٧٤ .

وحاولت واشنطن تنشيط وكالة الطاقة الدولية عام ١٩٧٥ وجعلها سلاحا فعالا فى محاربة الدول النامية . فلقد حدد أعضاء

الوكالة فى المؤتمر الذى عقد فى باريس فى بداية فبراير — أهدافهم بخفض وارداتهم من البترول بنسبة ١٠ فى المائة ، أو حوالى ١٠٠ مليون طن فى العام ، والاسراع بتطوير مصادر الطاقة الأخرى ، وتخفيض أسعار الوقود السائل . غير أن منظمى المؤتمر كانوا يأخذون فى اعتبارهم أن مثل هذه السياسة تحمل بين طياتها تناقضات خطيرة ، ذلك لأن رخص البترول من شأنه أن يجعل الكثير من أنواع الطاقة غير ذات نفع اقتصادى ، كما يجعل الاستثمارات الضخمة غير ذات معنى . وكان المخرج المقترح من هذا الوضع هو اجبار أعضاء الأوبيك على تخفيض أسعار الزيت الخام والاحتفاظ بارتفاع هذه الأسعار داخل الدول المستوردة للبترول عن طريق فرض الضرائب الجمركية المناسبة . وعلى هذا النحو يمكن لرأس مال الدولة الاحتكارى الحصول من جديد على جزء كبير من تكاليف البترول الخام ليكون تحت تصرفه ، ويجبر الدول النامية المصدرة للبترول من جهة ، وجماهير المستهلكين فى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية واليابان من جهة أخرى — على دفع ما تحتاجه اعادة بناء الاقتصاد الرأسمالى العالمى .

وكان أعضاء الأوبيك يرون أنه من الضرورى الربط بين أسعار البترول وأسعار السلع الرئيسية التى تصدرها لهم الدول الصناعية الرأسمالية . ودعت الأوبيك فى مؤتمرها الذى عقد فى الجزائر عام ١٩٧٥ الى حوار سلمى بين الدول النامية والدول المتقدمة لوضع التعاون الدولى على أسس من التكافؤ والمنفعة المتبادلة .

وحاولت أوربا الغربية واليابان اقامة اتصالات مباشرة مع الدول المنتجة للبترول وتجنب المواجهة معها فى المرحلة الحالية . وأخذت الدول الرأسمالية تعقد الواحدة تلو الأخرى صفقات لتوريد المعدات الصناعية ، بل والسلاح فى بعض الأحيان فى مقابل البترول، متجنبة فى ذلك وساطة « الشقيقات السبع » . وناقش المسئولون فى أوربا الغربية قضية التعاون الاقليمى الواسع مع العالم العربى . ولقد جاءت الدعوة الى مثل هذا التعاون على لسان المستعمرين السابقين بصورة مؤثرة . فتناشد صحيفة « لموند » الفرنسية الدول النامية قائلة : « لا يوجد لدى الأوربيين مطامع امبريالية . فانهم لا يسعون الى عقد أحلاف عسكرية ، كما أنهم لا يعتبرون

أنفسهم رجال بوليس من نوع خاص لحماية الحضارة . ولا توجد لديهم مناطق نفوذ يمكن الدفاع عنها . فيمكن لأوربا أن تقدم « للعالم الثالث » معارفها العلمية والتكنولوجية بجانب تجربة الدول الصناعية . وتستطيع أوربا مساعدة الدول النامية على الوقوف على قدميها ، وتنفيذ خطط التنمية التى تتيح لها تحويل المواد الخام محليا . ويمكن فهم الدول العربية ، حيث رأت مواردها تستنزف فقررت وضع حد لهذا الاستنزاف » .

فى بداية مارس عام ١٩٧٤ اجتمع وزراء خارجية دول السوق الأوربية المشتركة اجتماعا قصيرا فى بروكسل ، وقرروا اجراء مفاوضات مع الدول العربية بهدف تطوير التعاون الاقتصادى والعلمى والفنى . واعربت واشنطن عن استيائها من الخطوة التى اتخذتها دول السوق التسع دون مشاورة الولايات المتحدة الأمريكية، ثم ادركت انه ما من شىء يمكن عمله . وفى ٣٠ يونيو كون الأعضاء التسعة فى السوق الأوربية المشتركة والأعضاء العشرون فى جامعة الدول العربية ــ لجنة أوربية ــ عربية « لتحديد أفضل طرق التعاون أثمارا » . ولكن اذا كان الأوربيون قد اكدوا على الجانب الاقتصادى للعلاقات ، فان العرب اصروا على أن تبدى الدول التسع تأييدا اكثر حسما لسياستهم فى صراع الشرق الأوسط .

سعت الولايات المتحدة الأمريكية الى تدعيم مراكزها فى المملكة العربية السعودية بالمرتبة الأولى ، حيث تعتبر مستودع البترول الرئيسى فى حوض الخليج . واصرت الرياض عقب انسحاب القوات الاسرائيلية من جزء بسيط من الأراضى العربية المحتلة ــ على الغاء الحظر البترولى ثم بدأت بعد ذلك حملة تستهدف تخفيض أسعار البترول . ويصعب التطرق الى مدى صدق هذه الجهود ذلك لأن أسعار البترول لم تنخفض ، بل زادت اكثر خلال عامى ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ . وعلى كل حال لم يزد انتاج البترول فى المملكة العربية السعودية بدرجة تجعل من خفض الأسعار أمرا ممكنا .

ورأى الملك فيصل أن العلاقات الوطيدة بين المملكة العربية السعودية وواشنطن قد « ساعدت القضية العربية » ، وبدأت حكومته فى الوقت نفسه التفاوض مع الولايات المتحدة الأمريكية

حول التعاون العسكرى والفنى . وفى يونيو ١٩٧٤ قام الرئيس نيكسون بزيارة المملكة العربية السعودية ، ثم وصل الى المملكة عقب هذه الزيارة ويليام سايمون وزير المالية الأمريكى . واسرف كلاهما فى الابتسام وحصلا على تأكيدات بأن البترول سيواصل تدفقه الى الولايات المتحدة بكميات متزايدة ، وان السعوديين سوف يستثمرون جزءا كبيرا من المليارات ، التى يحصلون عليها من البترول ، فى الولايات المتحدة . وتعلق مجلة « يونيتد ستيتس نيوزاند ورلد ريبورت » على زيارة سايمون بقولها : «ان الاستجداء دور لم يتعود الأمريكيون عليه ، ولكنه دور يتناقض تماما مع ما لاقاه سايمون خلال زياراته فى الشرق الأوسط وأوربا الغربية » .

وفى صيف عام ١٩٧٤ وقع كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى والأمير فهد بن عبد العزيز اتفاقا يقضى بانشاء لجان مشتركة للتعاون الاقتصادى وقضايا الأمن . ووعد الأمريكيون بتقديم كل ما تحتاجه العربية السعودية لتطوير اقتصادها ، ولكنهم زعموا أن الشكل الجديد للعلاقات العسكرية لا يتضمن أية «التزامات» من جانب الولايات المتحدة الأمريكية . وقل من كان يشك فى أن الحديث كان يدور رغم ذلك عن حلف عسكرى ذى فعالية محدودة .

وأعلنت واشنطون عن ارتياحها لتطور العلاقات مع المملكة العربية السعودية ، ولكنها ابدت بشكل خفى مخاوفها من تصدع تحالفها مع السعودية اذا ما اشتعل فتيل الصراع فى الشرق الأوسط من جديد . وفى هذا تقول مجلة « نيوزويك » : « من الممكن أن تصبح الصداقة مع المملكة العربية السعودية وسط فوضى عالم الحياة السياسية العربية — من حكايات الماضى » .

جذور عميقة

أخذ « المتفاءلون بالتكنولوجيا » فى الغرب يهدئون الرأى العام حين بدرت منذ عدة سنوات أولى الدلائل المزعجة لأزمة الطاقة . فقد كانوا يرون أن أسعار بعض أنواع الخامات سوف ترتفع تدريجيا

وبقدر استنفادها ، وهذا من شأنه أن يؤدى الى التوفير منهـــا والانتقال الى المواد البديلة الأكثر انتشارا فى الطبيعة . ولم يؤكد الواقع تفاؤل « خبراء القرن العشرين حسنى النية » هؤلاء . فقد اكدت حرب البترول ١٩٧٣/١٩٧٤ انه من غير الممكن حتى الحديث عن التدرج أو التنظيم العفوى للاستهلاك أو التنسيق بين العرض والطلب فى ظل النظام الرأسمالى . غير أن تطور أزمة الطـــاقة اضفى اهمية كبرى على حقيقة ، تجسدت فى أن قاع المستودعات بدأ يتعرى بالنسبة لبعض أنواع الوقود .

ترسبت وانضغطت فى الأرض منـــذ ملايين سنة مضت بقايا عضوية وتحولت مع مرور الزمن الى فحم حجـــرى ، وبترول ، وغاز . والواقع أن طاقة الشمس محفوظة فيها . وكان يبـــدو فيما مضى أن احتياطيات الوقود المكتشف لا تنضب ، أما الآن فمن المعروف أنها ليست أبدية على الاطلاق . فتســـتغل البشرية فى تطورها موارد الخامات فى العالم بقدر متزايد ومعدلات سريعة . ولكن اذا كانت عملية تطور القوى الانتاجية عملية لا نهائيـــة ، فان بعض أنواع الموارد الطبيعية محدودة .

لقد زاد استهلاك العالم من الطاقة خلال النصف الأول من هذا القرن ثلاث مرات ، ثم تضاعف ثلاث مرات بعد ذلك خـــلال عشرين عاما فقط . واذا عاد الانسان المعاصر الى عصر روما القديمة لوجدناه يغطى احتياجاته العادية من الطاقة بما يوازى القـــوة العضلية لـــ ٨٠ عبدا . وكان الحطب المصدر الرئيسى للطاقة فى بداية القرن الماضى . وغذى الفحم الرأسمالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، ثم حـــل محله الوقود السائل والوقود الغازى . ولقد انخفض نصيب الفحم فى ميزان الطاقة العالمى فى الفترة من ١٩٢٩ حتى نهاية ١٩٧٠ من ٨٠ الى ٣٥ فى المـــائة ، أما الثقل النوعى للبترول والغاز فقـــد ارتفع من ١٩ الى ٦٣ فى المـــائة . ويغطى البترول فى أوربا الغربية الآن حوالى ٦٠ فى المـــائة من احتياجات الطاقة ، ويغطى الغـــاز ٦ فى المـــائة ، وتبلغ النسبة فى الولايات المتحدة الأمريكية ٤٤ فى المـــائة بالنسبة للبترول و ٣٣ فى المـــائة بالنسبة للغاز . وتبـــلغ نسبة البترول ٨٥ فى المـــائة من الطاقة المستهلكة فى اليابان .

كان من المتوقع أن يزداد الطلب على البترول فى العـــالم الرأسمالى من أكثر من مليارى طن عـــام ١٩٧٣ الى حوالى ٤ مليارات طن عـــام ١٩٨٥ . وكان من المقرر انتاج كمية من البترول خلال الـ ١٥ عاما المقبلة تفوق كل ما تم انتاجه خلال تاريخ صـــناعة البترول كله . ولكن سرعان ما أصبحت امكانية تحقيق مثل هذه التنبؤات موضع شـــك . ولهذا دلائله الواضحة . ورغم ذلك فانهم لا يزالون يعلقون آمالا كبارا على البترول حتى يومنا هذا . فيقـــوم الجيولوجيون بالبحث عن الوقود الســـائل فى صـــحارى القطب الشـــمالى الجليـــدية ، وفى أدغـــال افريقيـــا وأمريكا الجنوبية ، وفى قـــاع البحار والمحيطـــات . وهذا من شـــأنه أن يزيد تكاليف الانتاج . وفى هذا تقول مجلة « شترين » الألمانية الغربية : « ان استغلال حقل واحد فقط فى بحر الشمال باهظ التكاليف التى تتساوى مع تكاليف الرحلة الى القمر ، وذلك نتيجة لحجم الاستثمارات التى ليس لهـــا مثيل من قبل » . ولا شك أن الاستثمار بهذه الاحجام مشـــوب بالمخاطرة حتى بالنســـبة للاحتكارات العملاقة .

من غير الممكن أن يحل استغلال احتياطيات البترول والغـــاز فى مياه بحر الشمال ، والذى بدأ منذ عدة سنوات ، مشكلة الطاقة فى أوربا الغربية فى المستقبل القريب . فان بترول بحر الشمال سيغطى بعد عدة سنوات خمس احتياجات أوربا الغربية على أحسن الفروض . ولم يتم اكتشاف البترول بعد فى مناطق احتمالات وجود البترول فى مياه البحر الأحمر وخليج تونكين . ونهاية المطاف فان منطقة الخليج العربى سوف تطفىء ظمأ الغرب الطاقى فى السنوات القادمة بصورة رئيسية .

كان من الممكن أن يصل انتاج البترول فى نهاية هذا القرن الى ٢٠ مليار طن فى العـــام وفقا للتنبؤات المبنية على معدلات زيادة انتاجه فى الستينيات . وحتى لو افترضنا وجود اكتشافات جديدة كبيرة فان خطر الاستنزاف التام لاحتياطيات البترول يهدد العـــالم الرأسمالى . فان الاحتكارات الدولية ، والتى تســـتأثر « بالقشدة » من أفضل وأرخص أنواع خامات الطاقة ، تسرف بلا عقل فى أكثر أنواع الوقود منالا مقوضة بذلك مستقبل التطور .

وتنبع فعالية نشاط الدول العربية فى جبهة البترول من معين

آخر كذلك ، جاء ذكره عرضا ـــ الا وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية ـــ المستهلك الرئيسى للوقود السائل فى العالم الرأسمالى ـــ قد أصبحت المستورد الرئيسى له فى السنوات الأخيرة . فقد بدأت مضخات آبار البترول الأمريكية ، عدا آبار الاســكا ، تعمل لأول مرة بكل طاقتها ورغم ذلك عجزت عن تغطية طلب البلاد للوقود السائل . ولن يغطى انتاج البترول فى الاسكا حقول تكساس واوكلاهوما المنهكة استنزافا . ولقد استوردت الولايات المتحدة الأمريكية عــام ١٩٧٣ حوالى ٣٠٠ مليون طن من البترول ، وعليها ان تستورد وفقا للتقديرات المتفائلة ٧٥٠ مليون طن عــام ١٩٨٥ ـــ أى نصف حجم الاستهلاك اذ لم تعط الاجراءات الطارئة نتائجها المرجوة .

لا جدال أن الغاز الطبيعى أرخص أنواع الوقود وافضلها فى الاستخدام ، فضلا عن نظافة استخدامه نسبيا . غير أن الأمريكيين يحرقون غازهم بصورة اسرع من اكتشاف حقول جديدة له فى بلدهم . ويشير غالبية الخبراء الى أن نصيبه فى موارد الطاقة فى الولايات المتحدة الأمريكية سينخفض انخفاضا كبيرا خلال الثلاثين عاما المقبلة . ولقد اعلنت شركة الغاز فى الولايات المتحدة أنها ترفض تسجيل مستهلكين جــدد . وتعلق الآمال على استخلاص الغاز من الفحم الحجرى ، ولكن هذه العملية باهظة التكاليف .

ويعلق ج. لينكولن أحد المسئولين فى البيت الأبيض على نقص الطاقة فى الولايات المتحدة بقوله : « ان مصير مجتمعنا ، ووضعنا فى العــالم ونمط حياتنا ، واهدافنا ـــ كل هذا يعتمد على الكيفية التى ستتخطى بهــا الولايات المتحدة الأمريكية نقص الطاقة بها » . ورغم أن المتفائلين يؤكدون أن مصادر الطاقة لن تنضب تماما ، الا أن الأرقام لا تدع مجالا للوهم .

والواقع أنه يوجد الطين الصفحى الحامل للبترول وهو عبارة عن احجار صخرية صلبة ثقيلة سطحها غامق اللون املس . واحتياطيات الطين الصفحى فى الولايات المتحدة ضخمة . ويلعب البترول فى الطين الصفحى دور مادة تماسك جزئيات الصخور . غير ان استخلاص البترول يحتاج الى عمليات تكنولوجية جديدة وما يرتبط بذلك من استثمارات ضخمة .

تبلغ احتياطيات الفحم فى الولايات المتحدة الأمريكية مئات عديدة من مليارات الاطنان . غير أن الفحم يحتوى على الكثير جدا من الرواسب الكبريتية ، التى تكون بالاختلاط مع رطوبة الجو حامضا يأكل رئة الانسان والصلب والمرمر . ولقد اصبح استخراج الفحم مشكلة فى حد ذاته ، حيث يحدث آثارا تدميرية بالارض خاصة بعد استخدام طريقة المناجم المكشوفة . فتقوم البولدوزرات والكراكات « بنهش » سلاسل الجبال التى كانت تسر العين فيما مضى ، وتملأ الوديان بقطع الخام تاركة ندبات عميقة وصحراء مقفرة لا يمكن أن تنمو بها شجرة واحدة .

والعلماء معنيون بمشاريع استغلال طاقة الشمس والرياح و « افران » باطن الأرض الطبيعية ، وطاقة المد البحرى . وسوف تؤتى بعض هذه الخطط ثمارها مع مرور الوقت . ولكن الآمال الرئيسية معلقة على المفاعلات النووية . ولا تزال محطات الكهرباء النووية تولد المشاكل المتعلقة بها حتى يومنا هذا وهى أكبر بكثيرمن مشاكل المحطات التى تعمل بالوقود المستخرج من الأرض ، كما أنها تنتج فائضا من الحرارة ، وتحتاج الى اجراءات خاصة من الوقاية لمنع تسرب الإشعاع الذرى . ومن المحتمل تخطى هذه الصعوبات بفضل المفاعلات المضاعفة التى تعمل بالنيترونات السريعة .

وماذا عن المفاعل النووى الحرارى الذى يستهدف كبح طاقة القنبلة الهيدروجينية لصالح الأغراض السلمية ؟ يتنأ البعض بأن هذا التحول سيتم فى السنوات القريبة المقبلة . ولكن المشاكل الفنية هائلة لدرجة انه يصعب القول هل يستطيع التركيب النووى الحرارى لعب دور هام فى انتاج الطاقة الكهربائية فى العقود القريبة المقبلة . ويؤكد ذوو الخبرة من العلماء أن الانسان لم يتعرض بعد لمشكلة أكثر تعقيدا من مشكلة انشاء مفاعل نووى حرارى .

لقد وضعت الولايات المتحدة الأمريكية خطة لاستخدام الطاقة لـ ٣٠٠ عام فى المستقبل . وسوف تشغل مصادر الطاقة التقليدية خلال الثلاثين عاما المقبلة المركز الأول فى البلاد ، ثم تنتقل الصدارة بعد ذلك للطاقة النووية ـ للمفاعلات العادية والمفاعلات التى تعمل بالنيترونات السريعة وسيشهد عام ٢٠٥٠

بداية عصر التركيب النووى الحرارى ، والطاقة الشمسية حيث سينافس كل منهما الآخر . وسيظل مستوى استخدام أنواع الطاقة الأخرى — مثل الكهرومائية ، والحرارية الأرضية ، وطاقة المد البحرى — منخفضا .

ومن بين الخامات المستخرجة من الأرض سيختفى البترول أولا ، حيث سيكون أقلها — ٥ فى المائة من اجمالى احتياطيات الطاقة . وستبلغ احتياطيات الطاقة بالنسب التالية : فى الطين الصفحى ورمال البيتومين — ٧ فى المائة ، الغازات القابلة للاشتعال — ٨ فى المائة ، والفحم — ٧٦ فى المائة . وعلى هذا فان انتاج البترول سيبلغ أقصى حد له عام ١٩٩٠ أو ٢٠٠٠ على ما يبدو ، وسيتوقف بعد ٥٠ أو ٧٥ عاما . كما سيكون مصير الغاز الطبيعى نفس المصير تقريبا ومن المحتمل أن يطيل وجود الوقود السائل مدة استغلال الطين الصفحى ورمال البيتومين ، حتى يصل انتاجها الى عام ٢١٠٠ . وسيبقى الفحم فترة أطول ، حيث يبلغ انتاجه مداه عام ٢١٥٠ ، ثم ينخفض انتاجه بعد ذلك .

اذا نزلنا من سماء الخيال ، وان كان مدعما بالبيانات العلمية ، ونظرنا فى السنوات القريبة المقبلة ، فاننا نجد أن آفاق الخروج من ازمة الطاقة لا تبعث على التفاؤل ، ذلك لأن « تسع نساء لا تستطيع ولادة طفل فى شهر واحد » كما يقول المثل الفيتنامى . وينطبق هذا على الولايات المتحدة الأمريكية التى تمتلك فى العالم الرأسمالى أكبر امكانيات حل المشاكل الاقتصادية .

وحول ضخامة المبالغ المطلوبة للاستقلال الطاقى تقول مجلة « يونيتد ستيتس نيوز اندورلد ريبورت » لقد تم ابلاغ الأمريكيين بما سيكلفهم العمل على تحقيق الاستقلال عن استيراد البترول . من المحتمل أن يتحتم عليهم حتى عام ١٩٨٥ دفع ما بين ٤٩٣ حتى ٦١٠ مليارات من الدولارات لتكون أصول رأس المال دون أخذ التضخم فى الاعتبار . وقد يصل المبلغ الى ٧٠٠ مليار دولار بعد اضافة كل النفقات الأخرى . واذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية ستحقق الاستقلال فى الطاقة ، فان الأمريكيين سيركبون عام ١٩٨٥ سيارات اصغر حجما ، ويركبون الاوتوبيسات العامة والمترو ،

والسفر بالقطارات والطائرات أكثر من الوسائل الأخرى ، اما الصناعة فستبدأ توفير الطاقة الكهربائية . ولكن هل يمكن القول بثقة أن الولايات المتحدة الأمريكية ستحقق هذه الأهداف ؟

فى عـــام ١٩٧٤ التقى الخبراء الأمريكيون والألمانيون الغربيون واليابانيون فى مؤتمر ، دعت له « مؤسسة بروكينجز » التى تقوم بأبحاث اقتصادية وسياسية وعسكرية . وتوصل المجتمعون الى استنتاج أنه من غير المتوقع قبل عـــام ١٩٨٥ حدوث قفزة فى التكنولوجيا تجعل من الممكن تغيير صورة الطاقة فى العالم . وكان استنتاجهم الرئيسى هو « ضرورة التعاون الدولى فى كل المجالات ، ذلك لأن محاولات حل المشكلة كل على حدة يمكن أن يؤدى الى نتائج غير فعالة وهزائم ذاتية » .

غير أن العالم الراسمالى تعود أن يفهم « التعـــاون » على انه علاقة السيطرة والتبعية . وكان من الممكن أن تخف أزمة الطاقة وتتأخر زمنيا ، لو لم تكن السياسة البترولية موضوعة لخدمة الاحتكارات الدولية ، ولو لم تحل الأزمة بطرق فرض الارادة الأمبريالية المعهودة . ان تطبيق سياسة التعاون المتكافىء ذى النفع المتبادل ـــ وهى السياسة التى دخلت التعاون الدولى بفضل الاتحاد السوفيتى ـــ فى العلاقات المتبادلة بين الدول المنتجة للبترول والدول المستهلكة له كان من شأنه أن يخلق مناخا ملائما لحل مشاكل الطاقة . ولكن الأحداث فى العالم الراسمالى تطورت فى اتجاه مغاير .

كانت البشرية على امتداد تاريخها تجد دائما الحلول للمشاكل التكنولوجية التى واجهتها فى مختلف العصور . غير انه كثيرا ما كانت الهزات والتغيرات الاجتماعية الكبرى تصاحب أو تســـبب هذه الظاهرة .

■

العالم الرابع

يرى أحد الماليين الأمريكيين فى منامه كابوسا يتلخص فى أن رجلا داكن العينين يهبط سلم الطائرة فى مطار « كنيدى » بنيويورك ، وتوجد فى حقيبة يده شيكات بمليارات الدولارات وقعت عليها شركات « ايكسون » أو « تكساكو » ، ويجرى هذا الرجل لقاءات سرية مع حاملى اسهم الشركات الكبرى . وذات صباح تعلم الولايات المتحدة الأمريكية أن حاكم احدى الأمارات العربية قد فرض سيطرته على شركة « جنرال موتورز » و « يونيتد ستيتس ستيل » أو « ديوبون » أو على ثلاثتهم مجتمعة .

وترجع الاحلام المزعجة التى يراها رجال الأعمال الأمريكيون الى رءوس الأموال المتنامية بصورة خيالية ، والتى تتركز فى يد بعض الدول المصدرة للبترول .

انطلق العلاق من القمقم

زادت أسعار الوقود السائل أكثر من أربع مرات عام ١٩٧٤ بالمقارنة بأسعار اكتوبر عام ١٩٧٣ . وبلغت دخول الى ١٣ دولة الأعضاء فى الاوبيك حوالى ١٠٠ مليار دولار . وهذا يعنى انتقال العملات بصورة لم يسبق لهـا مثيل الى الدول المنتجة للبترول ، أو الاصح ، الى الطبقات الحاكمة بهـا .

ويبـــدو للوهلة الأولى أن آفاقا مواتية بدرجة غير عادية لتطوير القوى الانتاجية قد تكشفت أمام الدول الأعضاء فى الاوبيك . ولقد اثار الكثير من هذه الدول قضية زيادة امكاناتها الاقتصادية بخطى وقفزات سريعة على أمل الوصـــول الى مســـتوى الدول الرأسمالية المتقدمة مرة واحدة بعد بضع سنوات ويؤكد عليم ثلاث الخبير الاقتصادى الجزائرى المعروف « ظهور ملامح اعادة تنظيم العلاقات الاقتصادية الدولية راديكاليا . فمن الممكن استخدام مليارات الدولارات فى شراء مجمعات البتروكيماويات ، ومصانع تكرير البترول واساطيل الناقلات ، ومصانع البلاستيك ، ومجمعات الحديد والصلب ومحطات الكهرباء العاملة بالذرة ، ومعامل ازالة ملوحة مياه البحر بواسطة الطاقة الذرية والشمسية » . وبهذا نجد أنه ، وقد سيطر عليه التفاؤل ـــ قد رسم صورة لاعادة توزيع كل الطاقات الانتاجية العالمية جغرافيـــا .

ولكن رءوس الأموال الهائلة لا تستطيع تعويض النقص فى الكوادر وانعدام الخبرة ، والخدمات والمرافق فى مدة قصيرة ، هذا الى جانب ضرورة النظر بعين الاعتبار الى قلة عدد سكان الكثير من الدول المنتجة للبترول . والأكثر من ذلك أن الدول ذات اعداد السكان الأكثر نسبيا ، والتى خطت خطواتها الأولى على طريق التصنيع مثل العراق والجزائر وايران يصعب عليها ، بل ولا يمكنها فى بعض الأحيان « هضم » المبالغ التى تحصل عليها بسرعة . ولعل اندونيسيا ونيجيريا بعدد سكانهما الكبير هما وحدهما القادرتان على ابتلاع هذه الأموال دون أن يبقى منها شىء . اما بالنسبة للملكة العربية السعودية والكويت وأبو ظبى وقطر وكذلك ليبيا ، فتتكون لديها رءوس أموال « حرة » وبأحجام هائلة . ففى عام ١٩٧٤ لم تستخدم على أقل تقدير ٥٠ ـــ ٦٠ مليار دولار فى شراء السلع والخدمات ، مما جعلها تتدفق على سوق العملات الدولى . وتفوق المملكة العربية السعودية الولايات المتحدة الأمريكية واليابان من حيث احتياطيات العملات النقدية .

بلغ اجمالى قيمة جميع الاستثمارات فى الخارج عـــام ١٩٧١ حوالى ١٦٠ مليار دولار . وتقدر قيمة أسهم شركة « جنرال موتورز » ـــ وهى ثانى شركة فى العالم من حيث الحجم ـــ ١٥ مليار دولار .

اكدت تقديرات بنك « تشيز مانهاتن » أن الدول العربية البترولية ستمتلك حتى عام ١٩٨٠ — ٤٠٠ مليار دولار ، وقالت المصادر الاخرى أن المبلغ سيكون ما بين ٥٠٠ و ٧٠٠ مليار . وأكد خبراء البنك الدولى انه سيتوفر لدى الدول الأعضاء فى الأوبيك ١ر٣ تريليون دولار حتى عام ١٩٨٥ وهو مبلغ يعادل تقريبا اجمالى المنتج القومى للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٣ .

لقد نشرت هذه التنبؤات فى بداية عام ١٩٧٤ . وبعد عام اتضح أن الدول الأعضاء فى الأوبيك تستطيع استيراد سلع أكثر مما كان معتقدا . وعلاوة على ذلك زادت انفاقاتها على التسليح اضعافا كثيرة . واستقرت أسعار البترول بعض الشىء ، وانخفض انتاجه فى عدد من الدول . ولذلك بدأ خبراء المال يخفضون أرقام رءوس الأموال « المحرة » ما بين مرتين وأربع مرات وهى رءوس الأموال التى يمكن أن تتدفق على الأسواق العالمية . غير أنه لا يثير الشك أن الطبقات الحاكمة فى الدول التى يبلغ عدد سكانها حوالى ١٠ ملايين نسمة تمتلك الأموال باحجام لا مثيل لها . ويظهر فى المسرح العالمى أساطين مال ، كالعملاق الذى انطلق من القمقم ، قادرون فى النظرة الأولى على تحدى عمد عالم الأعمال الرأسمالى ..

وحاولت دعاية الدول الغربية خلق جو من الهستيريا حول هذه الظاهرة ، حيث تخيف الفرد العادى فى الدول المتقدمة صناعيا من « الخطر العربى » . وها هم استعماريو الأمس فى أوربا الغربية واليابان ، بل والولايات المتحدة كذلك يئنون مولولين : « ان الاستعمار يتهددنا » . وها هو بيترسون وزير التجارة الأمريكى السابق والذى يشغل حاليا رئيس مجلس ادارة بنك « ليمن برازرز » يعلن انه ينبغى على الجميع ان يعترفوا « ان العالم يشهد تحولا جذريا فى ميزان القوى والثروة » . وتشير مجلة « يونيتد ستيتس نيوز اندوورلد ريبورت » الى أن « رفاهية غالبية الأمم خارج العالم الشيوعى تزداد اعتمادا على قرارات دستة الدول المنتجة للبترول ، التى تعمل من خلال الاتحاد المسمى بالأوبيك » .

وكتب ارنولد توينبى المؤرخ الغربى البرجوازى الشهير

قائلا : « من المرجح أن تكون النتائج السريعة (لأزمة البترول ــ المؤلف) هى تغير ميزان القدرات الاقتصادية (وبالتالى القدرات السياسية والعسكرية على الارجح كذلك) بين الدول المتقدمة والدول المنتجة للبترول . وهل هذا كل ما فى الأمر ؟ اذا حدث ذلك فانه لن ينبىء الا بأن تصبح الدول المنتجة للبترول قوة أكثر من مستغلة للعالم بدلا من الولايات المتحدة واوربا (الغربية) واليابان ».

يعكف المسئولون فى وول ستريت أو فى سيتى فى لندن على حساب دخول دول أعضاء منظمة الأوبيك الآن فى حقد وعداء غير مستورين بمهارة ، ويبحثون عن طرق لرتق الثقوب فى موازين المدفوعات الخاصة بهم . ولكنهم « ينسون » فى ذلك ان نصف قرن من استغلال منطقة الخليج العربى وحدها جعل الاحتكارات « تربح » عشرات المليارات من الأرباح الصافية من انتاج البترول . كما تضاعفت رءوس أموال هذه الاحتكارات نتيجة استثمارها . والى جانب ذلك تضخمت خزينة الدولة فى البلدان المستوردة للبترول ، حيث كانت تحصل رسم انتاج لا يقل عن نصف سعر التجزئة للمنتجات البترولية .

حصلت الدول الأعضاء فى الأوبيك فى الفترة من ١٩٦٠ حتى نهاية عام ١٩٧٣ على حوالى ٩٥ مليار دولار نظير انتاج الزيت الخام، أما رأس مال الدولة الاحتكارى فى الدول المتقدمة ، فقد حصل على ٦٠٠ ــ ٧٠٠ مليار دولار . وفى نفس الفترة كانت كل الاستثمارات فى جميع مجالات صناعة الماكينات مجتمعة تساوى تقريبا حجم رؤوس الأموال هذه . هذه هى أحجام نقل الثروات من الدول الأعضاء فى الأوبيك قبل أزمة الطاقة ، وكان نصيب الدول المنتجة للبترول من السعر النهائى للمنتج البترولى لا يزيد عن ٧٪ حتى وقت قريب . ولا يزال هذا النصيب حتى الوقت الحالى ، وبعد زيادة الضرائب على الشركات الأجنبية ورفع أسعار البترول أربع مرات ــ لا يزيد عن ثلث ما يدفعه سائق السيارة فى المانيا الغربية نظير لتر البنزين .

حين يمزق ايدلوجيو الرأسمالية ثيابهم ، ويهيلون التراب على رءوسهم ، ناعين مصير الغرب ، يصعب الايمان بصدقهم .

ان ارتفاع أسعار مادة خام مثل البترول لا يعكس سوى اتجاه تطور الاقتصاد العالمى . وكان الاقتصاد السياسى البرجوازى الكلاسيكى ابتداء من ريكاردو حتى كينز قد حذر من أن اسعار منتجات الصناعات التحويلية سوف تنخفض ، أما أسعار المواد الخام فسترتفع . ولقد حدث العكس فترة ما بعد الحرب . وفى هذا يقول الاقتصادى الجزائرى ثلاث : « لقد انخفضت الأسعار النسبية للمواد الخام بنسبة ٤٠ فى المائة بالمقارنة بفترة ١٩٤٧ — ١٩٥١ ، ولم ترتفع منذ عام ١٨٩٠ . ويتحدثون الآن حول ارتفاع أسعار البترول . ولكن أسعار المعدات الصناعية زادت هى الأخرى ثلاث مرات خلال السنوات الأخيرة » . وهكذا كان يجرى نهب ما يسمى « بالعالم الثالث » من جانب حفنة من الدول الراسمالية المتقدمة وتعترف صحيفة « لموند » الفرنسية قائلة : « كان نمو اقتصاد الدول المتقدمة (الراسمالية — المؤلف) يتم جزئيا على حساب الدول الأقل تقدما . وكان أساس هذا النمو هو النهب . لقد انتهى عصر وفرة ورخص الطاقة » . وهل يقتصر الأمر على الطاقة وحدها ؟

يقع على عاتق « العالم الثالث » فى اطار الاقتصاد الراسمالى العالمى الجزء الأكبر من انتاج القصدير المركز ، والانتيمون والكروم والتنجستين ، والماس ، والمنجنيز ، والنحاس ، والبوكسيت ، وجزء كبير من انتاج الفوسفور ، والرصاص ، والزنك . ولو كانت كل الدول قد بدأت استهلاك ما تستهلكه الولايات المتحدة ، فان انتاج العالم من الحديد والنحاس والقصدير كان قد زاد عشرات المرات . وتنطبق أولى المؤشرات المفزعة لخلل امدادات المجتمع الراسمالى « بالدماء » الضرورية له ، على الكثير من انواع المواد الخام . فمن الممكن أن تستنفذ خلال ٤٠ — ٦٠ عاما احتياطيات عدد من المعادن الهامة ، لو ظل استهلاكها ينمو بالمعدلات السريعة السابقة .

لقد ادرك « العالم الثالث » ، الذى كان يمد دائما دول الغرب واليابان المتقدمة بالمواد الخام الرخيصة ، ان الآخرين يثرون على حساب موارده الطبيعية . ولا تريد الدول النامية الاستسلام لهذا الواقع بعد ذلك . وتقوم مجموعة ضيقة من الدول بامدادات عدد

من المواد الخام الرئيسية . واذ وقفت الدول النامية على ميزات « جماعية العمل التجارى » ، فانها تحاول الاتحـــاد . ويرى الكثيرون أن ازمة الطاقة تهدد بالتحول الى ازمة عامة فى الخامات ازمة استغلال الدول النامية فى اطار مختلف اشكال الاستعمار الجديد . وتسعى هذه الدول الى بدء هجوم جديد ، وربما اوسع نطاقا على امتداد تاريخها ـــ على الامبريالية .

والعدالة التاريخية فى جانب هذه الدول ، ولكن تبرز قضية توازن القوى الفعلى بين دول الخامات والدول الاستعمارية السابقة . ولنترك شئون البترول لحظة . تمكن العالم الرأسمالى المتقدم من خفض أسعار الكثير من الخامات خلال عدة أشهر عـــام ١٩٧٤ . فمن المعروف أن اقامة مخازن استراتيجية للمعادن النفيسة على سبيل المثال لا تمثل مشاكل خاصة بخلاف الوقود السائل الذى يعد تخزينه بكميات ضخمة أمرا غير مفيدا اقتصاديا . وكان من الممكن أن يفرض منتجوا الخامات شروطهم على المستوردين لو كان لديهم احتياطى لعدة سنوات . ولكن اذا كان اقتصادهم يعتمد على تصدير سلعة أو سلعتين ، أو كانت خزينة الدولة خاوية ، أو كانت الأنظمة السياسية فى تلك البلاد تعتمد على تأييد الدول الاستعمارية ، التى تنوى النضال ضدها ، فان الأمور تتعقد مئات المرات . ومن الممكن أن يجد منتجو الخامات فى المستقبل الفرصة مثلما وجدها مصدرو البترول ، ولكن كيف ومتى سيحدث هذا .. هذا ما يصعب البت فيـــه .

فلنعد الى العلاقات المتبادلة بين الدول الأعضاء فى الأوبيك والولايات المتحدة الأمريكية ، وأوربا الغربية واليابان . ونود التنويه بأن وراء اساطين الرأسمالية المعاصرة جهازا انتاجيا عملاقا ، وخبرة مكتسبة على امتداد عصور طويلة ، وكوادر ذات كفاءات عالية فى كل المجالات ، ووسائل الاعلام ، وشبكة متفرعة ومنسقة من المؤسسات المالية والتى يعمل بها من الخبراء أكثر مما يمكن أن تجمعه دول شبه الجزيرة العربية الأربع وليبيا من السكان البالغين الذين يعرفون القراءة والكتابة . هل من الممكن تصور اعادة توزيع مراكز القدرات الاقتصادية « دون صراع » ودون صعوبات فى العالم الرأسمالى سواء بين مجموعات مختلفة من الدول ، أو

داخل الرأسمالية المالية العالمية ؟ وهل من الممكن تصور أن المؤسسة الاقتصادية والعسكرية التابعة للرأسمالية المعاصرة ستتراجع أمام أساطين المال الجدد الذين ظهروا فى صحراوات آسيا وأفريقيا العظيمة ؟

معركة "بواتيه" على الطريقة الأمريكية

« نحن فى حاجة الى كارل مارتل جديد لمعركة جديدة مثل معركة بواتية » كان هذا هو النداء الذى وجهته الصحافة البرجوازية الغربية . والجدير بالذكر أن فرسان الافرنج بقيادة مارتل أوقفوا زحف العرب على أوربا فى معركة بواتية فى القرن الثامن الميلادى . وليس تلميح الصحافة البرجوازية هنا مجرد استخدام للمجاز . فان الأمبريالية سواء الأمريكية أو الأوربية الغربية ، لا تستبعد امكانية تصفية حساباتها مع منافسيها الجدد الذين لا يزالون يمثلون حتى اليوم دولا ضعيفة قليلة السكان . غير أن أيا من واضعى استراتيجية الأمبريالية يذكر دائما انه بجانب الدول الرأسمالية الصناعية الاستعمارية ومجموعة الدول البترولية . يوجد كذلك فى العالم الاتحاد السوفييتى .

ولنقدم كمثال المقال الافتتاحى لاحدى المجلات الانجليزية الكبرى الناطقة بلسان دوائر الأعمال ، وهى مجلة « مانجمنت توديى » والتى لا تميل الى القاء الكلمات فى الهواء على الاطلاق . فتبدى المجلة اسفها فى مايو عام ١٩٧٤ قائلة : « لم تتخذ اية اجراءات لانشاء منظمة الدول المستوردة للبترول لمواجهة نجاح نشاط منظمة الأوبيك . لقد اسرعت الدول الغربية ، ومن بينها بريطانيا بكل أسف ، بالانحناء أمام الدول المنتجة للبترول ، بتقديمها السلع مقابل البترول بأسعار جديدة . وتجمع الدول المنتجة للبترول المزيد من الموارد المالية العالمية فى حين انها ليست قادرة الى حد كبير على انفاقها ، فضلا عن حرية هذه الدول فى استثمارها فى البناء أو التدمير . فها هى حفنة من الدول الضعيفة نسبيا تستحوذ على جزء كبير من المنتج القومى للغرب فى شكل ضرائب . وكأن احدا

لا يصدق أن الدول القوية قادرة على مواجهة الدول الضعيفة . ان الذى يعوق الغرب عن التدخل فى منطقة الخليج العربى ليس هو الاخلاقيات القائمة وحدها (؟ ! ــ المؤلف) ، بل والحكمة المعهودة كذلك ، فان الخطورة الاستراتيجية للمواجهة مع الاتحاد السوفييتى تلغى امكانية اتخاذ مثل هذه الخطوة .

واذا كان الشيوخ يريدون أن يدافع عنهم الغرب ، فينبغى عليهم أن يدفعوا مقابلا لذلك بالمستوى المناسب من الانتاج البترولى وبالأسعار المناسبة للغرب . ومن الواضح انه ينبغى اللجوء الى التدخل العسكرى كخطوة أخيرة . ولن يمكن اتخاذ هذه الخطوة الا على مضض وباشمئزاز . ولكن اذ لم يلجأ اليها الغرب على الأطلاق ، فان هذا يعنى انه اسلم السيطرة على مصيره لحفنة من الدول المتخلفة . ان الحظر البترولى ــ رغم استخدامه فى بادىء الأمر تأييدا للسياسة العربية فى الشرق الأوسط ــ ما هو فى نهاية المطاف سوى سلاح يمكن استخدامه فى اى موقف » .

لم يلق المقال الافتتاحى لمجلة « مانجمنت توديى » صدى عريضا ، غير أن هذا لا يعنى أن اساطين المال لم يقرأوه بعناية فائقة . كما أنه ليس من المستبعد أنهم أنفسهم حثوا على نشره لجس النبض .

ومرت الشهور ولم تأت الحملة التى خاضها الغرب لخفض أسعار البترول بثمارها . بل الذى حدث كان العكس ، حيث قررت الدول الأعضاء فى الأوبيك عام ١٩٧٤ زيادة الضرائب المفروضة على الشركات صاحبة الامتيازات ، أما هذه الشركات فحملت المستهلك خسائرها على الفور . ولم تفعل المملكة العربية السعودية الحليف الوفى القديم للولايات المتحدة الأمريكية ــ شيئا لخفض أسعار الوقود السائل سوى اصدار التصريحات الكلامية . واعترت خيبة الأمل والاستياء ، بل والقنوط ، الدوائر التى تخطط سياسة الغرب فى مجال الطاقة . وكانت الأزمة الاقتصادية قد دقت ابواب العالم الرأسمالى قبل حرب أكتوبر فى الشرق الأوسط ، وقبل الحظر البترولى ، وقبل رفع أسعار البترول . ولكن الفرصة سنحت الآن لالقاء تبعتها على الدول الأعضاء فى الأوبيك .

ولقد زعم جون سوهيل مدير وكالة الطاقة الفيدرالية فى كلمته التى القاها فى الجلسة للجنة الخاصة بالكونجرس الأمريكى فى سبتمبر عـــام ١٩٧٤ ــ ان سياسة الدول المنتجة للبترول تهدد « الوجود القومى للولايات المتحدة الأمريكية » ، ثم اضاف يقول : « ينبغى علينا ، بعد أن وصلنا الى هذا الحد ، بل وتخطيناه منذ مدة طويلة ، أن نستخدم كل الوسائل التى بأيدينا لحماية مصالحنا القومية » . والجدير بالذكر أن السناتور جكسون يترأس هذه اللجنة الفرعية ، ولذا لاقى نداء سوهيل تفهما كبيرا . ولقد ظل هذا التقرير فى طى الكتمان خافيا على القاعدة العريضة من القراء ، حتى قرر أعلى جهاز فى الادارة الأمريكية أن الوقت قد حان لمخاطبة الدول الأعضاء فى الأوبيك بصوت من حديد .

ففى نهاية سبتمبر عـــام ١٩٧٤ حذر الرئيس فورد ووزير الخارجية الأمريكية كيسنجر عن طريق التلميح الدول المنتجة للبترول بأن قضية أسعار البترول وامداداته الباقية دون حل يمكن أن تؤدى الى حرب شاملة . فقد أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى المؤتمر الدولى للطاقة ــ الذى عقد فى ديترويت ــ قـــائلا : « ان الأمم على امتداد التاريخ كانت تبدأ الحروب بسبب الخيرات الطبيعية مثل المـــاء والغذاء » . ثم استطرد قائلا : « من الصعب مناقشة مشكلة الطاقة دون اللجوء الى لفتة يوم القيامة فالخطر جاثم وعظيم . غير اننى رغم ذلك متفائل . ان مميزات التعاون واضحة تماما مثل وضوح خطر المواجهة . غير أن الأسعار المبالغ فيهـــا (أســـعار البترول) لن تؤدى الا الى اعوجاج الاقتصـــاد العالمى وتثير خطر الكساد العالمى وتهدد بالاخلال بالنظام والأمن العالميين » . واتسم الخطاب الذى القاه وزير الخارجية الأمريكى فى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة بمثل هذه الروح تقريبا .

وكانت لهجة الصحافة الأمريكية أكثر وضوحا فى محاولة للضغط سيكلوجيا على الدول المنتجة للبترول . فقد تحدثت مجلة «نيوزويك» صراحة عن « التدخل العسكرى » الذى « ينبغى توجيهه الى المملكة العربية السعودية أكبر دولة منتجة للبترول (الحليف المخلص للولايات المتحدة ! ــ المؤلف) لكى يكون ذا نتائج فعالة » . وعلى الفرقة

٨٢ الجوية الأمريكية أن تقوم بهذه العملية ، وهى الفرقة المعدة خصيصا لمثل هذا العمل ، هذا الى جانب امكانية استخدام بعض الوحدات من قوات حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية ومن اسرائيل . والأكثر من ذلك أن مجلة « نيوزويك » حددت توقيت هذه العملية بربيع عـــام ١٩٧٥ .

كان من الممكن أن تنحبس انفاس محررى المجلة من معركة « بواتيه على الطريقة الأمريكية » هذه . والجدير بالتنويه ، انهم انفسهم اشاروا الى أن عواقب هذا التدخل «سوف تكون مأساوية» .

اتضح أن اعصاب الدول الأعضاء فى الأوبيك أقوى مما اعتقد رجال الدعاية الأمريكية . وأصبح من الواضح أن مجلة « نيوزويك » وأجهزة الدعاية الأخرى تخادع . ولكن الدول المنتجة للبترول رأت من الضرورى الرد على هذا التهديد . فقد صرح العتيقى وزير المالية الكويتى قائلا : « ليست لدنيا قوة نيران كافية لمحاربة من وصلوا الى القمر بصواريخهم ، ولكننا لن نستسلم . سيتعين عليهم أن يخضعوننا بالقوة ، ولكنا لن نستسلم » . وادان العتيقى الصحافة الأمريكية التى تتحدث عن التدخل العسكرى ، والاغتيالات السياسية ، والانقلابات كطرق محتملة تستخدمها السياسة الأمريكية ويرى العتيقى أن مثل هذا المنطلق لن يحل ، بل سيعقد قضية أسعار البترول . واتهم حكومات الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب الأخرى أنها تضخم عن قصد مشكلة البترول لتغطية عدم قدرتها على التخلص من أمراضها الاقتصادية الخاصة . واعرب وزير البترول السعودى عن ايمانه بأن اتخاذ اجراءات عسكرية ضد الدول البترولية أمر غير ممكن ، فان أى « عملية عسكرية تعنى انخفاض الانتاج بدرجة كبيرة مما يؤدى الى كساد عالمى . وما من أحد يستطيع التفكير فى مثل هذه الامكانية ، لو كان فى كامل قواه العقلية » .

ويدين جورج بول مساعد وزير الخارجية الأمريكى سابقا ، ويعمل الآن مدير بنك من البنوك ــ الدعوة الى القيام بعمليات عسكرية ضد الدول البترولية ، حيث كتب يقول : « لقد انقضى عهد التهديدات » ثم يستطرد قائلا : « ما من أحد ممن يفهمون

الواقع الاستراتيجى المعاصر يستطيع النظر نظرة جدية الى المغامرات العسكرية الرامية الى الاستيلاء على المناطق المنتجة للبترول. فما هذا سوى خيال مبتذل مهجور لقدمه . فان وجود روسيا كقوة فى البحر الأبيض المتوسط يمحو هذه القضية من جدول الأعمال. ولهذا فلنواجه الحقائق القاسية ، فطالما لاتوجد حكومة فى واشنطن تنوى تحويل مناطق انتاج البترول فى الشرق الأوسط الى مذابح نووية ، ينبغى علينا الاقلاع عن الثرثرة بمثل هذه الاجراءات . لا ينبغى على الأمم العظمى أن تلمح بأى حال من الأحوال بالتهديدات التى لا تنوى تنفيذها » .

وانقضت عدة أسابيع وهدأت « حرب الاعصاب » وبدأت الصحافة الرسمية فى الغرب فى مناقشة فكرة « التعاون » بين الدول المصدرة والمستوردة للبترول . وتوقفت الأحاديث عن « الحل العسكرى » لبعض من الوقت .. توقفت فقط ، ولكنها لم تنس .

ففى يناير عام ١٩٧٥ نشرت مجلة « كومنترى » التى تصدرها « اللجنة اليهودية الأمريكية » ، مقالا بقلم تاكر أستاذ العلاقات الدولية فى جامعة هوبكينس . وعاد المؤلف من جديد وباسهاب الى امكانية احتلال ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على الخليج العربى من الكويت حتى قطر حيث يجرى انتاج ٤٠ فى المائة من بترول الدول الأعضاء فى الأوبيك . ويرى تاكر أنه فى حالة تدمير آبار البترول ، يمكن اعادة تشغيلها بسهولة ، ثم خفض أسعار الوقود السائل بعد ذلك ، وهدم منظمة الأوبيك .

وبعد عدة أيام أدلى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى بحديث لمجلة « ببزنيس وبك » تحدث فيه عن الظروف التى يمكن للولايات المتحدة الأمريكية أن تبدأ فى ظلها العمليات العسكرية فى الشرقين الأوسط والأدنى بسبب البترول . ورغم أنه أكد امكانية اللجوء للقوة فى « الظروف الاستثنائية جدا » ، الا أنه لم يستبعد امكانية استخدامها اذا مثل خطر « خنق » الدول الرأسمالية بصورة فعلية . وكانت هذه أول مرة يتحدث فيها ممثل مسئول من الحكومة الأمريكية حول امكانية القيام بعمليات عسكرية بمثل هذه اللهجة . ولقد أيد الرئيس فورد وزير خارجيته ، أما وزير الدفاع شليسنجر ،

فقد اكد أن انزال قوات أمريكية فى منطقة الخليج العربى أمر « ممكن تحقيقه » من الناحية العملية . واصبح معروفا فى الوقت نفسه أن عددا من القطع البحرية بقيادة حاملة الطائرات الذرية « انتربرايز » من بين قطع الأسطول السابع الأمريكى قد غادرت قواعدها بالقرب من مانيلا واتخذت طريقها الى المحيط الهندى . وتكثفت عمليات نقل السلاح والذخيرة الى القاعدة الأمريكية فى جزيرة دياجوجارسيا . وعرض التليفزيون الفرنسى فيلما عن المناورات التى قامت بها المشاة الأمريكية فى بلاجات صقلية استعدادا للعمليات فى الصحراء .

لقد خلق وجود أزمة الطاقة مع الصراع العربى الاسرائيلى الذى لم يحل — موقفا مشحونا بالخطر بصفة خاصة . واشارت صحيفة « لموند » الفرنسية الى طريقة اخرى للعمل ضد الدول العربية . تقضى باشتعال حرب جديدة بين العرب واسرائيل ، وتهدد تل أبيب بقصف آبار البترول فتقوم الولايات المتحدة الأمريكية باحتلال ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على الخليج العربى بهدف « حماية آبار البترول » ، وتلحق اسرائيل هزيمة سريعة بسوريا ومصر ، وتملى واشنطن وتل ابيب شروطهما على العالم العـــربى .

ولكن كما يقول المثل « كان كل شىء على الورق رائعا ، ولكنهم نسوا الوهاد » . فقد اشاح حلفاء الولايات المتحدة كلهم تقريبا وجوههم عن الاشتراك فى « الحملة الصليبية الكيروسينية » هذه ، وادان السياسيون الأمريكيون ذوو النفوذ نداءات هذه الحملة . والجدير بالذكر أن احدا فى اسرائيل لم يكن ليستطيع التحدث عن « النصر السريع لاسرائيل » . ومن ناحية أخرى كان واضحا أن العرب سيقاومون التدخل الأمريكى بالســـلاح ، مع نسف آبار البترول كضربة أولى للرد على التدخل ، وبهذا كان استخدام القوة سيؤدى الى عواقب مأساوية . وبلغ الموقف ذروته واطلقت واشنطن صفارات الأمان . فقد اعتبر كيسنجر فى نهاية يناير أن من واجبه أن « يوضح » تصريحاته ، حيث قال ان « العمل العسكرى لا يمكن أن يكون مناسبا على الاطلاق لحل مشكلة أسعار البترول » ، وطالب بالحوار مع أعضاء الأوبيك . ونفى ناطق باسم البيت الأبيض

رسميا المزاعم القائلة بأن الولايات المتحدة تعد ثلاث فرق للعمليات فى الشرق الأوسط . واستند الى كلمات وزير الدفاع شليسنجر ، الذى وصف هذه الشائعات بأنها شائعات « بلهـــاء » .

غير أن هذا لا يعنى أن دخان التهديدات العسكرية قد تبدد .

اصحاب بنوك يرتدون العباءات

لم ترفع أزمة طاقة عام ١٩٧٥ من جدول الأعمال على الأطلاق فقد تحولت الى مستوى آخر وتجسدت فى عدد من العوامل الطويلة التأثير . ومن بين هذه العوامل ارتفاع أسعار البترول والمنتجات البترولية ، والتضخم ، وعجز موازين المدفوعات والتجارة فى الدول الرأسمالية والكثير من الدول النامية المستوردة للبترول ، وهبوط الانتاج فى الدول الرأسمالية ، والبطالة ، وازدياد الصراع بين القوى الامبريالية من أجل البترول والموارد الطبيعية الأخرى . وينبغى التطرق الى جوهر العلاقات القـــائمة بين كبار المولين القدامى والجدد ، مع عدم اغفال تهديد الدول الامبريالية باستخدام « الاجراءات المتطرفة » .

قال أحد أصحاب البنوك الأمريكية ، الذى زار منطقة الخليج فى ربيع عـــام ١٩٧٤ : « ان اسوأ خطأ يمكن أن يقع فيه الغرب هو الاعتقاد بأن العرب يجلسون فى السوق فى الصحراء ، يجدلون الحصائر ولا يعرفون شيئا عن الشئون المالية الدولية » . غير أن هنـــاك بونا شاسعا بين « المعـــرفة » والمساهمة الفعلية أو السيطرة .

فى بداية الستينيات طلب أمير الكويت من يوجين بلاك ـــ وهو من كبار الخبراء فى الشئون المالية الدولية ـــ تكوين لجنة استشارية من كبار أصحاب البنوك ، واعلن يوجين بلاك قائلا : « ان اهم ماينبغى علينا هو الحيلولة دون التهور » . غير انه سرعان ما لاحظ أن الكويتيين ـــ الذين عرفوا بأنهم تجار وصائدو لؤلؤ ، بل ومهربون فى بعض الأحيان ـــ التقطوا جوهر الشئون المصرفية بسرعة . وبعد

عدة سنوات توقفت اللجنة عن العمل ، لأن الكويتيين رأوا أنهم يستطيعون الاستغناء عن استشاراتها . وظهرت فى الكويت مؤسسات كويتية للاستثمار .

وفى ديسمبر عام ١٩٦١ تم انشاء الصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية . فقد حاولت الكويت آنذاك أن تثبت وجودها كدولة مستقلة وانطلقت الحكومة الكويتية من أن الدول العربية الأخرى ذات الكثافة السكانية والتى تفتقر الى رأس المال — اخذت تنتقد امارة « البدو الاغنياء الجدد » الثرية ببترولها . وتقدم الكويت قروضا بشروط مجزية لتطوير النقل والزراعة والطاقة فى الدول العربية . ومن بين الدول التى حصلت على قروض من الصندوق الكويتى السودان وتونس ، ومصر ، والمغرب ، والأردن ، وسوريا . وبمبادرة من الكويت تم انشاء هيئة مالية دولية هى الصندوق العربى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والذى يضم فى عضويته كل الدول العربية .

ولقد قدمت الكويت — منذ حصولها على الاستقلال عام ١٩٦١ حتى نهاية عام ١٩٧٤ — هبات وقروضا الى الدول العربية بما تزيد قيمته عن ٥٠٠ مليون جنيه استرلينى . وكان جزء كبير من هذه الأموال يقدم لمصر والأردن كدعم ابتداء من عام ١٩٦٧ لوقوعهما ضحية للعدوان الاسرائيلى . وكانت هاتان الدولتان تتلقيان حوالى ٨٥ مليون جنيه استرلينى فى العام .

غير أن كل هذا قدر قليل بالمقارنة بامكانيات الكويت الجديدة . وكان اقرار قانون زيادة رأس مال الصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية عشر مرات ، من بين أهم الاجراءات التى اتخذها مجلس الأمة الكويتى قبل فضه للعطلة الصيفية عام ١٩٧٤ . ويوجد تحت تصرف الصندوق الآن مليار دينار ، أى ٢٫٥ مليار دولار . واتسعت صلاحيات الصندوق مما يسمح له باستثمار أمواله فى الدول غير العربية كذلك .

ولقد أعلن العتيقى وزير المالية الكويتى أن الكويتيين يفضلون الاستثمار بالترتيب التالى : فى الصناعات المحلية ، ثم فى تنمية

العـــالم العربى ،وبعد ذلك فى الدول الأخرى . ومن البديهى أن الحكومة الكويتية تنطلق من الاعتبارات السياسية وتؤكد على اهمية الاستثمارات فى الدول العربية ، مما يعكس تضامنها معهـــا ، وحماية نفسها من الانتقاد والاعمال العدائية .

ولكن ما هى القنوات التى يمر بها راس المال الكويتى خارج حدود العالم العربى ؟ يعتبر بنكا « فيرست ناشـــيونال سيتى » و « تشيز مانهاتن » من اكبر البنوك العاملة فى الكويت . ولقد وصف خالد أبو السعود مدير ادارة البترول فى الحكومة الكويتية نشاطهما على النحو التالى : « يقوم هذان البنكان بالذات باختيار الشركة التى يستثمران فيها اموالهما . ويملك البنكان حرية شراء وبيع الأسهم ، لتجنب الخسائر وتحقيق اكبر قدر من الأرباح » . وعلى هذا النحو من المشكوك فيه التساؤل عن سير رءوس الأموال الكويتية بعد ذلك . فمن المعروف أن شركات تعمل فى اكثر من ٣٠ مجالا من مجالات الاقتصـــاد الأمريكى تتلقى خـــدمات بنكى « فيرست ناشيونال سيتى » و « تشيز مانهاتن » .

وتوجد فى الامارة شركات للاستثمارات الخاصة كذلك ، منها شركات « كويت اينفستمنت » ، « كويت فورين تريدنج كونتر اكتنج اند اينفستمنت » ، « كويت انترناشيونال » . وتمتلك الكثير من هذه الشركات ممتلكات ثابتة فى أوربا والشرقين الأوسط والأدنى . فلقد اشترى الكويتيون على سبيل المثال جزيرة كياوا بالقرب من كارولينا الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية حيث يجرى فيها بناء مركز سياحى . وينوى الكويتيون انشاء فندق هيلتون فى مدينة اتلانتا ، ويستثمرون اموالهم فى البنوك ، وشركات النقل والملاحة والمناجم الأفريقية ، ومصانع الأسمنت فى كنـــدا . ولقد استثمر الماليون من ابنـــاء الامارة أموالهم فى مصانع النسيج والأدوية فى السودان ، وفى عمليات صيد الأسماك فى أفريقيا الشرقية ، وفى مصـــنع الكبريت فى نيجيريا . ويمول رجال الأعمـــال السعوديون والكويتيون غالبية فنادق « هيلتون » « وشيراتون » «وانتركونتنتال» « وهوليدى ان » فى الشرقين الأوسط والأدنى . وكان شراء شركة « سانت مارتينز بروبرتى » ـــ التى تقوم بعمليات الممتلكات الثابتة (بيع وشراء الأراضى والعقارات) ـــ اكبر عملية استثمار كويتية

فى بريطانيـــا ، حيث دفع الكويتيون ١٠٧ ملايين جنيه استرلينى ثمنا لهـــا .

ويعمل فى هيئة « كويت اينفستمنت » مستشار أمريكى هو ريتشارد ويليامسون . والتقى ويليامسون عـــام ١٩٧٢ بجارفيس ـــ وهو مدير شركة « مورلند نيفيجيشن » ـــ فى بار بأحد فنادق اثينا حيث اتفقا على انشاء شركة للملاحة لنقل الفواكه من منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط الى أوربا الغربية .

وتنمو احتياطيات امارة أبو ظبى من العملات بدرجة من السرعة تجعل حتى جرذان الشيخ شخبوط لا تؤثر فيها ، وان كانت هذه الاحتياطيات لا تزال أقل من احتياطيات الكويت والسعودية غير أن المؤسسات الشبيهة بالمؤسسات الكويتية آخذة فى الظهور فى الامارة . فيســـتخدم حبروش محمد وزير المـــالية استشارات « وخدمات » بنك « يونيون دى بنك سويس » وبنك « كراون ايجنس » وهو بنك قديم من أيام الامبراطورية البريطانية . وانشأت الحكومة مجلس الاستثمارات الذى يراسه جون هوج ـــ وهو نائب رئيس بنك « ويليامز اند جلين » الانجليزى ويضم المجلس فى عضويته لونج ستريت هلتون مستشار هيئة « مورجان جارانتى تراست » ، وجون موريل المدير الادارى لمجلس الاستثمارات الانجليزى ، والكونت جان دى سيبى نائب المدير العام لبنـــك « بنك ديل ايندوشين » . ويقوم أعضاء مجلس الاستثمارات فى أبو ظبى بأنفسهم باختيار مشاريع الاستثمار والعملة التى يمكن استخدامها والبنوك الأجنبية التى تتولى هذه العمليات وتضمن مجموعة مورجان السوق لأبو ظبى فى الولايات المتحدة ، ومجموعة فليمنج تضمن السوق فى بريطانيا واليابان ، اما سوق أوربا الغربية فتكفله مجموعة « بنك ديل ايندوشين » . وقامت امارة ابو ظبى فى صيف عـــام ١٩٧٤ ـــ على سبيل المثال ـــ بشراء ٤٤ فى المائة من اسهم ناطحة سحاب لندن سيتى نظير ٣٦ مليون جنيه استرلينى حيث ستتخذ احدى شركات التأمين الأمريكية مقرها .

ويحتفظ السعوديون بالجزء الأكبر من احتياطياتهم بالدولار . ولقد بدأوا فى الآونة الأخيرة التعامل مع العملات الأخرى ، خاصة

بعد ما منعت الحكومة الأمريكية عـــام ١٩٧١ تحويل الدولارات الى ذهب . وكان نصيب الفرد الواحد من دخل البترول عـــام ١٩٧٠ أقل من ٣٠٠٠ دولار فى العام ، وكانت الحكومة تعانى من عجز طفيف فى ميزان المدفوعات .

وكان خبراء المال من ذوى الخبرة يعتقدون أن دخول البترول سوف تزداد مرة ونصف خلال خمس سنوات . ولـــكنها زادت فى الواقع حوالى عشرين مرة وتتدفق هذه المليارات على الهيئة المالية الوحيدة فى البلاد وهى وكالة النقد العربية السعودية والتى تعتبر بمثابة بنك مركزى . غير أن استثمار الأموال خارج البـــلاد يمس الأسس الدينية للمملكة . فان فكرة القيام بدور صاحب البنك فى العالم تعنى الربا من وجهة نظر علماء الدين مما يتناقض مع تعاليم الاسلام . ولقد حرم القانون ، الذى صدر بانشاء وكالة النقد العربية السعودية عام ١٩٥٢ ، الفوائد والأرباح . غير أن العقائد تتهدم تحت وطأة الصدام بالواقع ، وبدأ السعوديون يأخذون الفوائد بعد تسميتها « بالاقساط » .

حين كان فيصل وليا للعهد فى الخمسينيات ، قام بدعوة أنور على الباكستانى الأصل والخبير بصندوق النقد الدولى ليشغل منصب مدير الوكالة . ووجه المدير الجديد للهيئة المالية السعودية جهوده للخروج بالبلاد من الصعوبات المالية التى أغرقها فيها الملك سعود . وكان يعمل تحت أمرة أنور على جهاز متواضع من الموظفين . وحين كان يمر أحد بجانب مقر الوكالة القائم فى مبنى سكنى بالقرب من مطار جدة ، لم يكن ليفكر فى ان هذا المبنى يحوى الهيئة التى تتعامل بمليارات الدولارات فى السعودية . وحتى وقت قريب كانت تعمل مع أنور على مجموعة من عشرة مساعدين من بينهم اثنان يقضيان فترة تدريب . ولم تتخل الهيئة عن كتبه الماليات المخطوطة باليد الا من عهد قريب ، حيث بدأ ادخال النظم الآلية فى العمليات .

وحل عبد العزيز القريشى فى بداية عام ١٩٧٥ محل الباكستانى أنور على فى رئاسة الوكالة . ويدل اسمه على أنه ينتمى الى قبيلة قريش الارستقراطية القديمة فى مكة والتى كان ينتمى اليها النبى محمد . وكان القريشى يدرك مدى ضعف الجهاز المالى فى المملكة

العربية السعودية ، ولذا بدأ على الفور انشاء مجلس استثمارات من اصحاب البنوك الامريكية والأوربية الغربية .

وتستخدم الوكالة فور تسلمها المبالغ التى تدفعها لها شركة « أرامكو » (والتى بلغت حوالى مليارين من الدولارات شهريا عام ١٩٧٤) التليكس لمعرفة أعلى سعر للفائدة فى العالم . ويوجه الجزء الأكبر من الأموال الى الولايات المتحدة الامريكية ، حيث أعلى سعر للفائدة . وقد حققت هذه الاستثمارات فوائد (أو أقساطا كما يقولون) تصل الى ١٠ فى المائة سنويا . ويمثل السعوديون بنكا « مورجان جارانتى » و « تشيز مانهاتن » نفسهما .

وتجتذب سوق النقد بلندن أموال السعودية والدول البترولية الأخرى كذلك . ومن العوامل التى تشجع على هذا اسعار الفوائد العالية على رءوس الأموال ، و « ضمانات » الاستثمارات الرسمية بالجنيه الاسترلينى فضلا عن سعة ومرونة وخبرة سوق النقد بلندن ، والروابط القديمة بالعالم العربى وايران .

ويمكن اعتبار باريس مركزا ماليا آخر تستثمر فيه رءوس الأموال العربية « الحرة » . والجدير بالذكر أن بنكى « سوسيتيه جينرال » و « كريدى ليونيه » كانا أول من انشأ بنوكا متعددة القوميات أوربية عربية مثل بنكى « بانك فرانكور عرب دى اينفستسمان » و « يونيون دى بانك عرب افرانسيز » .

وتقوم الاحتكارات المصرفية الدولية بافتتاح فروع لها فى الدول العربية كى تكون قريبة من مصادر « الأموال البترولية » . وتعمل هذه الاحتكارات فى المناطق التى لا يتسنى فتح فروع لها فيها تحت لافتات المؤسسات القومية ، وفى بعض الاحيان تكبل البنوك المحلية بالعقود والاتفاقات الطويلة الأجل .

وفى قطر يمتلك الاجانب تسعة بنوك من بين العشرة الموجودة بها وفى البحرين يمتلكون عشرة بنوك من بين بنوكها الاحد عشر . ويوجد فى دولة الامارات العربية المتحدة أكثر من ٥٠ بنكا ، كلها

اجنبية تقريبا . وكان لبنان قبل الحرب الاهلية عام ١٩٧٥ جسر العمليات المالية فى الشرقين الاوسط والأدنى . فقد كانت بيروت تعتبر منذ مدة طويلة الخزينة التقليدية لرءوس الاموال العربية الخاصة وكان فى بيروت ٧٣ بنكا من بينها ٣٤ بنكا لبنانيا ، اما الباقى ففروع للبنوك الأمريكية والأوربية الغربية الكبرى . ومن هنا كانت الأموال « الحرة » تنساب الى الغرب .

ظهر رأس المال العربى فى مئات الشركات الكبرى والصغرى بالدول الرأسمالية المتقدمة . فما دوره ؟ وهل حصل اساطين المال العرب على عناصر السيطرة فى الشركات ، التى يقومون بتمويلها؟ هناك حقيقة واحدة ذات معان كثيرة هى أن الكويتيين رغم خبرتهم وتطور نظام مؤسساتهم المالية لايملكون حق التصويت فى مجالس مديرى الشركات التى يستثمرون فيها اموالهم . ويقوم بنكا « تشيز مانهاتن » و « فيرست ناشيونال » بهذا بدلا من الحكومة الكويتية .

لا يزال الكثيرون من عرب شبه الجزيرة العربية يرون انهم غير أكفاء بما فيه الكفاية لادارة المؤسسات التى يقيمونها حتى فى بلادهم ، لاسيما انهم لا يستطيعون التأثير بصورة جوهرية فى الشركات الأجنبية . وفى هذا يقول عبد اللطيف الحمد المدير العام لشركة « كويت اينفستمنت كومبانى » : « ينبغى الأخذ فى الاعتبار ، لو أصبحت لنا السيطرة على شركة « جنرال موتورز » اننا لسنا ممثلى شركة « فيات » على سبيل المثال — والتى تستطيع ابتلاع « جنرال موتورز » بخططها وافكارها الذاتية — كى نتمكن من ادارة صناعة السيارات . واذا فرضنا واشترينا شركة « انترناشيونال بيزنس ماشينز » ، فلا توجد لى الامكانيات لادارة هذه الشركة ، ولكنه ليس من المهم أن يكون مدير هذه الشركة عربيا . المهم أن يقوم هذا المدير بدور فعال بغض النظر عن القومية أو الجنس » .

والواقع أن من بين العرب من له رأى مخالف . فقد صرح روجيه تامراز اللبنانى ، والذى تلقى العلم فى مدرسة هارفارد للاعمال ، قائلا : « لا يوجد من الاسباب ما يعوقنا ، نحن العرب،

عن ادارة شركة امريكية . فان فى استطاعتنا الاستفادة من خدمات افضل الخبراء وافضل الاقتصاديين ، اعتقد انه ينبغى علينا ، انطلاقا من المبدأ ، الاشراف على احدى الشركات الامريكية الكبرى » .

وحاول روجيه تامراز القيام بذلك « انطلاقا من المذهب » . فقد جمح ووقعت عينه على شركة « لوكهيد » — وهى شركة امريكية كبرى لصناعة الطائرات ومعدات الفضـــاء . فلقد حـــاول رجال الأعمال من منطقة الخليج عن طريق البنك المملوك له شراء جـــزء كبير من أسهم شركة « لوكهيد » نظير ١٠٠ مليون دولار حين كانت الشركة على حافة الافلاس وفى أشد الحاجة الى المال . غير أن مجلس مديرى الشركة لم يفكر فى النظر فى طلب تامراز ، رغم أن لهجة صاحب البنك اللبنانى شابها الشجى هذه المرة ، حيث جاء فى الطلب : « ونؤكد أن المستثمرين العرب لن يتدخلوا فى ادارة الشركة ، ولن يعترضوا على قرارات مجلس الادارة ، مع منح شركة « لوكهيد » حقا متساويا فى اختيار أعضاء مجلس الادارة العرب » . وجاءه الرد « بلا » الباردة .

وان كانت الدول الرأســـمالية المتقدمة ترحب باستثمارات « الأموال البترولية » الا أنها تحتفظ فى صلابة بالسيطرة على القطاعات الرئيسية لاقتصادها . وعلى سبيل المثـــال اشـــترت الكويت عام ١٩٧٤ — ١٤ فى المائة من أسهم شركة « دايملر بنز » الشهيرة لانتاج السيارات فى المانيا الغربية . وبعد مضى بعض من الوقت حاولت ايران شراء جزء كبير من أسهم هذه الشركة ممـــا يعنى انتقال السيطرة على شركة « دايملربنز » الى أيدى رأس مال الشرق الأوسط . ولكن الصفقة لم تتم . فقد أصر هيلموت شميت مستشار المانيا الاتحادية نفسه على أن يساعد الشركة أصحاب البنوك الألمانية بشراء الاسهم التى تريدها ايران . وفى هذا يقول المستشار الالمانى : « لن نكون راضيين اذا ما أصبحت المجـــالات الهامة سياسيا واستراتيجيا لاقتصادنا خاضعة للسيطرة الأجنبية » . واجتمع كبار رجال المال والصناعة فى جمهورية المانيا الاتحادية فى دوسلدورف ، واتخذوا الاجراءات الـــكفيلة بالوقوف فى وجه زحف « رءوس الاموال البترولية » على القطاعات الهامة فى اقتصاد المانيا الغربية .

وحين ظهرت هذه المشكلة فى الولايات المتحدة الامريكية ، أوضح وزير المالية آنذاك سايمون أن الدول المنتجة للبترول تستثمر أموالها فى الاقتصاد الامريكى بالتنسيق مع الحكومة الامريكية . فهناك قيود صارمة تحد من « حرية حركة » أساطين المال العرب فى الولايات المتحدة الامريكية ، فضلا عن وجود هذه « الحرية » تحت رقابة الخزانة الامريكية . ويمثل «برنامج الحفاظ على الاسرار العسكرية» حاجزا أمام الاستثمارات الأجنبية فى الصناعة الامريكية فعلى كل الشركات المتعاملة مع البنتاجون (وزارة الدفاع) تقديم تقارير عن حجم الأسهم ، التى توجد فى أيدى غير الامريكيين ، وتحرم هذه الشركات من طلبات الانتاج العسكرية اذا خرج نصيب رأس المال الاجنبى الحد الأدنى المقرر . وعلى هذا كان الزحف على شركة « لوكهيد » أمر لا أمل فيه منذ البداية .

ويلعب « بنك أوف انجلند » دور المفتش حيث تحتاج الى موافقته كل صفقة يشارك فيها الاجانب بأكثر من ١٠ فى المائة من أسهم الشركات .

غير أن رأس المال العربى يتغلغل فى بعض الأحيان من خلال الحواجز الموضوعة أمامه . ولكن هل تصبح الشركات « عربية » بشراء الجزء الأكبر من أسهمها ؟ فلنتطرق الى نشاط الخاشقجى وهو من بين أكبر رجال الأعمال فى العالم العربى .

حين تهبط دى ــ س ــ ٩ التى تخلو من أية علامات مميزة سوى كلمة « العمرية » ، يخرج منها عربى يرتدى عباءة بيضاء طويلة يصحبه مساعدوه العرب والامريكيون بالملابس الاوربية . هذا الرجل ذو الملابس البيضاء هو عدنان الخاشقجى ، الذى يربو عمره على الأربعين ، وصاحب المليارات السعودى الأصل والقوة المحركة الرئيسية لشركة« ترياد »العربية المتعددة الجنسيات ويقطع الخاشقجى أرجاء العالم طائرا حيث يلتقى برجال الأعمال فى كاليفورنيا ونيويورك ، فى باريس وبيروت ، فى لندن وسان‌باولو . انه يعيش فى الواقع فى الطائرة حيث توجد بها حجرة نوم ، وحمام ، ومكتب ، وغرفة للاجتماعات . ويعمل طاقم الطائرة فى ورديات . وتبلغ تكاليف استخدام الطائرة حوالى مليون دولار فى العام ، ولكنها

تحرره من قيود الخطوط العادية للطيران . وكثيرا ما يعمل نهارا ، ويطير ليلا .

لقد بدأ الخاشقجى حياته العملية منذ حوالى عشرين عاما ، حيث كان يبيع سيارات النقل الامريكية فى السعودية ، ثم اشترى جزءا غير كبير فى احدى الشركات الامريكية المنتجة لسيارات النقل، وسرعان ما أصبح ممثلا لعدد من الشركات الامريكية فى المملكة العربية السعودية ، كما أصبح ممثلا كذلك لشركة « رولزرويس » الانجليزية ، وشركة « سوفنا » الفرنسية لتصدير السلاح .

وفى الخمسينيات منحته الحكومة السعودية التصريح باقامة واستغلال مصانع لانتاج الجبس لمدة ٥٠ عاما . وحين احتاجت القوات المسلحة السعودية عام ١٩٥٦ الى سيارات نقل ثقيلة ، قامت الحكومة بشرائها منه . وأصبح ممثلا لشركتى « دودج » و « كرايزلر » حين أخذت السعودية تشترى المزيد من سيارات النقل ذات مواصفات المرور العالية . وفى عام ١٩٦٦ قام الخاشقجى بدور الوسيط فى عملية شراء القوات المسلحة السعودية لصواريخ « أرض جو » أمريكية قيمتها ١٣٦ مليون دولار . ولقد تضاعفت منذ ذلك الوقت تكاليف هذا الطلب ثلاث مرات .

وتمكن رجل الأعمال السعودى من تعبئة جزء من رءوس الأموال السعودية « الحرة » ونجح فى شراء نصيب كبير من أسهم بنكين فى كاليفورنيا برأسمال قدره ١٤٠ مليون دولار . واستثمر أمواله فى تربية الماشية فى ولاية أريزونا ، ومطاعم كاليفورنيا وشركات الشحن وعدد من شركات نيويورك . ولدى الخاشقجى « غرفة عمليات » تتكون من ٢٠ فردا من بينهم ١٤ أمريكيا . وبعض هؤلاء الموظفين يتقاضى ١٠٠ الف دولار فى العام . وتقدر الثروة الشخصية لرجل الأعمال بـ ٨٠ مليون دولار ، ولكن حين يسأل عن ذلك لا يرد الا بابتسامة . ويود الخاشقجى تطبيق الرأسمالية بصورتها الغربية فى المملكة العربية السعودية والعالم العربى . فيتحسر قائلا : « اننى أتهم الولايات المتحدة انها لا تصدر نظامها لنا » .

من هو ؟ هل هو سعودى أو أمريكى يرتدى عباءة طويلة ويحمل

جواز سفر سعوديا ؟ ومصالح من التى يمثلها ويدافع عنها ؟ هل هى المصالح السعودية فى الولايات المتحـــدة أو المصالح الأمريكية فى السعودية والدول الأخرى ؟

ولقد قام المليونير السعودى غيث فرعون — ابن مستشـــار الملك فيصل وزميل الخاشقجى — بشراء جزء كبير من أسهم أحد بنوك ديترويت ، يتعامل فى مليار دولار . وحول المليونير السعودى البنك الى هيئة مالية دولية ، وينوى افتتاح فروع فى بيروت والكويت والقاهرة وغيرها من المدن بهدف تعبئـــة رءوس الأموال العـــربية وتحويلها الى الولايات المتحدة . وهاهو الرجل السعودى يتصرف كرجل الأعمال الامريكى حتى حين يملك النصيب الاكبر من الاسهم.

حـــدود الامـكانيـات

مامدى امكانيات أساطين المال فى استخدام قوتهم للتأثير لا فى الشركات وحدها ، بل وفى سوق النقد بصفة عامة ؟ زعمت الصحافة الغربية عام ١٩٧٣ حين بلغت احدى نوبات حمى النقد ذروتها أن السبب فى ذلك هو رءوس أموال الدول المنتجة للبترول . فكتبت صحيفة « وول ستريت جورنال » زاعمة أن تصرفات دول الشرق الأوسط فى أسواق الذهب وبورصـــات النقد غير المســـتقرة تجعل استقرار نظام النقد العالمى « أمرا مشكوكا فيه » . وتم الاعلان عن أن « مضاربات دول الشرق الأوسط بالنقد » من بين الاسباب الرئيسية لتخفيض سعر الدولار للمرة الثانية فى فبراير ١٩٧٣ . واتهمت الدول المنتجة للبترول بعد ذلك حين وقف الدولار على قدميه بعض الشىء بأنها السبب فى ذلك أيضـــا حيث زادت الطلب على الدولار عن طريق « مضختها المالية العملاقة » التى تمتص احتياطيات أوربا الغربية من الدولار . وتزعم مجلة « نيوزويك » قائلة « يلوح فى الأفق كابوس فظيع ، حين يدفع العناد العرب الى القاء احتياطيات ضخمة من العملة الصعبة الى بورصات النقد فى العالم ويبدأون بذلك حربا مقدسة واسعة النطاق على الدولار » ولاشك أن شبح ذلك يكفى وحده لاصابة خبراء شئون الدول العـــربية الامريكيين

بالهلع . وفى هذا يقول أحد الديبلوماسيين الامريكيين فى بيروت : « انهم لن يتسببوا الآن فى أحداث أية قلاقل ، لانهم مشغولون جدا بسك النقود . ولكن هذا يعنى أن يكون المرء مكمم الفم فى حجرة مغلقة مع طفل يبلغ الخامسة ويعبث بقنبلة يدوية » .

تخفى الصعوبات المرتبطة بتحويل « الأموال البترولية » بسرعة من بلد الى آخر خطورة هذه العملية . فقد حولت حكومة ليبيا عام ١٩٧١ من سوق النقد الانجليزى ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى الى سويسرا انتقاما من السياسة البريطانية فى منطقة الخليج العربى. ولكنها خسرت فى هذه العملية ٥ ٪ مما يشكل مبلغا كبيرا .

وتستخدم الحملات الدعائية الموجهة ضد العرب حجة أن الدول المنتجة للبترول تضع جزءا من عملاتها فى بنوك الغرب كحسابات قصيرة الأجل ، مما يتيح سرعة تحويلها من بلد الآخر . ولكن ماسبب ذلك ؟ ان سبب ذلك اولا وقبل كل شىء اهتزاز العملات الغربية ورغبة الدول المنتجة للبترول فى حماية احتياطياتها من فقدان قيمتها. كما أن هناك الخوف من تجميد الحسابات الطويلة الأجل اذا تغيرت السياسة النقدية للدول الامبريالية . كما أنه لا يستبعد خطر «حجز» البنوك الأجنبية للاستثمارات طويلة الأجل لاجراء انتقامى ، اذا لم تبد حكومات منطقة الخليج — على سبيل المثال — « مرونة » فى الصراع مع الاحتكارات البترولية .

لا يشترك « شيوخ البترول » عادة فى لعبة العملات فيكفى أن يأمر صاحب العملة البنك الذى يتعامل معه لتغيير العملة بغيرها، لتحويل الحسابات القصيرة الأجل . ولكن ينبغى معرفة مستوى أسعار الفائدة على الحسابات القصيرة الاجل فى مختلف الدول ، فضلا عن معرفة أسعار العملات باليوم ، بل والساعة ، وذلك بهدف حساب المكسب والخسارة . ولا يستطيع القيام بذلك سوى الاحتكارات المصرفية الدولية ، التى تمتلك فروعا فى كل الدول الرأسمالية . واذا اضفنا الى ذلك أن خبراء المؤسسات المالية المركزية فى الدول العربية بمنطقة الخليج مرتبطون شخصيا بهذه الاحتكارات بصفة أساسية ، فمن الممكن ادراك مدى تقيد « حرية » شيوخ البترول فى « اختيار » عملات المضاربة .

وحتى الآن لا توجد لدى دول شبه الجزيرة العربية وليبيا خطة محددة طويلة الآجل لاستخدام دخولها . فان نتائج زيادة أسعار

البترول كانت مفاجأة لهم أنفسهم . ولقد دعا أحد المشتركين فى المؤتمر الذى عقد فى الكويت عام ١٩٧٤ لمناقشة مشاكل الاستثمارات ـ دعا زملاءه « ألا يكونوا كالحمار الذى يموت من العطش فى الصحراء وهو يحمل قربتين من الماء على ظهره » . وتبدو المشاكل المالية ومشاكل العملة ، لدول شبه الجزيرة العربية ، بالغة التعقيد ، بحيث تحتاج أية سياسة « واقعية » فى هذا المجال الى التعاون مع صندوق النقد الدولى والاتحادات المالية المتعددة الجنسيات الكبرى. ولقد وصف خبراء الاقتصاد فى الدول المنتجة للبترول اصطلاح « رءوس الأموال الفائضة » الذى تستخدمه الدعاية الغربية ، بأنه اصطلاح كاذب . فان رءوس الأموال التى لا تستخدم فى الاقتصاد المحلى ، تتداول تلقائيا فى الشبكة المالية الدولية ، وتواصل رءوس الأموال هذه تدفقها على الاحتكارات المتعددة القوميات ، التى تسيطر على قنوات حركتها وتستثمرها فى الدول الغربية المتقدمة صناعيا .

وتضطر حكومات الدول البترولية الى تحويل جزء من رءوس أموالها الى أسهم وسندات طويلة الأجل تعود بدخل ثابت ، وذلك لخفض خسائر العملات . فحوالى ٦٠ فى المائة من احتياطيات الكويت الرسمية والاحتياطى الاستراتيجى من العملات فى البلاد محولة الى أسهم وسندات أجنبية . وتحتفظ أبوظبى كذلك بحوالى نصف احتياطياتها من العملات الحرة كسندات وأسهم فى البنوك الانجليزية والأمريكية والسويسرية وحولت العربية السعودية عملاتها الى سندات وأسهم فى البنوك الأمريكية .

وأخبار حركة الأموال البترولية « الحرة » متناقضة لأنها سرية ، لأسباب مفهومة كلية . ففى أوربا الغربية يؤكدون أنه تم تحويل جزء كبير من الى ٦٠ مليار دولار (وفقا لبيانات عام ١٩٧٤) الى ٦٠ مليار دولار (وفقا لبيانات عام ١٩٧٤) الى الولايات المتحدة الأمريكية ، أما الأمريكيون فيقولون أن التحويل تم الى أوربا الغربية .

والواقع أن استخدام الدول المنتجة للبترول لمدخراتها من العملات على هذا النحو يعنى أنها تقدم قروضا طويلة الأجل لحكومات الغرب ، كما أنها تعطى البنوك الخاصة الغربية والشركات أموالها لاستثمارها فى مشروعات كبيرة ، بشرائها أسهم وسندات هذه البنوك والشركات . وفى هذا يقول العتيقى وزير المالية

الكويتى : « ان الجزء الأكبر من رأسمالنا القومى يوجد تحت تصرف الدول المتقدمة صناعيا ، ولا يمكن مقارنة دخولنا من هـذا على الاطلاق بالفوائد الاقتصادية التى تعود على الدول المتقدمة من هذه الأموال » . وهذه نظرة واعية لتوازن القوى الحقيقى اليوم بين أساطين المال القدامى والجدد .

ولقد شهد التاريخ عمليات مثل دخول أصحاب المليارات الذين جمعوا ثرواتهم من بترول تكساس على رأس المال « القديم » الكبير فى الساحل الشرقى للولايات المتحدة الامريكية ، أو كيف نسق ملوك الصلب فى الرور مصالحهم مع ملوك الالكترونات فى بافاريا . ولكن التاريخ لم يشهد من قبل ظاهرة مثل التى تحدث اليوم لا من حيث المدى ، ولا من حيث تأثيرها فى الوضع الدولى . ان وزن أصحاب « المليارات البترولية » فى الوقت الراهن اقل بكثير من أرقام رءوس أموالهم . ولكن انطلاقا من انهيار هيكل اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية واليابان ، وانخفاض معدلات تطورها وتغير العلاقات الاقتصادية للرأسمالية المعاصرة ، واعادة تنظيم النظام المالى والنقدى الرأسمالى ، يمكن أن تظهر فى الواقع مراكز مالية جديدة ، وان كانت ثانوية . وعلى هـذا من المحتمل أن تتحول الكوابيس التى كان يراها رجل الاعمال الامريكى فى نومه — الى حقيقة .

أود ، وأنا انهى كلماتى حول دول البترول فى شبه الجزيرة العربية ومكانها فى العالم ومشاكلها وخططها — العودة مرة أخرى الى جزيرة داس حيث تزار المشاعل ويتدفق البترول عبر الانابيب الفضية اللون . فقد عرفنى مدير شركة « أبو ظبى مارين ايريز » بعجوز عربى كان يمثل حكومة الامارة . كانت عزة النفس تبدو على الزعيم البدوى السابق الا أنه بدا كالضائع وسط هدير البولدوزرات وحركة التشييد . ومن المحتمل انه كان محاربا ممتازا ومنظما رائعا للقوافل عبر الصحراء . ولكنه كان يشعر هنا كالغريب . لقد رأيته آخر مرة قبل اقلاع الطائرة حيث كان واقفا على أحد التلال فى ملابسه البيضاء ينظر فى أثر ناقلة بترول أثناء ابحارها . وكانت تفصل بيننا شعلة نيران أنابيب الغاز البرتقالية الطينية اللون . وأخذت خطوط جسد العجوز تهتز مع اهتزاز الهواء المندفع ، وتبددت ملامح الجسد وكأنه يذوب .

■

ملحق

من حديث صحفى أدلى به هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية لمجلة ((بيزنس ويك)) .

سؤال : هل لكم ان تعطونا صورة عن المشاكل السياسية التى ستظهر لو لم يكن هناك تضامن بين الدول المستهلكة للبترول ؟

جواب : ان الطريقة الوحيدة الآن لخفض اسعار البترول هى خوض حرب سياسية واسعة النطاق ضد بعض الدول مثل العربية السعودية وايران ، لاجبارها على تعريض استقرارها السياسى للخطر وربما تعريض امنها ، هذا اذ لم تبدأ فى التعاون . وهذه خسارة كبيرة جدا بالنسبة لنا حتى ولو كانت مقابل التخفيض الفورى لأسعار البترول . ذلك لانه لو توصلنا الى الاطاحة بالنظام القائم فى العربية السعودية وجاء الى الحكم قذافى آخر ، أو قوضنا شكل ايران كدولة قادرة على مواجهة الضغوط من الخارج ، فاننا نضع أسس الاتجاهات السياسية التى يمكنها أن تؤدى بالاهداف الاقتصادية الى الفشل . ومن ناحية اخرى تحتاج الضغوط الاقتصادية والحوافز التشجيعية الى وقت لتنظيمها ، كما انها من الممكن الا تكون فعالة دون تضامن المستهلكين . وعلاوة على ذلك فاننا لو اوجدنا مثل هذه الأزمة السياسية ، التى رسمت صورتها الآن ، فانه سيتعين علينا دون جدال أن نحدثها وسط ظروف المواجهة مع أوربا واليابان والاتحاد السوفيتى .

سؤال : تمكنت الدول المنتجة للبترول فى العام الماضى من خفض الانتاج بقدر انخفاض الطلب . الا يدلنا ذلك على أن التوفير فى استخدام الطاقة لا يكفى وحده لتقويض التجمع البترولى ؟

جواب : هذا صحيح . ولكن هناك حدودا يستحيل تعديها . ان دخول الكثير من الدول المنتجة للبترول تعتمد على تطورها الاقتصادى . والدول التى تستطيع خفض الانتاج دون التاثر بذلك هى الدول ، التى تتضخم حساباتها فى

البنوك . أما الدول التى تحتاج الى دخول البترول لتطورها الاقتصادى مثل الجزائر وايران وفنزويلا فان امكانيات خفض انتاج البترول بها محدودة . فاذا انخفض انتاج البترول فى مثل هذه الدول بدرجة محسوسة ، فان خطط التنمية الاقتصادية بها ستتعرض للاخطار ، وعلى هذا تزداد اهمية مشكلة توزيع خفض الانتاج .

سؤال : هل يكفى تحديد الاستهلاك المقرر عام ١٩٧٥ الى حوالى ثلاثة ملايين برميل يوميا (البرميل من البترول = ١٥٩ لترا) ؟

جواب : اعتقد أن ثلاثة ملايين برميل يوميا تكفى اذا اخذنا فى الاعتبار مصادر الطاقة البديلة الى جانب زيادة الامدادات فى السنوات القادمة . سيتعين علينا الاستمرار فى توفير الطاقة لعدد من السنوات .

سؤال : هل تستطيع الولايات المتحدة الامريكية الضغط سياسيا على التجمع البترولى ؟

جواب : ان لدى بلد بحجم الولايات المتحدة الوسائل السياسية التى يمكن ان تلجا اليها . وبطبيعة الحال ينبغى على الدول التفكير جيدا فى رفع اسعارها ذلك لان هذا من شانه ان يؤدى الى بعض العواقب السياسية دون جدال . ولكنى لا اود التطرق الى هذا .

سؤال : هل تعتقدون أن هناك فى الموقف العربى الاسرائيلى ما يمكن أن يؤدى الى خفض اسعار البترول ؟

جواب : لا .. لا اعتقد أن الموقف لو ساء ، فقد يؤدى الى خفض امدادات البترول . وانى لا ارى انه من العقل محاولة بيع تنازلات اسرائيلية مقابل خفض اسعار البترول ، ذلك لان هذا من شانه ايجاد اساس للضغط فى الاتجاه المعاكس وقت الازمة . وحين تريد دول الاوبيك منا امرا سياسيا، فانها ستعود من جديد للتهديد برفع الاسعار .

سؤال : هل يستخدم العرب دولاراتهم البترولية لفرض حل للنزاع العربى الاسرائيلى يتلاءم معهم ؟

جواب : لا اعتقد انهم حاولوا ذلك حتى يومنا هذا . واذا لم يكن هناك تضامن فى الوقت الراهن بين الدول المستهلكة للبترول ، فانه سيظهر فى نهاية المطاف .

سؤال : يردد رجال الأعمال كذلك ان عمليات عسكرية يمكن ان تكون رد الفعل الوحيد على التجمع البترولى فى نهاية الامر . هل فكرتم فى عمليات عسكرية بسبب البترول ؟

جواب : عمليات عسكرية بسبب اسعار البترول ؟

سـؤال : نعـم .

جواب : هذه سياسة بالغـة الخطورة . ان تجـربة فيتنـام يجب ان تعلمنا أن الدخول فى حرب اسهل من الخروج منهـا . ولكن لا اريد القـول انه قد لا توجد الظروف التى تجعلنا نستخدم القوة . ولكن استخدام القوة فى حـالة النزاع على الأسـعار أمر ، واستخدامها حين يهدد العالم الصناعى بالخنـق امر آخـر .

« بيزنس ويـك »
نيويورك ، يناير ١٩٧٥

حين قرر هنرى كيسنجر ، رغم كونه دبلوماسيا بارعا ، التطرق علنا الى امكانية التدخل العسكرى الأمريكى فى دول الشرق الأوسط ، فان هذا يعنى دون جدال أن هـذا الموضوع قد نوقش على مستوى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

وصرح كيسنجر ان الولايات المتحدة لن تقـوم بهـذا العمل لخفض أسـعار البتـرول ، بل سـتقوم به « اذا ما هدد خطر الخنق العـالم الصـناعى » . ولكنه لم يوضح من الذى سيتخذ القرار حـول الوضـع الذى يمكن وصـفه بكلمة « خنق » . غير انه يمكن من خلال تعبيرات وزير الخارجية الأمريكى الحذرة استنتاج أن الأمريكيين هم الذين سيتخذون مثـل هـذا القرار .

ان الدول المنتجـة للبترول لا تنوى ، كما اعلن الشـاه اكثر من مرة ـ تقويض اقتصـاد العالم الغربى . الا أن ايران لن تبقى مكتوفة الأيـدى وتدع الاخرين يهـددون .

« اطلاعات »
طهران ، يناير ١٩٧٥

فى الوقت الذى علق فيه الكثير من المسئولين فى الدول العربية على الانبـاء الواردة من واشنطن حول المناورات التى تقـوم بهـا بعض الوحدات الأمريكية فى الصحراء استعداد للتدخل فى الدول المنتجـة للبتـرول بكلمـات مثل « كلام فارغ » ، « مستحيل » « من المستبعد » ، صـرح كيسنجر بمنتهى الوضـوح أن سياسة بلاده على اعلى مستوى لا تستبعد امكانية استخدام القوة ضـد الدول المنتجة للبترول .

ان ما يثير قلق الولايات المتحـدة الامريكية هو مشكلة حماية نفسها من خطر استخدام العرب للبترول كسلاح فى حالة اندلاع حرب جـديدة فى الشرق الأوسط . فقد أحدث خفض الدول العربية لانتاج البترول ٥ فى المائة فقط عقب حرب أكتوبر وفرض حظر على امداداته الى الولايات المتحدة الامريكية ــ تاثيرا كبيرا فى الاقتصاد العالمى .

« الاهرام »
القاهرة ، يناير ١٩٧٥

قال رئيس مجلس الثورة الجزائرى هوارى بومدين ردا على سؤال لراسل صحيفة « اكسيلسيور » المكسيكية ، أنه لا يرى أن « الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع السير عكس حركة التاريخ » على هذا النحو ذلك لأن السمة المميزة لهذا العصر هى التخلى عن التدخل العسكرى كوسيلة لحل المشاكل . وأردف بومدين قائلا : « لا يمكن اعتبار أى تدخل عسكرى من جانب دولة متقدمة سوى عمل اسـتعمارى » .

واستطرد قائلا أن « احتلال كيلو متر واحـد من أى بلد فى الوقت الراهن يعنى احتلال بلد باكمله ، واحتلال بلد عربى واحد يعنى احتلال العالم العربى كله » .

واكد بومدين أن كل الدول المنتجـة للبترول حققت انتصـاراتها بفضـل تضامنها . وقال أن « النضـال الذى تخوضه الدول المنتجة للبترول جزء لا يتجزأ من نضـال « العالم الثالث » . من أجل اعادة تقييم ثرواته الطبيعية ووضـع نظام اقتصادى جديد فى العالم » . واكد رئيس مجلس الثورة أن الدول العربية تستطيع بسهولة تدمير كل آبار البترول بهـا فى حالة مثل هذا العدوان .

« المجاهد »
الجزائر ــ يناير ١٩٧٥

صرح المتحدث الرسمى باسم حكومة جمهورية المانيا الاتحادية فى بون بصدد الحديث الذى ادلى به كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى لمجلة « بيزنس ويك » حول امكانية اتخاذ الغرب لاجراءات عسـكرية ضد الدول العربية المصـدرة

للبترول — أن جمهورية المانيا الاتحادية لا تزال لا تنوى التورط فى مثل هـذه « المخطط أو الاجراءات » . وأشار المتحدث باسم الحكومة الى تصريح المستشار هـ. شميث الذى يتضمن نفس المعنى .

وكالة « د.ب.ا » الالمانية الغربية
هامبورج — يناير ١٩٧٥

يعتبر التهديد الخفى بالقيام بعمل عسكرى ضد الدول المصـدرة للبترول استبرارا محسوبا بدقة لسياسة سيف ديموقليس الأمريكية لضـمان امدادات الدول الصناعية للبترول اذا ما اقتضى الأمر ، وهى السياسة المعلقة دائمـا فوق رقاب العرب . ولم يخرج كسينجر فى تصريحـاته عما اعلنـه وزير الدفاع شليسنجر الذى لم يستبعد فى العام الماضى اثناء الحظر البترولى امكانية التدخل العسكرى . غير أن تأييد الرئيس فورد الاكيد لتلميحات وزير خارجيته تضفى على التهديد الجديد وزنا اكبر .

« رينيشه بوست »
دسلدورف — يناير ١٩٧٥

كيسنجر يهدد الدول العربية . وهذا التهديد يعتبر خرقا لمبادىء منظمة الأمم المتحدة الواردة بكل وضوح فى المادة الأولى من ميثـاق الامم المتحـدة . والهدف من هذا التهديد هو حرمان الدول الفتية من حقها فى اتخـاذ الاجراءات التى تتناسب مع سيادتها من أجل عدم السماح بتدهور تجارتها ، ووضـع حد لتخلفها وفقرها ، وأخيرا ، ضـمان استقلالها الاقتصـادى .

ان لغـة وزير الخارجية الأمريكى ليست سوى لغة الاستعمار « وديبلوماسية المدافع » . ان تهديده موجه لا لمنتجى البترول فحسب ، بل يعتبر فى الوقت نفسه دعوة فظة « لحلفـاء » الولايات المتحدة الأمريكية الأوربيين بالتزام النظام . فانه يعلن دون مناورة عن تبعيتهم للولايات المتحـدة .

انه يملى — ويالها من لهجة تهديد ! — موقفا ينوى فرضه على توابعه .. « موقفا مشتركا » لمحاذاة صـف واشنطن فى سياستها نحو الدول العربية .

« لومانيتيـه »
باريس — يناير ١٩٧٥

ان اى تهديد ببدء الحرب فى الشرق الأوسط سخيف ويخلو من المسئولية . ان الكبار لا يلعبون بالكبريت فوق خزان البنزين المفتوح . ولكن سماع الخطب الحماسية العسكرية من زعماء دول الشرق الأوسط أو اسرائيل أمر ، وسماع مثل هذه الخطب من وزير خارجية دولة كبرى أمر آخر تماما .

لا جدال أن خطر الحرب فى الشرق الأوسط مائل وكبير . وبطبيعة الحال هناك خطورة محققة من أن أى صدام جديد فى المنطقة سيجر الدول الكبرى الى مواجهة عالمية . ولا شك انه لا يمكن التنبؤ بعواقب حظر بترولى جديد ، يفرض فى حالة اندلاع حرب جديدة فى الشرق الأوسط . ولكنه كان ينبغى على كيسنجر ، الذى حذر من خطورة كثرة الحديث عن الحرب — أن يكون أول من يدرك أنه يدفع بخطبه الحماسية العسكرية أطراف المواجهة فى الشرق الأوسط الى الوصول الى حد تصبح عنده الحرب أمرا لا يمكن تجنبه . وحين يفتح او يوارب كيسنجر الباب امام الذين يرون فى جنون ان كارثة عالمية هى الطريق الوحيد لتسوية أزمة البترول ، فانه متهم بالحماقة .

« جلوب اندميل »
تورونتو — يناير ١٩٧٥

ملخص الحديث الصحفى الذى أدلى به الشاهنشاه لكبير محررى مجلة « نيوزويك » ارنو دى بور تشجريف .

بور تشجريف : لقد ضمنت بريطانيا السلام والاستقرار فى الخليج الفارسى بثمن أقل من ٥٠ مليون دولار فى العام . ويتعين عليكم وانتم تقومون بدور ضامن الشريان البترولى العالمى انفاق من ٢ الى ٣ مليارات دولار فى العام . فما سبب هذا الفارق الكبير ؟

الشاهنشاه : لقد كان لدى بريطانيا نفوذ وهيبة فى العالم اجمع مما أعطاها قوة هائلة فى هذه المنطقة . وكان وجود كتائب حرس جولد ستريم فى البحرين أو الشارقة رمزا لهذا الوضع العالمى . اما فيما يتعلق بانفاقاتنا فيمكنك مقارنتها بما ينفقه المغامرون فى هذه المنطقة . وعليك أن تاخذ فى اعتبارك ان عدد سكاننا سيصبح ٣٧ مليونا بعد خمس سنوات بعد ٣١ مليون فى الوقت الحالى . ولهذا فان لدينا مسئولية ليست قومية واقليمية فحسب ، بل ولدينا دور عالمى لحماية ٦٠ فى المائة من احتياطيات البترول العالمية . وأن نكون أقوياء يعنى اننا نسمح لانفسنا أن نكون حكماء . ان ما نقوم بشرائه هو وسائل تخويف وينبغى على جيراننا أن يؤمنوا بذلك .

بور تشجريف : ماذا تشترون بالذات بأموالكم ؟ لقد سمعت على سبيل المثال انكم تقومون بشراء ١٤٥ قاذفة مقاتلة من طراز « فانتوم » وان لديكم منها أكثر من اسرائيل .

الشاهنشاه : وعلاوة على ذلك لدينا الان ٨٠ طائرة فانتوم يبلغ ثمن الطائرة منها ٥ر٢ مليون دولار ، وسيصل الينا ١٠٠ طائرة أخرى ، يبلغ ثمن الطائرة منها ٥ ملايين دولار . وسيربو بذلك عدد الطائرات القاذفة المقاتلة لدينا عن ٣٠٠ طائرة . وبعد ذلك طائرات النقل من طراز س ــ ١٣٠ (لدينا الان ٥٠ طائرة وطلبنا ٥٠ أخرى) وندفع من ٥ر٢ الى ٥ ملايين دولار ثمنا لكل طائرة . وعلى هذا النحو فان أسعار البترول تتماشى بصعوبة ، كما ترى ، مع ما ينبغي علينا أن ندفعه لمشتروات الأسلحة من الخارج لحماية الخط البالغ الاهمية للعالم الصناعي .

بور تشجريف : تشير التقديرات الى انكم تشترون حوالى ٤٠٠ طائرة عمودية لدى الولايات المتحدة الأمريكية .

الشاهنشاه : لا ، العدد أكثر من هذا . لقد طلبنا ٧٠٠ طائرة منها ٢٢٠ طائرة مزودة بمدافع . وسيبلغ ثمن الطائرات العمودية وحدها حوالى ٥٠٠ مليون دولار .

بور تشجريف : أليست هذه كمية كبيرة جدا من الطائرات والطائرات العمودية بالمقارنة بمتطلباتكم ؟

الشاهنشاه : لا .. لأن الدول الاخرى فى هذه المنطقة تشعر بانها فى حاجة الى ٥٠٠ طائرة وطائرة عمودية ، وعلى سبيل المثال مصر وسوريا واسرائيل . كما نقوم كذلك بشراء ٨٠٠ دبابة « تشيفتين » من بريطانيا ، مما سيكلفنا ٤٨٠ مليون دولار ، كما نقوم فى الوقت نفسه بتحديث ٤٠٠ دبابة من طراز م ــ ٤٧ ، والتى حصلنا فى العام الماضى من الولايات المتحدة الأمريكية . وسنطبق برنامج التحديث هذا على ٤٦٠ دبابة من طراز م ــ ٦٠ . وسيتيح لنا هذا امكانية انشاء قوة مدرعة قوامها ١٧٠٠ دبابة . ويتضاعف حجم الأسطول البحرى ، ويضم الان أكبر أسطول من السفن التى تسير على وسائد الهواء .

بور تشجريف : كيف ستنفقون مليار آخر على القواعد الجديدة ؟

الشاهنشاه : سيتحول ميناء تشاهبيهار الى أكبر قاعدة جوية وبحرية فى المحيط الهندى . وسوف تحمى القاعدة مداخل الخليج الفارسى . وسوف يحمى ميناء بندر عباس فى مضيق هرمز الذى انتهت الاعمال فيه تقريبا ، أهم خط بترولى فى العالم . ورغم أن اليابان تحصل على ٩٠ فى المائة من بترولها من منطقة الخليج الا أنها لا تستطيع ضمان أمن امداداتها . وينطبق هذا على الدول الغربية كذلك التى تعتمد على بترول الخليج بنسبة ٦٠ فى المائة من امداداتها . ويقول مبدأ

نيكسون ان الولايات المتحدة الامريكية سوف تساعد من يساعد نفسه بنفسه ، وهـذا ما نفعله .

بور تشجريف : هل تلقيتم كذلك قنابل « سمارت » الموجهـة بالتليفزيون أو الليزر ، التى طلبتموها ؟

الشاهنشاه : نعم .. نحن نتلقى كل ما هو غير ذرى ويوجد لدى الولايات المتحـدة الأمريكية .

بور تشجريف : ما هى الأخطار التى يمكن أن تتهدد امدادات البترول الى الغرب فى المستقبل من وجهة نظركم ؟

الشاهنشاه : امكانية الاطاحة ببعض الانظمة على الجانب الاخر من الخليج الفارسى من قبل المتطرفين أو بواسطة الاعمال التخريبية التى تمارس الآن وخذ على سبيل المثال ثورة ظفار فى عمان . اذا تمكنت هذه الثورة من تحقيق النجـاح فى وقت من الأوقات ، فلك أن تتصور بما يمكن أن تصطدم به فى مسقط . لقـد بدا الوضع فى الجانب الاخر من مضيق هرمز بعدة بنادق ، ثم أعقبتها المدافـع والصواريخ . هذه طريقة معروفة . انى لا استطيع احتمال النشاط التخريبى ، وأعنى بالنشاط التخريبى كل ما هو مفروض من الخارج .

بور تشجريف : او لهذا تسـاعدون عمان ؟

الشاهنشاه : لقد طلبوا مساعدتنا فقدمناها لهم .

بور تشجريف : تقولون انكم لن تحتملوا أن تظهر انظمة راديكالية فى اى من الامـارات العربيـة ؟

الشاهنشاه : نعم .

بورتشجريف : ولكن الا يستطيع العراق احتلال الكويت قبل أن تتمكنوا من عمل شىء ؟

الشاهنشاه : اذا بدأ العراق فى الصباح ، فربما يحتل الكويت قبل الغداء .. ولكن اذا ابدت الحكومة الكويتية مقاومة ، وطلبت معونتى ، فانها ستتلقاها على الفور . وبطبيعة الحال فان الكثير يعتمد على موقف العربية السعودية والاردن . واذا كانت الدول الأخـرى ستعترف بالأمر الواقع فان ذلك سيمثل معضلة فظيعة بالنسبة لنـا .

بورتشجريف : ان عملاء العراق يعملون بنشاط فى منطقة الخليج الفارسى

فقد كانوا يرسلون المدافع والعملاء عن طريق التهريب الى بلدكم ، والى عاصمة باكستان مؤخرا . فما سبب السياسة العراقية هذه ؟ وألا يشجع الاتحادالسوفيتى كل هـذا ؟

الشاهنشاه : انى أوثر القول بان روسـيا لا تقف وراء ذلك . انى أود الايمان أن هذا نشاط تخريبى عاطفى يخلو من التعقل لمجموعة من الناس ، الذين وصلوا الى السلطة بواسطة قدر قليل من الحظ وعدد قليل من الدبابات ، ولكنهم أصبحوا قوة مدمرة ينبغى أخذها بعين الاعتبار .

بورتشجريف : ماذا يمكن أن يحدث لو أن عقيدا مثل القذافى استولى على السلطة فى العربية السعودية ؟

الشاهنشاه : معاذ الله ! ولكن ينبغى على الاعتراف بان خطورة مثل هذا الأمر قائمة .

بورتشجريف : ما هى العوامل التى جعلتكم تقدمون على أن تكون ايران اقوى دولة عسكرية فى المنطقة ؟

الشاهنشاه : لقد بدأت التفكير فى ذلك عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٠ عندما توصلت الى استنتاج أن الولايات المتحدة الامريكية لا تستطيع الاستمرار فى دور رجـل البوليس الدولى الى ما لا نهاية . ونصحتنى الولايات المتحدة آنذاك بعدم القلق، حيث أكد لى المسئولون قائلين « نحن نستطيع القيام بدور بوليس العالم بفرقتى مظلات » . ثم جاء قرار الحكومة البريطانية عام ١٩٦٨ بالانسـحاب من الخليج الفارسى عام ١٩٧١ . ومن الواضح أن هذا أوجد فراغا . أضف الى ذلك عدم رغبة أمريكا فى القيام بدور رجل البوليس فى المناطق الحساسة بالنسبة لمصالحها الحيوية . وسيتوصل كل من له احساس سياسى ـ جغرافى الى استنتاج انه ليس لدينا مخرج آخر كما لم يكن هناك مخرج آخر أمامكم فى قراركم بتأييدنا بالكامل .

« كيهان انترناشينال »
طهران ـ مايو ١٩٧٣

صرح جلالة الامبراطور الشاهنشاه أن القوات الايرانية تحارب فى سلطنة عمان ، الواقعة فى منطقة الخليج الفارسى . وأعلن ان القوات الايرانيـة قامت بعملية ناجحة بتطهيرها الطريق الموصل بين صلالة فى ظفار الى مسقط . وكانت الانباء قد تواردت فى الماضى حول مساعدة القوات المسلحة الايرانية للسلطنة ، ولكنها لم تكشف عن تضمن هذه المساعدة الاشتراك فى المعارك . ولقد جاء تصريح الامبراطور فى حديث صحفى أدلى به لصحيفة « ديلى تلجراف » الانجليزية . وحين

سئل الشاهنشاه حول انسحاب القوات البريطانية من منطقة الخليج أجـاب بقوله : « لم يكن هذا أسوأ سبيل . لو كنا قد استطعنا ايجاد نوع من التعاون ولو فى أضعف صورة، لكنا قد تمكنا من السيطرة على الموقف كما أعتقد وعلمنا بمضمون المساعدة التى طلبها منا سلطان عمان . وانى فى غاية العجب حين تصف أجهزة دعائية معينة بضع مئات من المتوحشين «بالقوى التحررية». ان عزاء هؤلاء المتوحشين الوحيد هو مطاردة الناس وقتلهم . ويطلقون على أنفسهم « جيش التحرير » . واذا اقتربوا لأصبحوا عند مدخل الخليج الفارسى الذى يعتبر شرياننا الحيـوى. ولم نكن لنستطيع احتمال هذا . ولك أن تتصور لو أصبح بحر المانش مغلقا فى وجهكم ، وان كان ساحلكم المطل على المحيط الاطلنطى مفتوحا . ان هذا هو المخرج الوحيد لنا الى البحر . ونحن لا نخفى تعاوننـا مع قوات السلطان . ونحن نؤكد دائما اننا نستطيع بطلب من أيا من حكام دول الخليج الفارسى أن نفعل كل ما يطلبه ولكنا لن نفرض أنفسنا فى أى وقت من الأوقات » .

« طهران جورنال »
« طهران — فبراير ١٩٧٤ »

أكد الشاهنشاه من جديد فى الحديث الذى أدلى به لصحيفة « صاندى تايمز »، موقف ايران من الأمن فى منطقة الخليج الفارسى . وأشار الامبراطور الى أن العصر الذى كانت بريطانيا تستطيع فيه الحفاظ على السلام فى مياه الخليج بواسطة بضع سفن — قد ولى . فقد كان يعزز القوات المسلحة البريطانية القليلة المـدد آنذاك الوجود العسكرى الضخم لبريطانيا فى العالم بأسره ، واردف الشاهنشاه قائلا : « حينئذ لم يكن هناك عملاء للبعث أو كوبيون » يقومون بنشاط تخريبى فى دول الخليج الفـارسى .

وطرأ الآن فى النصف الثانى من القرن العشرين واقع جديد على منطقة الخليج الفارسى . وأصبح من المنطقى بالنسبة لايران التى ستخسر أكثر من أية دولة أخرى فى حالة الفوضى وتقويض الأمن فى الخليج الفارسى — أن تسعى الى أن تجعل من قوتها العسكرية قادرة على ضرب أى نشاط تخريبى .

وهذا دليل على أن برنامج مشتريات السلاح الحالى سوف يستمر .

ويعتبر الدور الذى تلعبه ايران اليوم فى عمان بمساعدتها السلطان على قمع الثورة ، التى نظمها ويساندها بالسلاح اناس من دول أجنبية جزءا من السياسة الايرانية العامة أزاء أمن المنطقة .

ويصدق الامبراطور حين يقول انه لو وقعت احـدى دول سـاحل الخليج الفارسى فى أيد غير التى نرجوها فان هذا يعنى كارثة بالنسبة لأمن هذا الطريق المائى البالغ الأهمية . وينبغى على دولة صغيرة مثل عمان بمواردها المحدودة ، الاعتماد على الحكومات الصديقة لمحاربة النشاط الارهابى القادم من دولة أخرى ويستهدف أمنهـا .

وأوضح الامبراطور نقطة أخرى كذلك هى أنه ينبغى على ايران أن تتحمل المسئولية وحدها مهما كلفها الأمر لا سيما أن دول الخليج الفارسى الأخرى لم ترد

على المبادرة الايرانية الرامية الى انشاء نظام للامن الجماعى فى منطقة الخليج . وهذا بديهى ، ذلك لانه ما من دولة ستخسر نتيجة الأخطار التى تتهـدد منطقة الخليج مثلما ستخسر ايران .

ويمكن لايران لما لها من خبرة كبيرة فى التحديث والتصنيع أن تصبح نقطة ارتكاز تبـدأ عهدا جديدا فى الخليج الفارسى . يجب على دول ساحل الخليج الفارسى ادراك الأهمية التى اكتسـبها هـذا الطريق البحرى بالنسبة للعـالم بأسره ، ومساندة المجهود الايرانية الرامية الى تحقيق الأمن الكامل وحرية الانتقال فى هذه المنطقة . كما يتعين على الدول الكبرى أن تدرك كذلك ان الوقت ، الذى كانت تستطيع التأثير فى هذه المنطقة فيه ، قد ولى ، وأن دول منطقة الخليج سوف تقرر الآن مستقبل هذا الطريق البحرى البالغ الحيوية .

غير أن بعض دول المنطقة وجدت من الملائم التغاضى عن ارادة الغالبية التى تقضى بحظر وجود القوات المسلحة والقواعد العسكرية الأجنبية سواء فى منطقة الخليج الفارسى ، أو فى البحار المرتبطة به . وأثبتت هذه الدول بذلك أنها فقـدت استقلالها ، وتهدد جيرانها بنفس المصـير الان .

« طهران جورنال »
طهران — ابريل ١٩٧٤

تدخل القوات المسلحة الايرانية فى عمان

مقالة من مجلة « لموند ديبلوماتيك » الفرنسية الشهرية

فى نهاية ١٩٧٣ أعلن مكتب الاستعلامات بسفارة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فى بيروت ، ومكتب الجبهة الشعبية لتحرير عمان — على العالم بأسرة أن فيلقا ايرانيا قوامه ٣ آلاف فرد مدعما بسرب مكون من ٣٠ طائرة عمـودية ، وسفن حربية ايرانية ، قد أبحر فى ٢٠ ديسمبر عام ١٩٧٣ من قاعدة تشاهبيهار العسكرية التى يجرى انشاؤها على ساحل بلوخستان فى ايران . واتجه هـذا الفيلق الى صلالة عاصمة ظفار وموقع قاعدة عسكرية انجليزية هامة .

كانت الأجهزة الرسمية فى سلطنة عمان تنفى على امتداد فترة طويلة الوجود العسكرى الايرانى فى ظفار ، رغم تاكيدات الصحافة العالمية ، وخاصة صحيفة « نيويورك تايمز » فى عددها الصادر يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٧٣ . ولقد صرح السلطان قائلا : « ما من أحد استجاب لطلبنا المساعدات العسكرية . ولم يوافق سوى شاه ايران . والحقيقة ان الايرانيين هبطوا فى وضح النهار فى مطـار

صلالة ، ولكن ليس فى الجزر » ويقصد السلطان جزيرتى كوريا — موريا ومصيرة . أما فيما يتعلق بالشاه فانه صرح لمراسل « ديلى تلجراف » بقوله : « لقد قدمنا لسلطان عمان المساعدات التى طلبها ، ونحن على استعداد للقيام بذلك لاية دولة من دول الخليج تتعرض للخطر » .

ليس الوجود العسكرى الايرانى فى عمان وفى الخليج عامة بالأمر الجديد . ففى نهاية نوفمبر عام ١٩٧١ ، وقبل اعلان استقلال دولة الامارات العربية ، احتلت مشاة البحرية الايرانية جزيرة أبو موسى ، التى كانت تتبع فيما سبق الشارقة ، وجزيرتى تومب الكبيرة والصغيرة ، التابعتين لامارة رأس الخيمة . وتم تطهير هذه الجزر من السكان وتحويلها الى قواعد عسكرية ايرانية . وظهرت فى ديسمبر عام ١٩٧٠ مجموعات الفدائيين فى منطقة ماسيندام الجبلية الواقعة بين رأس الخيمة والمحافظة المنعزلة بعمان ، والتى تسيطر على مداخل مضيق هرمز . وتم بعد ذلك فى يوليو عام ١٩٧٢ توقيع اتفاق سرى بين السلطان قابوس وشاه ايران يضع الطرف الشمالى لعمان كله ، وخاصة شبه جزيرة أم الفنم ، تحت سيطرة مشاة البحرية الايرانية ، وخبراء حرب العصابات الايرانيين . وعلى هـذا النحو تحقق حلم الشاه بالسيطرة المباشرة على مضيق هرمز الذى تمر به كل ١٢ دقيقة ناقلة بترول . ولقد اعترف عباس هويدا رئيس وزراء ايران أثناء زيارته الرسمية للندن فى مارس ١٩٧٣ أن حكومته قد أرسلت الى عمان قوات قوامها ٥٠٠ فرد الى جانب العتاد الحربى . وليس التدخل العسكرى الاخير فى عمان سوى استمرار منطقى لسياسة موضوعة تدخل فى اطار استراتيجية ايران العامة فى الخليج . والى جانب ذلك فان هـذا التدخل يثير الدهشة من حيث الوسائل التى يجرى بها ، ومن حيث سرعته .

واخذت حكومة الشاه مع بداية عام ١٩٦٨ بعد ما أعلنت حكومة العمال البريطانية عن نيتها سحب قواتها المسلحة من منطقة الخليج خلال ثلاث سنوات — اخذت تستعد « لملء الفراغ فى المنطقة » . وبتعبير آخر كانت حكومة ايران تنوى تبنى الدور ، الذى كانت تقوم به بريطانيا العظمى فيما مضى ، على عاتقها بهدف قمع المحاولات الثورية لتغيير الوضع الاجتماعى لدول الخليج فى مهدها ، وضمان تدفق البترول الايرانى الى الغرب واليابان واسرائيل . ولقد أعلن الشاه نفسه عن هـذه الاهداف صراحة فى حديثه الذى أدلى به فى ٢١ مايو عام ١٩٧٣ لمراسل مجلة « نيوزويك » الأمريكية أرنودى بورتشجريف .

ان دور ايران كرجل البوليس فى المنطقة دور واضح حيث أخذت على عاتقها محاربة كل الحركات الثورية فى الشرق الأوسط عن طريق سياسة التدخل العسكرى (فى كل الاتجاهات) سواء من أجل مصالحها الذاتية ، أو مصالح الامبريالية الأمريكية . والجدير بالاشارة ، كما أشارت كذلك صحيفة « ماردوم » الناطقة بلسان حزب الشعب الايرانى فى فبراير عام ١٩٧٤ — الى أن القوات الايرانية تعمل فى الوقت الراهن على جبهتين : فى بلوخستان الباكستانية حيث تساعد منذ فبراير ١٩٧٣ الجيش الباكستانى فى قمع الحركة الوطنية المطالبة بالحكم الذاتى

لبلوخستان » وعلى الحدود الايرانية العراقية حيث يتمركز ٨٠ فى المائة من القوات المسلحة الايرانية .

وينبغى أن نضيف الى ذلك مساعدات ايران العسكرية للملكيين فى اليمن ، ثم مساعدة حكومة صنعاء فى الآونة الأخيرة بعد الحرب بين اليمنيين فى اكتوبر عام ١٩٧٢ .

الامبريالية « الصغيرة » المحلية

من غير الممكن وصف السياسة الايرانية ، مثلها مثل سياسة اسرائيل - فى الشرق الأوسط بأنها سياسة تخدم مصالح الامبريالية الأمريكية والاحتكارات البترولية فقط . فانها تخدم كذلك أهدافا قديمة ذات طابع ايرانى تقضى باقامة « امبراطورية ايرانية » حقيقية على الضفة الغربية للخليج . والسبيل الى ذلك هو ضم الأراضى بانتظام ، والتوسع السياسى ، والتغلغل الاقتصادى ، وتهجير السكان . ألم يقل الشاه رضا لابنه الشاه الحالى : « لقد حررت ساحلا واحدا من الخليج الفارسى (يقصد غزو عربستان عام ١٩٢٤) وتبقى لك مهمة تحرير الساحل الآخر » .

تدفق سيل المهاجرين من العمال الايرانيين (وخاصة البلوخستانيين) على امارات الخليج بعد اكتشاف البترول . وكانت الحكومة الايرانية تشجع هذه الهجرة رسميا ، حيث تتخلص من العناصر لديها وتوجد مناطق من السكان الايرانيين وهو ما يمكن أن تستخدمه فيما بعد كحجة للتوسعات الاقليمية . وكانت بريطانيا العظمى تتغاضى عن تدفق القوى العاملة على هذا النحو رغم انها كانت مسئولة عن أجهزة الهجرة ونظام الأمن فى الامارات .

وتعكس المجتمعات الايرانية التى استقرت فى الامارات تباينا طبقيا . فالغالبية العظمى ، من جهة ، من العمال محدودى الدخل المحتقرين والذين يقومون بالأعمال الشاقة ، ويعتبرون سلعة بالنسبة « لتجار الرقيق الأبيض » . وكانوا يدخلون فى كثير من الأحيان الامارات بالطرق غير الرسمية ، وكانوا يستخدمونهم كخارجين عن الاضراب فى حالة الاضرابات . ومن جهة أخرى تتكون الأقلية من التجار الأثرياء ، وكبار الموظفين ، والصرافين ، وخاصة فى الكويت ، وهى الفئة المرتبطة فى كثير من الأحيان بالسياسة الرسمية لوطنهم الذى جاءوا منه .

أضف الى ذلك أن مجتمعات كبيرة من الباكستانيين والهنود والأفارقة والفلسطينيين كانت توجد فى الامارات ، ولا سيما فى عمان ، لقد أوجدت هذه المجتمعات مشكلة صعبة وحادة للحركة العربية الثورية فى الخليج . فقد وقعت بعض فصائل حركة التحرر العربى تحت تأثير ايدلوجية القومية العربية ، ولذا اتخذت موقفا متعصبا ازاء الوضع المتناقض للمجتمعات الايرانية فى منطقة الخليج . فقد نظرت هذه الفصائل نظرة خاطئة الى هذه المجتمعات حيث اعتبرتها كتلة اجتماعية متجانسة تخدم الأهداف التوسعية للشاه فى المنطقة . وترى هذه الفصائل

طرد كل الايرانيين من المنطقة . وعلى النقيض من ذلك نجد أن جزءا كبيرا من أنصار الحركة الديمقراطية الوطنية الايرانية التى كانت تتفق والأفكار القومية للدكتور مصدق — لم يعط واقع السياسة الايرانية التوسعية فى الخليج قدرها .

ولقد أعاق التطرف المتعصب فى الحركة التحررية العربية والايرانية هذا تطور التضامن بين العرب والايرانيين . ولا يخفى على أحد أن الصدام بين العرب والايرانيين فى الخليج على أساس قومى من شأنه أن يسهل تدخل الدول القوية فى هذه المنطقة وخاصة ايران والمملكة العربية السعودية . ولم تكن خطط طرد كل الايرانيين من الامارات الا لتؤدى الى دفع كل الايرانيين فى أحضان الشاه ، حيث يبدأ فى العمل « كحام ومنقذ » فى مواجهه « الخطر العربى » . ومن ناحية أخرى فان مثل هذه المتطلبات من شأنها أن تبرر الهيكل الاستعمارى الجديد لدولة الامارات العربية المتحدة — وهى الدولة التى أنشئت نظريا لمواجهة « الخطر الايرانى » .

وتتخذ الجبهة الشعبية لتحرير عمان — التى تقود الكفاح المسلح فى ظفار منذ يونيو عام ١٩٦٥ ، وينعكس تأثيرها فى الحياة السياسية للامارات — تتخذ موقفا مغايرا لموقف الحركات القومية الأخرى فى المنطقة . فقد أعلنت الجبهة شعارا أمميا ينادى « بوحدة النضال الطبقى للكادحين العرب والايرانيين ضد الامبريالية الانجلو أمريكية ، وضد الرجعية العربية والايرانية » . ويؤكد برنامج « العمل الوطنى الديمقراطى » الذى أعده مؤتمر الجبهة الشعبية فى يونيو عام ١٩٧١ — ان « المستعمرين الانجليز والرجعيين العرب والايرانيين يحاولون بشتى الطرق تحويل الكفاح فى المنطقة ضد الامبريالية الانجليزية وعملائها الى صراع قومى تعصبى بين العرب والأقليات القومية ، التى استقرت فى الخليج وعمان بعد اكتشاف البترول ، كما يسعون الى بث الكراهية العنصرية بين العرب والايرانيين » .

غير أن الجبهة الشعبية اتخذت موقفا صلبا من السياسة التوسعية الايرانية فى الخليج وأدانت « الخيانة الوطنية للطبقات العربية المسيطرة فى الخليج وعجز دولة الامارات العربية المتحدة » فى مواجهة هذه السياسة وبمبادرة من الجبهة بالذات اندلعت المظاهرات الجماهيرية فى رأس الخيمة فى بداية ديسمبر عام ١٩٧٢ بمناسبة الذكرى الاولى لاحتلال ايران لجزر الخليج الثلاث .

ويشبه دور «الامبريالية الصغيرة المحلية» الذى تلعبه ايران فى منطقة الخليج والعراق وباكستان دور اسرائيل فى الشرق العربى . وجاء فى النشرة الرسمية للجبهة الشعبية التى تحمل اسم « صوت الثورة » والصادرة فى ١٩ يناير عام ١٩٧٤ : «ان ايران واسرائيل عبارة عن فكى كماشة يضغطان على أمتنا العربية» وتؤكد النشرة الرسمية الصادرة فى ١٢ يناير عام ١٩٧٤ ان « ادعاء الشاه بان الساحل الغربى للخليج يعتبر ارثا مسلوبا من الامبراطورية الفارسية القديمة لا يختلف فى شىء على الاطلاق عن مزاعم الصهاينة بأن الأراضى العربية الواقعة بين النيل والفرات تعتبر الوطن الحقيقى لابناء اسرائيل » .

الجانب العسكرى للقضية :

عزز الشاه ، الذى بدأت وجهات نظره تثير قلق الدول المجاورة مثل العراق وأفغانستان — عزز جيشه وقواعد امداداته بدرجة كبيرة ، وذلك بهدف تحقيق برنامجه المطموح فى منطقة الخليج . فتغطى الضفة الشرقية للخليج العربى الآن شبكة من القواعد العسكرية : فتوجد فى الاهواز عاصمة خوزستان قاعدة جوية وفى حرم شهر قاعدة بحرية ، وفى عبدان وجزيرتى حرق وكيشم ، وبوشير قواعد جوية ، وفى بندر عباس عند مدخل مضيق هرمز قواعد بحرية وجوية . وأخيرا تتحول تشاهبيهار الى أهم قاعدة جوية وبحرية فى المحيط الهندى ، حيث سوف تستخدم القوات الايرانية للتدخل فى باكستان . هذا الى جانب قاعدتى أبو موسى وجزيرة مصيرة اللتين يستخدمهما الجيش الايرانى .

أما فيما يتعلق بالقوات المسلحة الايرانية فانها بلغت فى الوقت الراهن ٢٢٠ ألف فرد من بينهم ١٠ آلاف فى الأسطول البحرى ، و ٢٠ ألف فى القوات الجوية . وينبغى أن نضيف الى ذلك ٤٠ ألف رجل جندرمة « يحفظون الأمن » فى الريف الايرانى ، و٦٠ ألف فرد فى البوليس السياسى الايرانى .

ويؤكد أرنودى بور تشجريف فى تحقيقه الصحفى المنشور فى مجلة « نيوزويك » فى ٢١ مايو عام ١٩٧٣ — أن كل ضباط القواعد البحرية فى الخليج ، والذين التقى بهم ، تلقوا فرقا تدريبية فى اسرائيل . ويصل عدد الخبراء الأمريكيين العاملين فى الجيش الايرانى الى عدة آلاف من بينهم ثلاثة جنرالات خاضعين للسفير الأمريكى ريتشارد هيلمز مباشرة — وهو المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية . وتصل قيمة طلبات الاسلحة التى تقدم بها الشاه منذ وقت قريب — ٦ مليارات دولار . ولقد خصصت ايران عام ١٩٧٣ — ٣ مليارات دولار للتسليح . وتشمل هذه الأسلحة أحدث المعدات والعتاد الحربى : القاذفات المقاتلة من طراز « فانتوم » القنابل الموجهة بالليزر ، ودبابات « تشيفتين » الانجليزية ، وطائرات تموين نفاثة . ويشمل سباق التسلح دول الخليج العربية كذلك : فتبلغ ميزانية العربية السعودية العسكرية مليار دولار فى العام ، وطلبت أبو ظبى شراء ١٤ طائرة « ميراج » فرنسية ، وتبلغ انفاقات عمان العسكرية ٦٠ فى المائة من ميزانية السلطنة .

ويوجد فى عمان الآن حوالى ٨ آلاف جندى ايرانى من بينهم ٣ آلاف فى ظفار ابتداء من ٢٢ ديسمبر ١٩٧٣ . ومهمة هذه القوات هو فتح الطريق الاستراتيجى الذى يربط صلاله بمسقط . ويعنى وجود هذه القوات بالنسبة للسلطان قابوس نهاية أسطورة استقلال عمان الذى تمتعت به السلطنة بعد انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٧٠، وهو الاستقلال الذى صدقته غالبية الدول العربية . ويعتبر جيش عمان البالغ تعداده حوالى ١٠ آلاف فرد — مثالا فريدا لتجمع المرتزقة المضادين للثورة القادمين من كل الدول : فيضم الجيش بضع مئات من المستشارين الانجليز ، وحوالى مائة ضابط باكستانى وأردنى متخصصين فى عمليات القمع السياسية ويعملون فى أجهزة الأمن والمخابرات ، فضلا عن عدد كبير من الجنود البلوخستانيين سواء من

الامارات ، أو من منطقة بروادار الواقعة على الساحل البلوخستانى فى باكستان ، والتى كانت خاضعة لسلطان عمان حتى عام ١٩٥٨ .

تم فى عمان فى ١٠ مارس عام ١٩٧٢ تشكيل مجلس للدفاع . وضم المجلس من الانجليز الكولونيل هيو اولدمان وزير الدفاع والجنرال بريجادير ب. سمايل سكرتير وزارة الدفاع ودينسون مستشار السلطان قابوس لشئون الأمن ، ودى سيلفا رئيس البوليس ، والميجور كريزى قائد الجيش ، وجون تاون مستشار قابوس للشئون الاقتصادية .

وتنشر الأجهزة الرسمية للسلطنة اعلانات فى الصحافة الاسترالية حول طلب طيارين وفنيين للاشتراك فى العمليات الحربية . وتؤكد مجلة « الطليعة » الكويتية التقدمية فى عددها الصادر فى ١٦ فبراير عام ١٩٧٤ أن باكستان تساعد جيش قابوس رسميا فى الوقت الحالى . ولقد بدأت هذه المساعدة عقب زيارة تيك خان رئيس أركان الجيش الباكستانى لمسقط كما اعترف قابوس نفسه بالتدخل الباكستانى فى حديث أدلى به لمجلة « الحوادث » اللبنانية فى ٨ فبراير عام ١٩٧٤، حيث أعلن « ينبغى علينا اللجوء الى الايرانيين والانجليز والباكستانيين لمحاربة الشيوعيين المحليين » . ومن بين مظاهر الروح المعنوية السائدة الآن فى الجيش العمانى الهروب الجماعى من فرق جيش قابوس ، ورفض القوات الجماعى القتال الى جانب الايرانيين .

موجة من الاحتجاجات :

يضيع التدخل العسكرى الايرانى فى عمان هيبة نظام قابوس بين الدول العربية الى حد كبير ، ويخدم الجبهة الشعبية لتحرير عمان . فتستطيع الجبهة الآن العمل كمدافع عن « سلامة أراضى دولة عربية يتهددها عدوان ايرانى ».وهذا ما يجرى فى اطار الخط السياسى الجديد للجبهة الشعبية والتى تؤكد على الجوانب الوطنية والديمقراطية لنضالها . ولقد تفجرت فى عدد من الدول العربية ، وخاصة فى الكويت والعراق ولبنان ، موجة من الاحتجاجات الشعبية ذات طابع قومى ومعاد للامبريالية ، وذلك بهدف ادانة التدخل الايرانى ، وطابع نظام قابوس المعادى للوطنية .

ولقد حققت الجبهة الشعبية مؤخرا نصرا دبلوماسيا بحصولها على موافقة الحكومة الليبية بافتتاح مكتب رسمى لها فى طرابلس . وتزداد اهمية هذه الخطوة الناجحة لان الحكومة الليبية كانت قد أرسلت قبل ذلك وفدا عسكريا الى السلطان قابوس ، حيث أعلن عن تاييده لحكومة مسقط فى كفاحه من أجل « القضاء على الثورة الشيوعية » فى ظفار . ويمكن القول بأن التدخل الايرانى الأخير كان العامل الحاسم الكامن وراء تحول السياسة الليبية هذا التحول الحاد .

ويعتبر تطور سياسة العراق أكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية ذلك لان العراق دولة تقع على ساحل الخليج . فبعد أن ظل العراق وقتا طويلا يتجاهل

الجبهة الشعبية ، بل ويؤيد فى وقت من الاوقات المشروعات البريطانية لانشاء اتحاد فيدرالى للامارات العربية ، نجده يقوم الان بمساعده الحركه الثوريه فى ظفار علنا .

كان رد فعل التدخل الايرانى فى عمان بالغ الحماس فى الكويت . ونود التنويه أن الكويت نظاما ديمقراطيا مثلما فى لبنان ، كما توجد معارضة قومية يتزعمها أحمد الخطيب العضو التقدمى بالبرلمان ، وتمتلك هذه المعارضة وسائل للتعبير عن رايها مثل مجلة « الطليعة » التى لا مثيل لها فى منطقة الخليج ، فضلا عما يتبعها من تنظيمات عمالية وطلابية . ولقد تم فى الكويت تنظيم اجتماعات جماهيرية للتضامن مع الحركة الثورية فى الخليج ، كما أنشئت لجان دائمة لتاييدها .

ومن المعروف أن علاقات الجبهة الشعبية لتحرير عمان بالصين قد اعتراها الفتور بدرجة كبيرة عقب زيارة وزير الخارجية الصينى لطهران فى يونيو عام ١٩٧٣، حيث أعرب عن تاييد بكين المطلق لسياسة ايران فى الخليج . أما فيما يتعلق بالتنظيمات الايرانية المعارضة والتى تعمل فى ايران فى سرية ، أو توجد فى المهجر بالخارج ، فانها أدانت كلها التدخل العسكرى لنظام الشاه فى عمان .

تدل المشتروات الخيالية للاسلحة ، والتى يقوم بها نظام الشاه فى الآونة الأخيرة — أن ايران تستعد للاصطدام بموقف من النوع الفيتنامى فى الخليج ، واحتلال كل مناطق حقول البترول فى شبه الجزيرة العربية فى حالة ظهور أزمة شديدة . واذ كان الصراع فى ظفار لم يصبح بعد « فيتنام جديدة » لنظام الشاه ، وللقوى اليسارية الايرانية ، فانه يتحول الآن الى « أسبانيا » بتعبئة نفس الحماس ، واثارة نفس المشاعر التى صاحبت الحرب الاهلية فى اسبانيا فى الثلاثينيات . أما فيما يتعلق ببريطانيا العظمى ، فانها تخوض فى ظفار ، كما فى ايرلندا ، آخر حرب استعمارية فى ظل موقف من اللامبالاة تقريبا من جانب الرأى العام بها .

« لموند ديبلوماتيك »
باريس — يونيو ١٩٧٤

تشترك القوات الايرانية فى هجوم جديد على ظفار . ولقد أعلنت حكومة عمان فى ١٠ ديسمبر أن القوات الايرانية تشترك فى هجوم كبير فى الجزء المغربى من ظفار. ويؤكد البيان الرسمى أن العمليات ، التى بدأت فى الاسبوع الماضى ، تستهدف انزال ضربة بخطوط اتصالات الثوار الممتدة من اليمن الجنوبى حتى وسط ظفار .

ويحدد البيان أن القوات الحكومية لاقت مقاومة ضعيفة واستثناء من ذلك فقدت احدى الوحدات الايرانية ٩ قتلى ، وفقدت جنديا واحدا .

وجاء فى بيان الجبهة الشعبية لتحرير عمان الصادر فى عمان أن المعارك شملت المنطقة الغربية يومى ٤ ، ٥ ديسمبر ، وأكد أن خسائر القوات الحكومية بلغت ٥٢ جنديا بين قتيل وجريح (وكالة الانباء الفرنسية) . وينفى بيان أصدرته حكومة مسقط تصريح الزواوى وزير الدولة للشئون الخارجية الذى أدلى به فى ٩ ديسمبر حول انسحاب الفيلق الايرانى من عمان .

« لمونـــد »
باريس ــ ديسمبر ١٩٧٤

وافقت الولايات المتحدة الامريكية على توريد معدات عسكرية معقدة الى عمان فقد بدأ قابوس سلطان عمان شراء طائرات عمودية أمريكية ، وغير ذلك من عتاد حربى للجيش الذى تسانده القوات الايرانية وبضع مئات من الضباط الانجليز .

وتفسر المصادر العربية والغربية خطوة الولايات المتحدة الأمريكية هـذه تفسيرات مختلفة . وهذه الأسلحة مخصصة ، كمـا أعلن عن ذلك ــ للقـوات العمانية العاملة ضد الجبهة الشعبية لتحرير عمان الماركسية الاتجاه . ويـرى المحللون الغربيون فى المساعدات الجديدة ، التى تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية للسلطان قابوس ، ضمانا ضد أى تقدم محتمل يمكن أن تحرزه قوات الجبهةالشعبية بهدف قطع امدادات البترول المتجهة الى الغرب واسرائيل والشرق الأقصى . ويرى هؤلاء المحللون ، أن اغلاق مضيق هرمز علىسـبيل المثال ، هو ما كان يعنيه وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسـنجر والمسئولون الأمريكيون الاخـرون بالحديث عن الاجراءات الرامية الى « خنق » العالم الصناعى ، وهى الاجراءات التى يمكن أن تؤدى الى التدخل العسكرى الأمريكى . غير أن الانباء الواردة من بيروت تشير الى أن الاتفاق الأمريكى العمانى ستؤدى الى وجود أمريكى فعلى فى عمان فى شكل « زيادة عدد العسكريين الأمريكيين العاملين فى اللواء الايرانى العامل فى السلطنة » فى بادىء الأمر . (ولم تنف أو تؤكد المصادر الأمريكية انباء وجـود هؤلاء العسكريين) .

ولقد صرح أحد أعضاء اللجنة المركزية للجبهة الشعبية فى مؤتمر صحفى فى ١٣ يناير ، أن الولايات المتحدة الأمريكية « أصبحت الان من بين الأطراف المشتركة الرئيسية فى الحرب فى عمان » . غير أن أحد الدبلوماسيين العرب فى بيروت ، قال « ينبغى أولا التأكد هل سيتحول التدخل الامريكى فى عمان الى تدخـل من النوع الفيتنامى فى منطقة الخليج أم لا » .

ومن الواضح أن الدول العربية الراديكالية ، مثل العراق واليمن الجنوبى، واللتين تساندان فدائى ظفار ، سوف تؤكدان أن التدخل الايرانى والامريكى على

نطاق واسع ليس سوى « بداية تدخل عسكرى امريكى ضد الدول البترولية » . وسوف ينفى المسئولون الامريكيون على ما يبدو هذا ، ويصرون على ان الولايات المتحدة لا تنوى على الاطلاق التدخل المباشر فى العمليات ضد الفدائيين فى ظفار .

وتشير الانباء الواردة من بيروت أن قرار الولايـــات المتحدة الامريكية الخـــاص بمساعدة عمان ، قد اتخذ عقب قيام ويليام كولبى مدير وكالة المخابرات المركزية، وريتشارد هيلمز السفير الامريكى فى ايران والمدير السابق لوكالة المخابرات المركزية ــ بعدد من الزيارات لمنطقة الخليج ، بما فى ذلك عمان . وترى الدوائر العليمة فى بيروت أن الاتفاق الانجلو ــ عمانى السرى الخاص بالقاعدة البريطانية فى جزيرة مصيرة ــ يقضى بامكانية سماح الحكومة البريطانية « لدولة أخرى أو مجموعة من الدول » باستخدام قاعدة مصيرة . وستكون هذه القاعدة جزءا من الشبكة الدفاعية فى المحيط الهندى التى تضم جزيرة دياجوجارسيا كذلك .

« كريستين ساينس مونيتور »
بوسطن ــ يناير ١٩٧٥ .

فهرس

صفحة

- تقديم بقلم د. فؤاد مرسى ٥
- مقدمة المؤلف ١١

- الفصل الأول :
« سبع شقيقات » يقتسمن البترول ١٥
الأسرة الاحتكارية ١٦
الامتيازات فى منطقة الخليج ٢٦
النصف بالنصف ٣١

- الفصل الثانى :
القراصنة ٣٥
الأخلاقيات تنتهى وراء السويس ٣٦
الساعة الثانية عشرة ٤٠
المظلة « العسكرية » الأمريكية ٤٧
التنافس القديم والجديد ٥٤

- الفصل الثالث :
« نبلاء » و « دهماء » ٦١
الماضى ٦٢
البدو ٦٩
الأنظمة ٧٦
التوتر الراسى ٨٧

صفحة

الكويت عام ٢٠٠٠ . . . . . ٩٧
المهربون يستخدمون التليكس ١٠٢

● **الفصل الرابع :**

انحسار الاتحاد الدولى لشركات البترول . . . ١٠٩
الشركات البترولية من غير أعضاء الاتحاد . . ١١٠
الأوبيك ١١٦
مواجهة فى طهران ١١٩
نجاح العراق ١٢٢
تربيع الدائرة ١٢٦

● **الفصل الخامس :**

وقصف الرعد ١٢٨
الحظر البترولى ١٢٩
الواقع البارد ١٣٤
أزمة الطاقة والاحتكارات ١٤٠
منظمة مضادة للأوبيك ١٤٤
جذور عميقة ١٤٩

● **الفصل السادس :**

العالم الرابع ١٥٦
انطلاق العملاق من القمقم ١٥٦
معركة « بواتيه على الطريقة الأمريكية » . . ١٦٢
أصحاب بنوك يرتدون العباءات ١٦٨
حدود الامكانيات ١٧٨

● **ملحق** ١٨٣

صدر عن دار الثقافة الجديدة

- **المؤلفات الكاملة للدكتور رفعت السعيد « المجلد الأول »**

- **تجربة التنمية والتحديث فى الجزائر**
  د. محمد نصر مهنا
  د. عبد سيد هدية

- **النشاط الخفى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية**
  ترجمة : سهام هاشم
  فخرى لبيب

- **محاضر المجلس العام الأممية الأولى « ١٨٦٦ — ١٨٦٨ »**
  ترجمة : حمدى عبد الجواد

- **استراتيجية التطوير العربى**
  تأليف : الدكتور محمد دويدار « أستاذ الاقتصاد السياسى
  جامعة الاسكندرية »

- **الاسلام والثورة**
  تأليف : د. محمد عمارة

يصدر قريبا

- **فجر الزمن القادم رواية**
  بقلم : عبد الله الطوخى

- **كشك الموسيقى**
  حكاية طويلة للأولاد والبنات
  تأليف : مجيد طوبيـــا

- **مشكلات علم الجمال الحديث**
  تأليف : عدد من العلماء السوفيت

- **فلسفة التمرد**
  تأليف : باتالوف
  ترجمة : سامى الرزاز

« تقوم الدار بتوزيع الكتب التالية : ــ

- **قصص مختارة بقلم ايتماتوف**

- **اليسار المصرى والقضية الفلسطينية د. رفعت السعيد**

رقم الايداع ١٩٧٩/٣٢٨٣

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧-٧٢١-٠٦٢-٠

مطـــابع الأهرام التجارية

الدكتور الكسى فاسيليف صحفى ومستشرق سوفيتى له دراسات فى تاريخ الشرق الأوسط والبلاد الآسيوية الأخرى ، تجول فى كثير من هذه البلاد كمراسل صحفى له مؤلفات عديدة مثل: البترول ، الشعوب والاحتكارات — الحركة الوهابية والدولة السعودية الأولى — صواريخ فوق زهرة اللوتس ((عن فيتنام)) — الرحلة الى العربية السعيدة ((عن اليمن الديمقراطية)) — الممر الصعب ((عن رحلاته الى الشرق الأوسط)) .

دار الثقافة الجديدة

مكتبة السائى (لندن)
28 WESTBOURNE GROVE W.2
01-229-8543
£ 2.50